بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء التاسع عشر

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

[الأنفال ٨/ ٢٤]

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء التاسع عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكية ، وهي سبع وسبعون آية.

تسميتها :

سميت سورة الفرقان ؛ لافتتاحها بالثناء على الله عَزَّجَلَّ الذي نزل الفرقان ، هذا الكتاب المجيد على رسوله محمد ﷺ ، فهو النعمة العظمى ، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، وجعله نذيرا للعالمين : الجن والإنس ، من بأس الله تعالى.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة سورة الفرقان لسورة النور من وجوه : أهمها : أن سورة النور ختمت بأن الله تعالى مالك جميع ما في السموات والأرض ، وبدئت سورة الفرقان بتعظيم الله الذي له ملك السموات والأرض من غير ولد ولا شريك في الملك.

وأوجب الله تعالى في أواخر سورة النور إطاعة أمر النبي ﷺ ، وأبان مطلع الفرقان وصف دستور الطاعة ، وهو هذا القرآن العظيم الذي يرشد العالم لأقوم طريق.

وتضمنت سورة النور القول في الإلهيات ، وأبانت ثلاثة أنواع من دلائل التوحيد : أحوال السماء والأرض ، والآثار العلوية من إنزال المطر وكيفية تكون الثلج والبرد ، وأحوال الحيوانات ، وذكر في الفرقان جملة من المخلوقات الدالة على توحيد الله ، كمدّ الظل ، والليل والنهار ، والرياح والماء ، والأنعام ،

والأناسي ، ومرج البحرين ، وخلق الإنسان والنسب والصهر ، وخلق السموات والأرض في ستة أيام ، والاستواء على العرش ، وبروج السماء ، والسراج والقمر ونحو ذلك مما هو تفصيل لقوله سبحانه : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقال في النور : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً﴾ [٤٣] ، وقال في الفرقان : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً﴾ [٤٨] وقال في النور : ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾ [٤٥] وقال في الفرقان : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً ، فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ [٥٤].

وفي كلتا السورتين وصف أعمال الكافرين والمنافقين يوم القيامة وأنها تكون مهدرة باطلة ، فقال في النور : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [٣٩] وقال في الفرقان : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ [٢٣].

وشمل آخر سورة النور الكلام على فصل القضاء : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ [٦٤] وافتتحت سورة الفرقان بالثناء على الله عزّوجلّ مالك الملك ، وصاحب السلطان المطلق.

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة كسائر السور المكية اهتمت بأصول العقيدة من التوحيد والنبوة وأحوال القيامة.

فبدأت بإثبات الوحدانية لله عزّوجلّ ، وصدق القرآن ، وصحة رسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، ووقوع البعث والجزاء يوم القيامة لا محالة ، وفندت أضداد هذه العقائد ، ونعت على المشركين عبادة الأصنام والأوثان ونسبة الولد لله عزّوجلّ ، وتكذيبهم بالبعث والقيامة ، وهددتهم بما سيلقون من ألوان العذاب والنكال في نار جهنم ، ومفاجأتهم بما في جنان الخلد من أصناف النعيم المقيم.

ثم أبانت شؤم مصير بعض المشركين كعقبة بن أبي معيط الذي عرف الحق ثم ارتدّ عنه ، فسمّاه القرآن بالظالم : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ﴾ متأثرا بصديقه الذي سمي بالشيطان وهو أبيّ بن خلف.

ثم ذكرت قصص بعض الأنبياء السابقين وتكذيب أقوامهم لهم ، وما حلّ بهم من نكال ودمار وهلاك بسبب تكذيبهم رسل الله ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرّس ، وقوم لوط ، وأمثالهم من الكافرين الطغاة.

وأوردت السورة أدلة على قدرة الله ووحدانيته ، مما في الكون البديع من عجائب صنعه ، وما في الأرض من آثار خلقه في الإنسان ، والبحر ، وخلق السموات والأرض في ستة أيام ، وإنزال الأمطار وإرسال الرياح مبشرات بالمطر ، وجعل البروج في السماء ، وتعاقب الليل والنهار.

ثم ختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن المخلصين الموقنين ، وما يتحلون به من أخلاق سامية وآداب رضية ، تجعلهم يستحقون بها إكرام الله تعالى وثوابه الجزيل في جنات النعيم.

إنزال القرآن ووحدانية الله تعالى

﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (٣)﴾

الإعراب :

﴿الَّـذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ ..﴾ بـدل مـن ﴿الَّـذِي﴾ الاول ، أو مـدح مرفـوع أو منصوب.

البلاغة :

﴿على عَبْدِهِ﴾ إضافة عبد إلى الله للتشريف والتكريم ، دون ذكر اسم النبي.

﴿لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ أي وبشيرا ، واكتفى بأحد الوصفين لبيان حال المعاندين ومناسبة الكلام مع الكفار.

﴿يَخْلُقُونَ﴾ و ﴿يُخْلَقُونَ﴾ جناس ناقص لتغاير الشكل فقط.

﴿ضَرًّا﴾ و ﴿نَفْعاً مَوْتاً﴾ و ﴿حَياةً﴾ بين كلّ منهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿تَبارَكَ﴾ تعالى وتعاظم وتكاثر خيره ، من البركة : وهي كثرة الخير ، ففي إنزال القرآن خير كثير من الله لعباده ، ودلالة على تعاليه عنه وعلى كل شيء في صفاته وأفعاله. ﴿الْفُرْقانَ﴾ القرآن ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل ، وبين المحق والمبطل بإعجازه ، أو لأنه فرّق وفصل بعضه عن بعض في الإنزال كما قال تعالى : ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٦].

﴿عَبْدِهِ﴾ أي رسوله محمد ﷺ ، ووصف بأنه عبد تشريفا له بكونه في أكمل مراتب العبودية ، وتنبيها إلى أن الرسول عبد للمرسل ، وهو ردّ على النصارى الذين يدّعون ألوهية عيسى عليه‌السلام . ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد أو الفرقان. ﴿لِلْعالَمِينَ﴾ للجن والأنس دون الملائكة. ﴿نَذِيراً﴾ منذرا مخوفا من عذاب الله تعالى.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ كزعم النصارى. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كقول الثنوية والمشركين. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي خلق كل ما من شأنه أن يخلق. ويلاحظ أنه تعالى في أول الآية أثبت الملك له مطلقا ، ثم نفى ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ، ثم نبّه بقوله : ﴿وَخَلَقَ﴾ على ما يدل عليه ، والخلق : إحداث مراعى فيه التقدير حسب إرادته ، كخلقة الإنسان من مواد مخصوصة وصور أشكال معينة. ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ سواه تسوية ، وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال ، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير ، واستخراج الصنائع المتنوعة ، ومزاولة الأعمال المختلفة وغير ذلك.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ بعد أن أثبت التوحيد والنبوة ، أخذ في الرّد على المخالفين فيهما ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عبدتهم ينحتونهم ويصوّرونهم ، ومن دونه أي غير الله ، وآلهة : هي الأصنام. ﴿وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ أي دفع ضر ولا جلب نفع ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً﴾ أي إماتة أحد أو إحياء أحد ﴿وَلا نُشُوراً﴾ ولا بعث أحد من الأموات ، فالنشور : الإحياء بعد الموت للحساب.

التفسير والبيان :

افتتح الله تعالى سورة الفرقان بالكلام عن إثبات الصانع ووصفه بالجلال والكمال ، وتنزهه عن النقصان والمحال ، فقال :

﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ أي أن الله تعالى يحمد نفسه الكريمة على ما نزّله على رسوله ﷺ من القرآن العظيم ، لينذر به الثقلين : الجن والإنس ويخوفه من بأسه أو عذابه وعقابه. وهذا دليل قاطع على عموم الرسالة الإسلامية للناس قاطبة وللجن أيضا. ومعنى : ﴿تَبارَكَ﴾ : تعالى وتعاظم وكثر خيره ، ولا خير ، أكثر ولا أفضل من إنزال القرآن المجيد دستور الحياة الإنسانية ، المشتمل على التبشير والإنذار ، تبشير الطائعين بالجنة ، والمخالفين المعاندين المعارضين بالنار. وإنما ذكر الإنذار فقط ولم يذكر التبشير ، مع أن مهمة الرسول تشملهما ، لمناسبة الكلام مع الكفار المعارضين الذين اتخذوا لله ولدا ، وجعلوا معه شريكا. والعبد : هو محمد رسول الله ، و ﴿الْفُرْقانَ﴾ : القرآن الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والحلال والحرام ، وفرّقه في الإنزال منجما حسب المناسبات.

ونظير الآية قوله تعالى في فاتحة سورة الكهف : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. قَيِّماً ، لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ [١ ـ ٢] وتكرار كلمة ﴿عَبْدِهِ﴾ في الآيتين مدح للنبي ﷺ وثناء عليه ؛ للإشارة إلى كمال عبوديته في

منزلة الخلق والسلطان ، كما وصفه بذلك في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال : ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ ووصفه بذلك أيضا في مقام الدعوة إليه في قوله : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ [الجن ٧٢ / ١٩] ووصفه هنا عند إنزال الكتاب عليه وتكليفه بتبليغ الرسالة.

ثم وصف الله تعالى ذاته بأربع صفات من صفات الكبرياء ، فقال :

١ ـ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن المالك الحقيقي لجميع ما في السموات والأرض هو الله تعالى ، والمالك : له السلطان المطلق في التصرف في ملكه كما يشاء ، وله القدرة التامة على ما في ملكه إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وأمرا ونهيا على وفق الحكمة والمصلحة.

وهذا دليل على وجود الله تعالى ، لأنه لا طريق إلى إثباته إلا ببيان احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه في أصل وجودها ، وزمان حدوثها ، وأثناء بقائها ، وتصرفه تعالى فيها كيف يشاء ، والحاجة إلى الموجد المتصرف يوجب وجوده ، لذا قدمت هذه الصفة على سائر الصفات.

٢ ـ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ أي لم يكن له ولد إطلاقا ، خلافا لما زعم اليهود والنصارى ومشركو العرب من جعل عزير والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله ، كما حكى القرآن عنهم: ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقالَتِ النَّصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة ٩ / ٣٠] ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ. أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ؟!﴾ [الصافات ٣٧ / ١٤٩ ـ ١٥٣].

٣ ـ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي ليس لله في ملكه وسلطانه شريك ، فهو المتفرد بالألوهية ، المستحق وحده للعبادة والعبودية ، وإذا عرف

العبد ذلك وجّه رجاءه إلى الله تعالى ولم يخف إلا منه ، ولم يشغل قلبه إلا برحمته وإحسانه.

وهذا ردّ على الثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين للعالم : وهما النور والظلمة ، وعلى عبدة النجوم والكواكب من الصابئة ، وعلى عبدة الأوثان من مشركي العرب الذين كانوا يقولون في تلبية الحج : «لبّيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك».

والصفتان المتقدمتان نزّه الله تعالى نفسه فيهما عن الولد وعن الشريك.

٤ ـ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ أي أوجد كل شيء مما سواه ، وأحدثه إحداثا راعى فيه التقدير بقدر معين والتسوية بشكل محدد ، وهيأه لما يصلح له من الخصائص والأفعال اللائقة به ، فالإنسان مثلا خلقه الله بشكل مقدر مسوّى في أحسن تقويم ، وأوجد فيه من الحواس والطاقات والإمكانات للإدراك والفهم ، والنظر والتدبير ، واستنباط الصنائع ، ومزاولة الأعمال المختلفة ، وكذلك الحيوان والجماد جاء به على خلقة مستوية مقدرة ، مطابقة لما يراه من الحكمة والمصلحة والتدبير ، ولما قدر له غير منافر أو متجاف عنه. والخلاصة : أنه قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد.

وفسّر ابن كثير الجملة الأخيرة بأن كل شيء مخلوق مربوب لله ، والله هو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

وبعد أن وصف الله تعالى نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو ، أردف ذلك بتزييف مزاعم عبدة الأوثان فقال :

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ..﴾ إلى قوله : ﴿وَلا نُشُوراً﴾ والمعنى أن تلك الآلهة المزعومة لا تستحق الألوهية لنقصانها من وجوه أربعة هي.

أ ـ أنها لا تخلق شيئا ، والإله يجب أن يكون قادرا على الخلق والإيجاد.

ب ـ أنها مخلوقة ، والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنيا عن غيره. ولما اعتقد المشركون في أصنامهم أنها تضرّ وتنفع عبّر عنها بقوله : ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كما يعبر عن العقلاء.

ج ـ أنها لا تملك لأنفسها ضرا ولا نفعا ، أي لا دفع ضرر ولا جلب نفع ، فلا تملك ذلك لغيرها ، ومن لا يملك لنفسه ولا لغيره النفع ودفع الضرر لا فائدة في عبادته.

د ـ أنها لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا ، أي لا تقدر على الإماتة والإحياء المبتدأ والمعاد في زماني التكليف والجزاء ، ومن كان كذلك كيف يسمى إلها؟ بل ذلك كله مرجعه إلى الله عزّوجلّ الذي هو يحيي ويميت ، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨].

والخلاصة : أن الله هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، لا إله غيره ، ولا ربّ سواه ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن. وأما عبدة الأصنام والمشركون فقد عبدوا غير الخالق ، الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا ، ولا يقبل بهذا عاقل متزن ، أو عالم متأمل.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

١ ـ الله تعالى هو الإله الموجود الواحد الأحد ، الخالق المالك لكل شيء.

٢ ـ الله تعالى مصدر الخير الكثير الفياض على عباده ، ومن أتمّ فضائله

وخيراته ونعمه إنزاله القرآن الكريم على عبده ورسوله محمد ﷺ.

٣ ـ إثبات نبوة محمد ﷺ ، وتحديد مهمته في الإنذار والتبشير ، فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار.

٤ ـ الرسالة الإسلامية رسالة شاملة للثقلين : الجن والإنس ، عالمية الهدف ، موجهة لكل أبناء البشرية في مشارق الأرض ومغاربها ، لأنها التي تمثل الدين الحق ، وخاتمة الرسالات الإلهية كما قال ﷺ فيما ورد في الصحيحين والنسائي عن جابر : «بعثت إلى الأحمر والأسود» وقال فيما رواه أحمد عن علي : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي» وذكر منها : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصّة ، وبعثت إلى الناس عامة» فالنبي ﷺ قد كان رسولا إلى العالمين : الإنس والجن ، ونذيرا لهما ، وأنه خاتم الأنبياء ، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح عليه‌السلام ، فإنه عمّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان ، بحكم الواقع ؛ لأنه بدأ به الخلق.

٥ ـ عظم الله تعالى نفسه بأربع صفات من صفات الكبرياء وهي أنه مالك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، فنزّه نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله أي بناته ، وعما قالت اليهود : عزير ابن الله ، وعما قالت النصارى : المسيح ابن الله ، تعالى الله ، وأنه لا شريك له في الملك لا كما قال عبدة الأوثان ؛ وخلق كل الأشياء لا كما قال المجوس والثّنوية : إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء.

٦ ـ دلّ قوله سبحانه : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ على أنه تعالى خالق لأعمال العباد.

٧ ـ بالرغم من هذه الأدلة على وحدانية الله وقدرته اتخذ المشركون آلهة لا تتصف بأي صفة من صفات الله تعالى ، بل إنها أعجز من البشر الذين عبدوها مع الله ، فهي مخلوقة غير خالقة ، ولا تدفع ضررا ولا تجلب نفعا لنفسها ولمن

يعبدها ، لأنها جمادات ، ولا تقدر على التصرف في شيء بالإحياء ، والإماتة ، والنشور : الإحياء بعد الموت ، فهل بعد هذا يقبل عاقل اتخاذها آلهة معبودة؟! لقد احتقر الإنسان نفسه إذ يسجد لصنم أو وثن ، أو يستوعب مثل هذه الخرافات والأباطيل.

مطاعن المشركين في القرآن

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦)﴾

الإعراب :

﴿وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أساطير : خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه أساطير الأولين ، والأساطير : جمع أسطورة ، أو أسطار : وهو ما سطره المتقدمون.

المفردات اللغوية :

﴿إِنْ هَذا﴾ ما القرآن. ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب واختلاق. ﴿افْتَراهُ﴾ اختلقه محمد. ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ جماعة من اليهود ، فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم ، وهو يعبر عنه بعبارته ، وقيل : هم جبر ويسار وعدّاس. ﴿ظُلْماً﴾ الظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وهو هنا جعل الكلام المعجز إفكا مختلفا متلقفا من اليهود. ﴿وَزُوراً﴾ الزور : الكذب والقول الباطل البعيد عن الحق ، وهو هنا نسبة ما هو بريء منه إليه. والمعنى : جاؤوا بالأمرين : الظلم والزور ، أي الكفر والكذب.

﴿وَقالُوا﴾ أيضا : هو ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكاذيب المتقدمين التي سطروها وهو جمع أسطورة أو أسطار. ﴿اكْتَتَبَها﴾ انتسخها من ذلك القوم ، بأن كتبها بنفسه أو استكتبها وأمر بكتابتها. ﴿تُمْلى عَلَيْهِ﴾ تقرأ عليه ليحفظها. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ غدوة وعشية ، أو صباحا ومساء ، والمراد : دائما.

﴿قُلْ : أَنْزَلَهُ﴾ رد عليهم. ﴿السِّرَّ﴾ الغيب ، أي أعجزكم جميعا بفصاحته وتضمنه أخبارا عن مغيبات مستقبلة ، وأشياء خفية لا يعلمها إلا عالم الأسرار ، فكيف تجعلونه أساطير الأولين؟! ﴿إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي إنه تعالى كان وما يزال غفورا للمؤمنين رحيما بهم ، ولا يعجّل أيضا في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته على العقاب ، واستحقاقكم إنزال العذاب.

سبب النزول :

قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث ، فهو الذي قال هذا القول. وعنى بقوله تعالى : ﴿وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ عدّاس مولى حويطب بن عبد العزّى ، ويسار غلام عامر بن الحضرمي ، وجبر مولى عامر أو أبو فكيهة الرومي ، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب ، وكانوا يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها ، فلما أسلموا ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم ، قال النضر ما قال. فرد الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً﴾.

المناسبة :

بعد أن تكلم سبحانه أولا في التوحيد ، وثانيا في الرد على عبدة الأوثان ، تكلم ثالثا في النبوة ، وذكر مطاعن المشركين : طعنهم في القرآن ، وطعنهم في نبوة النبي محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى في هذه الآيات شبهتين من شبهات المشركين الواهية التي تدل على سخافة عقولهم وجهلهم ، فقال :

الشبهة الأولى :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ ، وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي وقال هؤلاء الجهلة من الكفار : ما هذا القرآن إلا كذب واختلاق ، اختلقه

محمد ﷺ ، واستعان على جمعه بقوم آخرين من أهل الكتاب الذين أسلموا فيما بعد ، كما ذكر في سبب النزول.

فأجابهم تعالى عن هذه الشبهة بقوله :

﴿فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً﴾ أي فقد افتروا هم قولا باطلا ، وهم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه ، فكان قولهم كفرا وظلما بيّنا في غير موضعه ، وكذبا مفترى على ربهم ، إذ جعلوا الكلام المعجز وهو هذا القرآن إفكا مفترى من قبل البشر. وهذه غاية حجة الضعيف ، فإنه إذا لم يجد جوابا مقنعا ، بادر إلى الإنكار الذي لا دليل عليه ، والتكذيب الذي لا مستند له ، فلو صح ما قالوا فلم لم يأتوا بمثله ، واستعانوا كما استعان محمد ﷺ بغيره على وفق زعمهم ، فإعجاز القرآن دليل كاف وحده للرد عليهم وإبطال مفترياتهم ، وهم أهل الفصاحة والبيان.

الشبهة الثانية :

﴿وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي وقال الكفار المشركون أيضا : إن هذا القرآن أساطير الأولين أي أكاذيب المتقدمين ، وأحاديث السابقين الذين سطروها في كتبهم كأحاديث رستم واسفنديار ، انتسخها محمد ﷺ بوساطة أهل الكتاب يعني عامرا ويسارا ، وجبرا أو أبا فكيهة مولى ابن الحضرمي ، فهي تقرأ عليه صباح مساء ، أي دائما ، وخفية ليحفظها ، إذ هو أمي لا يقرأ ولا يكتب. وهذا محض افتراء آخر ، وتضليل وبعد عن الحق ومكابرة ، فقد عرفوا صدق محمد ﷺ ، وأمانته وسلوكه ، وبعده عن الكذب ، مدة أربعين عاما قبل البعثة ، حتى لقّبوه بالأمين ، لما يعلمون من صدقه واستقامته ، وكان أميا لا يعرف شيئا من الكتابة ، لا في أول عمره ولا في آخره ، فلما أكرمه الله بالرسالة عادوه واتهموه بما هو بريء منه ، ووصفوا القرآن

المنزل عليه بالأساطير ، مع أنه دستور الحكمة والمدنية والحضارة والعلم والتشريع الأمثل للحياة الإنسانية.

ثم أجابهم الله تعالى بقوله :

﴿قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد النبي : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين بصدق مطابق للواقع الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

﴿إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي إن هذا القرآن إنما نزل رحمة بالعباد ، فلا يكون سببا لتعجيل العقاب ، لذا لم يعاجلكم بالعقوبة رحمة بكم ؛ لأنه تعالى غفور رحيم ، يمهل ولا يعجل ، لتتوبوا وتقلعوا عن الكفر والشرك. فهذه دعوة لهم إلى التوبة والإنابة والإقبال على ساحة الإسلام والهدى ، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، فمن تاب تاب الله عليه ، بالرغم مما صدر منهم من افتراء وكذب ، وكفر وعناد ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا : إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ ، وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ. أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة ٥ / ٧٣ ـ ٧٤] وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ، فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ ، وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج ٨٥ / ١٠] قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة.

وهذا دليل على أن التوبة الصادقة تسقط الإثم والذنب وتجبّ ما قبلها من الذنوب ، فهي مغفورة كرما من الله تعالى ، وفضلا ورحمة.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات حكاية شبهتين للمشركين وجوابين عنهما ، أما الشبهتان فهما : أن القرآن كذب مختلق اختلقه محمد ﷺ وأعانه عليه قوم من اليهود وأن القرآن أساطير أي أكاذيب وحكايات المتقدمين ، فهي تلقى على محمد ، وتقرأ في أول النهار وآخره ، أي دائما ، حتى تحفظ.

والرد على الشبهة الأولى : أنهم هم الذين افتروا هذا القول الباطل وهم يعلمون بطلانه ، لا أن القرآن مفترى. والرد على الشبهة الثانية أن منزل القرآن هو الله الذي يعلم السر والغيب والجهر ، فلا يحتاج إلى معلّم ، ولو كان القرآن مأخوذا من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها ، وقد جاء بفنون تخرج عنها ، فليس مأخوذا منها ، وأيضا لو كان مأخوذا من هؤلاء ، لتمكّن المشركون منه أيضا ، كما تمكن محمد ﷺ ، فهلا عارضوه؟ فبطل اعتراضهم من كل وجه.

وبيان هذا الجواب : إن الله تحداهم بالمعارضة ، وظهر عجزهم عنها ولو كان ﷺ أتى بالقرآن مستعينا بأحد ، لسهل عليهم الاستعانة بآخرين ، فيأتون بمثل هذا القرآن ، فلما عجزوا عنه ، ثبت أنه وحي الله وكلامه ، لهذا قال : ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي أن تلك الفصاحة القرآنية لا تتأتى إلا من العالم بكل المعلومات ، وأن القرآن مشتمل على الإخبار عن المغيبات ، وذلك لا يتأتى إلا من كامل العلم ، وأن القرآن مبرأ عن النقص والتعارض ، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء ٤ / ٨٢] والقرآن مشتمل على أحكام منسجمة مع مصالح العالم ونظام الناس ، وهو لا يكون إلا من العالم الواسع العلم ، وكذلك القرآن مشتمل على أنواع العلوم ، وهو لا يتأتى إلا من العليم الخبير.

طعن المشركين في النبي المنزل عليه القرآن

﴿وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩) تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠)﴾

الإعراب :

﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً فَيَكُونَ﴾ منصوب لأنه جواب التحضيض بالفاء ، بتقدير «أن».

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ معطوف على ﴿يُلْقى﴾ وكلاهما داخل في التحضيض ، وليس بجواب له.

﴿وَيَجْعَلْ﴾ معطوف على جواب الشرط وهو «جعل» وموضعه الجزم ، وحسن أن يعطف المستقبل على الماضي لفظا ؛ لأنه في معنى المستقبل ؛ لأن «إن» الشرطية تنقل الفعل الماضي إلى الاستقبال. وقرئ بالرفع على أنه مستأنف ، تقديره : وهو يجعل لك.

البلاغة :

﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ﴾ استفهام يراد به التهكم والتحقير.

﴿وَقالَ الظّالِمُونَ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا عليهم ظلم ما قالوه.

المفردات اللغوية :

﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ﴾ أي ما لهذا يزعم الرسالة؟ وفيه استهانة وتهكم. ﴿يَأْكُلُ الطَّعامَ﴾ كما

نأكل ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾ لطلب المعاش كما نمشي ، والمعنى : إن صح ادعاؤه ، فما باله يخالف حاله حالنا ، وذلك لقصور نظرهم على المحسوسات ، فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية ، وإنما بالأمور المعنوية ، كما أشار تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ [الكهف ١٨ / ١١٠ ، وفصلت ٤١ / ٦].

﴿لَوْ لا﴾ هلا. ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ يصدقه ، فنعلم صدقه بتصديق الملك. ﴿أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ من السماء ينفقه ويستغني به عن طلب المعاش. ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان ، أي إن لم يلق إليه كنز ، فلا أقل من أن يكون له بستان ، كما للدهاقين والمياسير ، فيعيش من ريعه وغلته ، وهذا منهم على سبيل التنزل. ﴿يَأْكُلُ مِنْها﴾ أي من أثمارها ، فيكتفي بها ويتميز علينا بها. وقرئ نأكل أي نحن ، وهذا كله تفكير الماديين. ﴿وَقالَ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون. ﴿إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ أي سحر فغلب على عقله واختل تفكيره. ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ﴾ أي قالوا فيك الأقوال العجيبة الشاذة التي جرت مجرى الأمثال ، واخترعوا لك الأحوال النادرة ، كالمسحور والمحتاج إلى ما ينفقه ، وإلى ملك يعاونه في الأمر. ﴿فَضَلُّوا﴾ بذلك عن الهدى وعن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبي ﷺ ، والمميز بينه وبين المتنبئ ، فخبطوا خبط عشواء وقوله : ضلوا : أي بقوا متحيرين في ضلالهم. ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الرشد والهدى ، أو إلى القدح في نبوتك. ﴿قُصُوراً﴾ جمع قصر وهو كل بيت مشيد بالحجارة ونحوها ، أما ما يتخذ من الصوف أو الشعر فهو البيت في عرف العرب.

سبب النزول :

أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها ، لا ينقصك ذلك عندنا شيئا في الآخرة ، وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة ، فقال : لا ، بل اجمعها لي في الآخرة ، فنزلت: ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ﴾ الآية. أي أن عرض الخزائن من الله. وجاء في السيرة النبوية أن عروض الإغراء بالمال والغنى ، والسيادة والجاه ، والملك والسلطان كانت من زعماء قريش.

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن عتبة بن ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبا البحتري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ومنبّه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض :

ابعثوا إلى محمد ، وكلّموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك ، قال : فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف ، فنحن نسوّدك ، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك؟.

فقال رسول الله ﷺ : ما بي مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فسل لربك ، وسل لنفسك أن يبعث معك ملكا يصدّقك فيما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ، إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية.

المناسبة :

بعد بيان شبهتي المشركين في القرآن ، أبان الله تعالى شبهة ثالثة في النبي المنزل عليه القرآن ، وهو الرسول محمد ﷺ ، ثم أبطل تعالى تلك الشبه ، وكشف سخفها وزيفها وعدم صلاحيتها للطعن في النبي ﷺ ، فهي في غاية السخافة والسقوط ، ولا دليل عليها ، وإنما هي تعللات تشير إلى تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة.

التفسير والبيان :

ذكر المشركون خمس صفات للنبي ﷺ تتعارض مع النبوة في زعمهم وهي :

١ ـ ﴿وَقالُوا : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ﴾ أي قال المشركون : لا ميزة لهذا النبي الذي يدعي الرسالة ، فهو يأكل كما نأكل ، ويشرب كما نشرب ، ويحتاج إلى ذلك كما نحتاج إليه ، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش.

٢ ـ ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾ أي يتردد فيها وإليها ، طلبا للتكسب والتجارة وابتغاء للرزق والمعيشة ، فمن أين له الفضل علينا ، وهو مثلنا في هذه الأمور؟

وهذا منهم تصور مادي محض ، وموازنة ساذجة ، فإن الرسل لم يمتازوا بصفات حسية مادية ، فهم في هذا كغيرهم من البشر ، وإنما امتازوا بقيم معنوية ، ومكاسب أدبية ، وطهارة نفسية ، لذا قال تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ [الكهف ١٨ / ١١٠].

٣ ـ ﴿لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ، فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ أي هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه ، ويرد على من خالفه ، كما

قال فرعون عن موسى عليه السلام : ﴿فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٣].

٤ . ﴿أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ أي وهلا ألقي عليه كنز من السماء ، فينفق منه ، فلا يحتاج إلى التردد في الأسواق لطلب المعاش.

٥ . ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها﴾ أي إن لم يكن له كنز فلا أقل من أن يكون كأحد الدهاقين أو المياسير ، له بستان يأكل منه ، ويعيش من غلته وثمرته.

قال الزمخشري : إنهم يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك ، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا أيضا فقالوا : وإن لم يكن مرفودا بملك ، فليكن مرفودا بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق. [(١)]

وهذا تصور مادي محض ، وقياس على أحوال أصحاب السلطة والنفوذ الدنيوي ، وتقدير منهم أن الرسالة أمر آخر فوق البشرية ، وما فهموا ولا أدركوا أن الرسول بشر أوحي إليه من عند ربه.

وبعد أن انتقصوا الرسول ﷺ بصفات أهل الدنيا ، وعيروه بها ، نفوا عنه صفة العقل ، وهي شبهة أخرى أو صفة سادسة ، فقالوا :

٦ . ﴿وَقالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ أي وقال الكافرون : ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختل عقله ، فهو لا يدرك ما يقول ، فكيف يطاع فيما يأمر؟.

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤٠٠

فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بقوله :

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ ، فَضَلُّوا ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أي انظر متعجبا أيها الرسول ، كيف قالوا فيك تلك الأقوال ، واخترعوا لك تلك الصفات ، والأحوال النادرة ، وقذفوك وافتروا عليك بقولهم : ساحر مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر ، وكلها أقوال باطلة ، وأوصاف مفتراة ، لا يصدق بها من له أدنى فهم وعقل ، فصاروا متحيرين ضلّالا عن طريق الهدى والحق ، فلا يجدون طريقا إليه.

وهذا جواب إجمالي ، أردفه بجواب خاص عن طلب البستان والكنز ، فقال : ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾ أي تكاثر خير ربك ، فهو إن شاء وهب لك في الدنيا خيرا مما اقترحوا أو طلبوا ، وهو أن يعجل لك مثلما وعدك به في الآخرة من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، والقصور الشامخة النادرة ، وأن يؤتيك خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن. ولكن الله تعالى ادخر لك العطاء في دار الآخرة الخالدة ، لا في الدنيا الزائلة ، حتى لا تشتغل بالدنيا عن الدين ، وأداء مهمة تبليغ الرسالة ، ولأن ما عند الله خير وأبقى.

قال خيثمة : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ، ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : «اجمعوها لي في الآخرة» فأنزل الله عزوجل في ذلك : ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ المقارنة البناءة المثمرة بين التفكير المادي الذي يؤثر الدنيا ، والتفكير

الديني الذي يتخذ الدنيا وسيلة للحياة ، وجسرا إلى الآخرة ، وأن الدنيا ليست هي كل هدف الإنسان العاقل ، فأمامه عالم آخر ، عليه الاستعداد له ، والإعداد للظفر بخيراته بالإيمان والعمل الصالح.

٢ ـ إن دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب العيش ، وكان ﷺ يدخلها لحاجته ، ولتذكير الناس بأمر الله ودعوته ، وعرض نفسه فيها على القبائل ، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق.

وقد تاجر الصحابة وبخاصة المهاجرون في الأسواق ، كما خرّج البخاري عن أبي هريرة : «وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفق (١) في الأسواق».

٣ ـ من لم يتأثر بعقل مجرد وقلب طاهر بأقوال النبي ﷺ وبرسالته لذاتها ، لما فيها من هداية إلى الحق والخير والتوحيد ، لم تنفعه إنذارات الملائكة ، فما وراء الإنذار إلا العذاب.

٤ ـ إن الاتهامات الرخيصة والأوصاف المرذولة زائفة باطلة عند أهل الحكمة والاتزان ، والحصافة والعقل. فمن يصدّق أن رسول الله ﷺ الذي عرف بالفطنة ورجاحة الرأي والعقل وسداد التفكير ساحر مسحور ، وشاعر مأفون ، ومجنون مختل العقل؟ إن الواقع خير شاهد على تكذيب تلك المزاعم والافتراءات. ولا تحتاج إلى جواب إلا كما قال تعالى : (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ).

٥ ـ إن فضل الله وخيره ونعمه كثيرة لا تعد ولا تحصى ، وقدرته شاملة لكل شيء ، إذا أراد شيئا قال له : (كُنْ فَيَكُونُ) لكنه تعالى لا يريد لأنبيائه وأوليائه أن يكونوا أهل غنى وثروة ودنيا ، فأهل الغنى والثروة تنتهي سمعتهم بموتهم ، ولا يبقى لهم ذكر أو شهرة ، وإنما أراد الله تعالى لأنبيائه تخليد آثارهم

---

(١) الصفق : التبايع.

وذكراهم في الحياة الإنسانية بالقيم الخالدة ، والمعاني السامية ، وبما قدموه للبشرية من عطاء تذكره لهم الأجيال ، ويحتكم إلى أصالته الحكماء ، ويظل أثرهم الخالد مضرب الأمثال ، وقدوة لكل إنسان ، وأمل الحيارى ، وحلم المعذبين في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾. [الأعلى ٨٧ / ١٦ ـ ١٧].

يروى أن هذه الآية : ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ﴾ أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي ﷺ [١] ؛ وفي الخبر : إن رضوان لما نزل سلّم على النبي ﷺ ؛ ثم قال : يا محمد ، ربّ العزة يقرئك السلام ، وهذا سفط [٢] ـ فإذا سفط من نور يتلألأ ـ يقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة مثل جناح بعوضة ؛ فنظر النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير له ؛ فضرب جبريل بيده الأرض ، يشير أن تواضع ، فقال : يا رضوان ، لا حاجة لي فيها ، الفقر أحب إليّ ، وأن أكون عبدا صابرا شكورا ، فقال رضوان : أصبت ، الله لك.

٦ ـ دل قوله تعالى : ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ ..﴾ على أنه سبحانه يعطي العباد على حسب المصالح ، فيرزق بعضهم نعمة المال ، وآخر نعمة العلم ، وغيرهم نعمة العقل والفهم ، وهو فعال لما يريد.

---

(١) كان رضوان في هذا مع جبريل عليه‌السلام أمين الوحي بدليل بقية الخبر.

(٢) السفط : المحفظة أو الوعاء المخصص لوضع الطيب ونحوه من أدوات النساء.

إنكار المشركين يوم القيامة وحالهم فيه ومقارنتهم بأهل الجنة

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (١٦)﴾

الإعراب :

﴿سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، تقديره : سمعوا لها صوت تغيظ وزفير. ﴿أُلْقُوا مِنْها مَكاناً مِنْها﴾ حال من ﴿مَكاناً﴾ لأنه في الأصل صفة له.

﴿قُلْ : أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ؟ ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من السعير ، وجاء التفضيل بينهما على حد قولهم : الشقاء أحب إليك أم السعادة. وأفعل التفضيل يقتضي الاشتراك بين الشيئين في الأصل ، وإن اختلفا في الوصف ، فلا يجوز القول : العسل أحلى من الخلّ ، لعدم الاشتراك في أصل الحلاوة ، وأجازه الكوفيون.

﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ خالِدِينَ﴾ حال من ضمير. ﴿لَهُمْ﴾ أو من ضمير ﴿يَشاؤُنَ﴾.

البلاغة :

﴿سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ استعارة تمثيلية ، شبه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره ، لما فيهما من هياج واضطرام ، وهو صوت يسمع من جوفه.

المفردات اللغوية :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ القيامة ، والمعنى : ليس ما ذكروه من الشبهة في وصف الرسول ﷺ بما زعموا من الأوصاف الخمسة أو الستة يصلح أن يكون شبهة ذات بال أو أهمية ، بل الذي حملهم على تقولهم وافترائهم تكذيبهم بالساعة ، وبما فيها من ثواب وعقاب ؛ لان من يخاف الآخرة ينظر ويفكر ، ولا يتورط بالتكذيب والافتراء ﴿وَأَعْتَدْنا﴾ هيأنا. ﴿سَعِيراً﴾ نارا مسعّرة شديدة الاشتعال. ﴿رَأَتْهُمْ﴾ إذا كانت بمرأى منهم ، كقوله ﷺ عن المسلمين والمشركين فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن جرير : «لا تتراءى ناراهما» أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى عن الأخرى ، على سبيل المجاز. ﴿مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه. ﴿سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ أي سمعوا لها صوت تغيظ وزفير ، والتغيظ : شدة الغضب ، والزفير : هو النّفس الخارج من الإنسان ، ضد الشهيق.

﴿مِنْها مَكاناً﴾ أي في مكان ، ومنها : بيان تقدم ، فصار حالا. ﴿ضَيِّقاً﴾ بأن يضيق عليهم ، ووصف بالضيق لزيادة العذاب ، فإن الكرب مع الضيق ، والانشراح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مصفدين ، قد قرنت (جمعت) أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال والسلاسل. ﴿هُنالِكَ﴾ في ذلك المكان. ﴿ثُبُوراً﴾ أي هلاكا ، والمعنى : أنهم يتمنون الهلاك ويطلبونه قائلين : يا ثبوراه تعال. فهذا حينك. ﴿وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ أي اطلبوا أنواعا من الهلاك ؛ لأن عذابكم أنواع كثيرة ، كل نوع منها ثبور ، لشدته ، أو لأنه يتجدد ، كقوله تعالى : ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ [النساء ٤ / ٥٦].

﴿أَذلِكَ﴾ المذكور من الوعيد والعذاب وصفة النار. والاستفهام والتفضيل والترديد في قوله : ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ للتقريع مع التهكم. وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح ، أو الدلالة على خلودها ، وتمييزها عن جنات الدنيا. ﴿وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وعدها المتقون وهم الذين يتقون الكفر والتكذيب

﴿كانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو في اللوح المحفوظ. ﴿جَزاءً﴾ ثوابا على أعمالهم بوعد جازم من الله. ﴿وَمَصِيراً﴾ مرجعا ينقلبون إليه. ﴿ما يَشاؤُنَ﴾ ما يشاءونه من النعيم ، وفيه تنبيه على ان كل المرادات والرغبات لا تحصل إلا في الجنة. ﴿وَعْداً مَسْؤُلاً﴾ أي كان ذلك موعودا ، حقيقا بأن يسأل ويطلب ، ويسأله الذين وعدوا به ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٤] أو تسأله الملائكة لهم ، كما قال سبحانه : ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر ٤٠ / ٨].

المناسبة :

بعد بيان الشبهات الثلاث المتقدمة للمشركين وهي : ﴿إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ﴾ الآية ، وبعد الجواب عن الشبهة الثالثة بجوابين : أولهما . ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ﴾ وثانيهما . ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ﴾ بعد ما ذكر ، أجاب الله تعالى بجواب ثالث عن تلك الشبهة بقوله : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ..﴾ أي إن تقولهم عليك أيها الرسول مصدره تكذيبهم بالبعث ، وعدم تصديقهم بالثواب والعقاب. أو أنه عطف على ما حكي عنهم ، ثم قال : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة.

التفسير والبيان :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي إن موقف هؤلاء المشركين منك أيها الرسول بالتكذيب والعناد ، لا بالتبصر والاسترشاد ، والتقول عليك بالأباطيل ، ناشئ من تكذيبهم بيوم القيامة ، فذلك هو الذي يحملهم على ما يقولونه من تلك الأقوال الساقطة ؛ لأن من لا يوقن بالقيامة ، ولا بالحساب والجزاء يتورط بسرعة في الاتهام دون تقدير للمسؤولية ، ولا تأمل في عواقب الأمور ، ولا انتفاع بالأدلة التي ترشده إلى التعقل والتبصر بما يقول ، فهذا أعجب من كل ما صدر منهم.

﴿وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ أي هيأنا وأرصدنا لمن كذب بالقيامة وما فيها من حساب وجزاء ، نارا مستعرة شديدة الالتهاب ، وعذابا أليما حارا في نار جهنم. والسعير : مذكر ، ولكن جاء هنا مؤنثا لعود الضمير بالتأنيث في قوله تعالى : ﴿رَأَتْهُمْ﴾ وقوله ﴿سَمِعُوا لَها﴾ وإنما جاء مؤنثا على معنى النار.

ودلت الآية على أن النار مخلوقة ؛ لأن ﴿أَعْتَدْنا﴾ أعددنا إخبار عن فعل

وقع في الماضي ، مثل قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣١] وكذلك الجنة مخلوقة ؛ لقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٣].

ثم وصف الله تعالى أهوال النار بصفتين فقال :

الصفة الأولى :

﴿إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ، سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ أي إذا كانت النار بمرأى من الناظر من بعيد ، سمعوا صوت غليانها ، الذي يشبه صوت المتغيظ ، لشدة التهابها ، وصوت الزافر الحزين الذي يخرج النّفس من جوفه.

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال : «إن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل إلا خرّ لوجهه ، ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم عليه‌السلام ليجثو على ركبتيه ، ويقول : ربّ ، لا أسألك اليوم إلا نفسي».

الصفة الثانية :

﴿إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ ، دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً ، لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً ، وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ أي بعد أن وصف الله حال الكفار ، وهم في بعد من جهنم ، وصف حالهم عند إلقائهم فيها ، فإذا ألقوا فيها في مكان ضيق مكتّفين ، أي قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال والسلاسل ، صاحوا واستغاثوا وقالوا : يا ثبوراه ، أي يا هلاكنا احضر ، فهذا وقتك ، فيقال لهم : لا تنادوا هلاكا واحدا ، ونادوا هلاكا كثيرا ، أي أنكم وقعتم ليس في هلاك واحد ، وإنما في ثبور كثير ، إما لتنوع ألوان العذاب ، فكل نوع منها عذاب لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا غيرها. والمقصود تيئيسهم من الخلاص من العذاب بالهلاك ، والتنبيه إلى أن عذابهم أبدي لا خلاص منه.

ووصف المكان بالضيق ؛ لأن الكرب مع الضيق ، كما أن الرّوح مع السعة ، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض ، وجاء في الأحاديث «أن لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا» ولقد جمع الله على أهل النار أنواع الإرهاق والتضييق ، حيث ألقاهم في مكان ضيق يتراصون فيه تراصا ، كما ذكر صاحب الكشاف ، وكما روي عن ابن عباس وابن عمر أنهما قالا : «إن جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزّج . الحديدة التي في أسفل الرمح . على الرمح» وسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال : «والذي نفسي بيده ، إنهم يستكرهون في النار ، كما يستكره الوتد في الحائط».

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «أول من يكسى حلّة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ، ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادي : يا ثبوراه ، وينادون : يا ثبورهم ، حتى يقفوا على النار ، فيقول : يا ثبوراه ، وينادون : يا ثبورهم ، فيقال لهم : ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً ، وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾» أي لا تدعوا اليوم ويلا واحدا ، وادعوا ويلا كثيرا. قال ابن كثير : الأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٢]. أي هالكا.

وبعد أن وصف الله عقاب المكذبين بالساعة قارن بينه وبين ثواب المؤمنين المتقين ، بما يؤكد الحسرة والندامة ، فقال لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ : أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين تهكما بهم وتحسيرا لهم : أهذا العذاب الذي وصفت لكم أفضل أم نعيم جنة الخلد الذي يدوم إلى الأبد ، وقد وعدها المتقون الأبرار الذين أطاعوا الله فيما أمر به ، وانتهوا عما نهى عنه ، وجعلها لهم جزاء طاعتهم في الدنيا ، ومآلهم الحسن إليها. وجنة الخلد : هي التي لا ينقطع نعيمها ، والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور.

﴿لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ﴾ للمتقين في جنة الخلد ما يشتهون من الملاذ في الأكل والشرب والملبس والمسكن والمركب والمنظر ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم في النعيم خالدون أبدا دائما ، بلا انقطاع ولا زوال ، ولا يبغون عنها حولا.

وهذا دليل على تحقيق جميع الرغبات ، ووعد من الله الذي تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم ، لهذا قال : ﴿كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً﴾ أي لا بد أن يقع ، وأن يكون وعدا واجبا ، وموعودا به ، جديرا بأن يسأل ويطلب ، وينجز ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ ، وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ ، إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٤] وقال سبحانه : ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٠١].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن منشأ إنكار المشركين لوحدانية الله ، وتكذيبهم برسالة النبي ﷺ ، وطعنهم بالقرآن وبالنبوة ، هو إنكار يوم القيامة وعدم الإيمان باليوم الآخر : لأن من آمن به تبصر وتدبر ، ولم يكن متهورا في سوء الاعتقاد.

٢ ـ دل قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ على أن النار مخلوقة الآن وموجودة ، كما أن الجنة مخلوقة وموجودة لقوله تعالى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٣]. والسعير : النار الشديدة الاستعار.

٣ ـ وصف الله تعالى النار بصفتين : الأولى ـ شدة الاستعار والالتهاب ، يرى لها تغيظ ، ويسمع لها زفير من مكان بعيد. والثانية ـ إذا ألقي فيها المعذّبون تضيق عليهم ، وتشتد في المضايقة ؛ لأن جو العذاب مضايق.

٤ ـ يتمنى المعذّبون في جهنم الموت والهلاك ، للخلاص من شدة العذاب ، ولكن لا يتحقق لهم ذلك ، ويبقون فيها معذّبين ، لا أمل لهم في النجاة أو الخلاص مما هم فيه.

٥ ـ لا مجال أصلا للمقارنة بين عذاب النار ونعيم الجنة ، فلا خير في النار ، وإنما يقال للكفار : ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ للتنبيه على التفاوت بين المنزلتين ، وللتهكم بهم والتحسير لهم ، وتفادي ما يؤدي بهم إلى النار ، وهذا رحمة من الله عزّوجلّ بهم ، وإنذار مسبق ، ولقد أعذر من أنذر.

٦ ـ في الجنة تحقيق كل الرغبات والمطالب ، ففيها ما لا تتصوره العقول في الدنيا.

٧ ـ وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم ، ووعده حق وصدق ومنجز لا محالة ، فسألوه ذلك الوعد ، وقالوا : ﴿رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ﴾ أو أن الملائكة تسأل لهم الجنة ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾. قال زيد بن أسلم : سألوا الله الجنة في الدنيا ، ورغبوا إليه بالدعاء ، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا.

أحوال الكفار مع معبوداتهم يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (١٩)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء ، وقرئ : نحشرهم. ﴿وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي من غير الله ، ويشمل كل معبود من الملائكة والجن وعيسى وعزير ، والأصنام ، واستعمال ﴿ما﴾ لأنه أعم ، أو لتغليب الأصنام تحقيرا. والأصنام ينطقها الله ، أو تتكلم بلسان الحال ، كما قيل في كلام الأيدي والأرجل. ﴿فَيَقُولُ﴾ تعالى للمعبودين ، إثباتا للحجة على العابدين ، وقرئ : فنقول : ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ﴾ : هل أنتم أوقعتموهم في الضلال ، بأمركم إياهم بعبادتكم. ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي أم أخطئوا طريق الحق بأنفسهم ؛ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح. وهو استفهام تقريع وتبكيت للعابدين. وضلّ السبيل : فقده وخرج عنه.

﴿سُبْحانَكَ﴾ تنزيها لك عما لا يليق بك ، وكان جوابهم تعجبا مما قيل لهم ؛ لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون أو جمادات لا تقدر على شيء. ﴿ما كانَ يَنْبَغِي لَنا﴾ ما كان يصح أو يستقيم لنا. ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ غيرك ، ومرادهم أنه لا يتصور منا دعوة أحد إلى عبادتنا ، للعصمة أو للعجز ، فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحدا دونك. ﴿وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ﴾ من قبلهم بإطالة العمر وسعة الرزق وأنواع النعم ، فاستغرقوا في الشهوات. ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن ، وغفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك ونعمك والتدبر في آياتك ، و ﴿الذِّكْرَ﴾ : ما ذكّر به الناس بواسطة أنبيائهم ، وهو هنا القرآن والشرائع ، أو ذكر الله والإيمان به.

﴿بُوراً﴾ هلكى أو هالكين ، من البوار ، أي الهلاك.

﴿كَذَّبُوكُمْ﴾ كذب المعبودون العابدين ، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنويع في الأسلوب ولفت الأنظار. ﴿بِما تَقُولُونَ﴾ أنهم آلهة. فما يستطيعون أي هم ، وقرئ بالتاء : أي أنتم. ﴿صَرْفاً﴾ دفعا للعذاب عنكم. ﴿وَلا نَصْراً﴾ منعا لكم منه. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ يشرك أو يكفر منكم أيها المخاطبون. ﴿عَذاباً كَبِيراً﴾ شديدا في الآخرة ، وهو النار ، وقوله : ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ﴾ شرط ، وإن عمّ كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم التوبة من العبد ، والعفو من الله تعالى.

المناسبة :

بعد بيان ما أعد الله للكافرين من شدة العذاب يوم القيامة ، ومقارنته بنعيم أهل الجنة ، ذكر الله تعالى مشهدا من مشاهد القيامة وهو حال العابدين مع المعبودين من غير الله الذين يحشرهم الله تعالى ، ويسألهم : أهم الذين أوقعوا عابديهم في الضلال عن طريق الحق ، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله كالملائكة وغيرهم فقال :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَيَقُولُ : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي واذكر أيها الرسول لأولئك المشركين يوم يجمعهم مع معبوديهم من الملائكة والمسيح وعزير والأصنام التي ينطقها الله وغيرهم من الناس كفرعون ، الذين عبدوا من دون الله ، فيقال لأولئك المعبودين على سبيل التقرير والتثبيت : أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق ، أو هل دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم أو عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قالَ اللهُ : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ؟ قالَ : سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي ، وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة ٥ / ١١٦].

واستعمال ﴿ما﴾ في قوله تعالى : ﴿وَما يَعْبُدُونَ﴾ لأنها موضوعة للعقلاء وغيرهم : على العموم ، وفائدة ﴿أَنْتُمْ﴾ و ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده ؛ لأنه لو لا وجوده لما توجه هذا العتاب ، وإنما هو عن متوليه وفاعله ، فلا بد من ذكره ، ليعلم أنه المسؤول عنه. والسؤال ليس لإخبار الله ، فالله سبحانه قد سبق علمه بالمسؤول عنه ، ففائدته أن يجيبوا بما أجابوا به لتقريع عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فيبهتوا وينخذلوا وتزيد حسرتهم ، ويكون ذلك كشفا وافتضاحا لعبدة الأصنام والأوثان وغيرهم ، ومسوغا لإلحاق غضب الله وعذابه ، كما أبان الزمخشري.

وظاهر السؤال في قوله : ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ ..﴾ من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى.

ثم أخبر الله تعالى عما يجيب به المعبودون يوم القيامة فقال :

﴿قالُوا : سُبْحانَكَ ، ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ ، وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ، وَكانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي قال المعبودون بلسان المقال أو الحال على طريق التعجب مما قيل لهم : تنزيها لك يا ربّ مما نسبه إليك المشركون ، ما كان يصح لنا بحال أن نتخذ أنصارا من دونك ، فنحن الفقراء إليك ، وليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، فنحن ما دعوناهم إلى عبادتنا ، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، وإذا كنا لا نرى من دونك أولياء ، فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك؟ ولكن طال عليهم العمر ، وشغلوا بما أنعمت عليهم من صنوف الخيرات ، واستغرقوا في اللذات والشهوات ، ونسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ، وكانوا قوما لا خير فيهم ، وهلكى في نهاية الأمر.

ونظير الآية : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ : أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ ، قالُوا : سُبْحانَكَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٤٠ ـ ٤١].

فيقال للعابدين :

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ ، فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً﴾ أي فقد كذّبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء مناصرون ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، فلا يقدرون ، أي الآلهة المزعومة ، على صرف العذاب عنهم ، ولا الانتصار لأنفسهم بأي حال أبدا ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٥ ـ ٦].

ثم أعلن الله تعالى حكم كل ظالم ، فقال :

﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً﴾ أي ومن يشرك بالله أو يكفر ، أو يفسق نذقه يوم القيامة عذابا شديدا لا يعرف قدره. والظلم هنا هو الإشراك ونحوه كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان ٣١ / ١٣] وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات ٤٩ / ١١].

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه صورة مسبقة من الحوار ، معروضة في الدنيا ، للعظة والعبرة بين المعبودين الذين اتخذوا آلهة من غير رضا منهم ، وبين العابدين الذين ضلوا عن الحق ، فعبدوا من لا يستحق العبادة ، يبيّن فيها سلفا مصير الكافرين. وهذا غير مألوف في أحكام الدنيا التي لا تعرف إلا بإعلان القاضي لها.

وكانت نتيجة الجواب والسؤال بيان حصر المسؤولية عن الضلال في العابدين دون المعبودين ، وجعل تبرؤ المعبودين عن العابدين سببا واضحا في حسرتهم وحيرتهم.

ويقول الله تعالى عند تبرّي المعبودين : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ﴾ أي كذبتكم تلك الآلهة المزعومة في نظركم في قولكم : إنهم آلهة ، وحينئذ لا يستطيع هؤلاء الكفار لما كذّبهم المعبودون صرف العذاب عن أنفسهم ، ولا نصر أنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم.

ونوع العذاب الذي سيوقع عليهم وعلى أمثالهم هو كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً﴾ أي ومن يشرك منكم ثم يموت عليه من غير توبة ، نذقه في الآخرة عذابا كبيرا أي شديدا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٤] أي شديدا.

بشرية الرسل

﴿وما أرسَلْنا قبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)﴾

البلاغة :

﴿أَرْسَلْنا الْمُرْسَلِينَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿تَصْبِرُونَ بَصِيراً﴾ جناس ناقص ، لتقديم بعض الحروف ، وتأخير بعضها.

المفردات اللغوية :

﴿إِلَّا إِنَّهُمْ﴾ أي إلا رسلا إنهم ، فحذف الموصوف لدلالة ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ عليه ، وأقيمت الصفة مقامه ، كقوله تعالى : ﴿وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٦٤].

﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾ أي فأنت مثلهم في ذلك ، وقد قيل لهم مثل ما قيل لك.

﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي وجعلنا بعضكم أيها الناس لبعض ابتلاء ، ومن ذلك ابتلاء الغني بالفقير ، والصحيح بالمريض ، والشريف بالوضيع ، لمعرفة مدى قيامه بواجبه نحوه أو إيذاء أحدهم لغيره. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ على ما قاله المشركون في حقه ، بعد نقضه والرد عليه ، وفيه دليل على القضاء والقدر ؛ لأنه تعالى هو الذي جعل البعض فتنة للبعض.

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على ما تسمعون ممن ابتليتم بهم؟ وهو استفهام بمعنى الأمر ، بمعنى : اصبروا ، كقوله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة ٥ / ٩١] أي انتهوا ، فهو حث على الصبر على الابتداء وأمر به للنبي ﷺ وغيره ، أو علة لقوله : ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ ..﴾ والمعنى : وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، لنعلم أيكم يصبر ، كقوله تعالى : ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٧]. ﴿وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي عالما بمن يصبر وبمن يجزع.

سبب النزول :

أخرج الواحدي وابن جرير عن ابن عباس قال : لما عيّر المشركون رسول الله

ﷺ بالفاقة ، وقالوا : ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾ حزن رسول الله ﷺ ، فنزل : ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾.

المناسبة :

هذه الآية إذن جواب عن قول المشركين : ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾. فيها أبان الله تعالى أن هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله ، فلا وجه للطعن.

التفسير والبيان :

﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾ أي إن جميع الرسل المتقدمين كانوا بشرا يأكلون الطعام ، للتغذي به ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك منافيا لحالهم ومنصبهم ، أو يغضّ من شأنهم ، وإنما امتيازهم في اتصافهم بالأخلاق الفاضلة ، وقيامهم بالأعمال الكاملة ، وتأييدهم بخوارق العادات أو بالمعجزات التي تدل كل عاقل على صدق رسالتهم وما جاؤوا به من عند ربهم ، ومحمدﷺ كغيره من الرسل في هذا.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٩] وقوله : ﴿وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨].

والمعنى : أن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم ، وليس الفقر عيبا ، وليس العمل منقصا من قدر الشخص واعتباره ، وإنما قيم الرجال بالآداب والأعمال.

﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم

ببعض ، لنعلم من يطيع ممن يعصي ، فالناس طبقات في الغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والفهم والغباء ، والصحة والمرض ، وصاحب النعمة مسئول عمن حرم منها ، والله قادر على منح الدنيا رسله الكرام ، ولكنه أراد تساميهم عن الدنيا ، وحشد طاقاتهم وأعمالهم للآخرة ، ليقتدى بهم ، كما أراد سبحانه ابتلاء العباد بهم وابتلاءهم بالعباد ، ليعرف المطيع من العاصي ، والمسالم من المؤذي.

﴿أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي اصبروا على ما أراده الله لكم ، وكان ربك أيها الرسول بصيرا بمن يصبر وبمن يجزع ، وبمن يستقيم وبمن يتنكر لطريق الحق ، فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب.

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال : «ويل للعالم من الجاهل ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للشديد من الضعيف ، وللضعيف من الشديد ، بعضهم لبعض فتنة» وقرأ هذه الآية ، أسنده الثعلبي رحمه الله تعالى.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتلي بك» وفي مسند أحمد عن رسول الله ﷺ : «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة».

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ خيّر بين أن يكون نبيا ملكا ، أو عبدا رسولا ، فاختار أن يكون عبدا رسولا.

وقال مقاتل : إن الآية نزلت في أبي جهل بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل وغيرهم من أشراف قريش حين رأوا أبا ذر ، وعبد الله بن مسعود ، وعمارا ، وبلالا ، وصهيبا ، وسالما مولى أبي حذيفة ، قالوا : أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟! فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين : ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟ أي على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر والجهد

والإيذاء ، كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، أي اختبارا لهم. ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم : ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾[1] [المؤمنون ٢٣ / ١١١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على أن الرسل عليهم السلام كباقي البشر فيما عدا إنزال الوحي عليهم ، وتخلقهم بالأخلاق العالية ، وقيامهم بالأعمال الطيبة بدرجة تفوق غيرهم ، فهم يأكلون ويشربون ويتاجرون في الأسواق.

والآية أصل في وجوب اتخاذ الأسباب ، وإباحة طلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد تكرر هذا المعنى في القرآن في غير موضع.

ودل قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ على أن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد سبحانه أن يجعل بعض الناس امتحانا واختبارا لبعض على العموم الذي يشمل كل مؤمن وكافر ، فالصحيح فتنة للمريض ، والغني فتنة للفقير ، والفقير الصابر فتنة للغني ، ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فعلى الغني مواساة الفقير وألا يسخر منه ، وعلى الفقير ألا يحسد الغني ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق.

والله سبحانه يأمر بالصبر على كل حال ، حتى لا يهتز إيمان أحد ، ويفوض الأمر في كل شيء إلى الله تعالى.

والله تعالى بصير بكل امرئ وبمن يصبر أو يجزع ، ومن يؤمن ومن لا يؤمن ، وبمن أدى ما عليه من الحق ومن لا يؤدّي.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ١٨ ـ ١٩.

طلب المشركين إنزال الملائكة عليهم أو رؤية الله

والإخبار بإحباط أعمالهم

﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (٢٣) أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤)﴾

الإعراب :

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا﴾ اللام جواب قسم محذوف.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف ، والعامل فيه فعل مقدر ، تقديره : اذكر ، أي اذكر يوم يرون الملائكة. ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿لا بُشْرى﴾ لأن ما في حيّز النفي لا يعمل فيما قبله. وأجاز الزمخشري نصب ﴿يَوْمَ﴾ بما دل عليه ﴿لا بُشْرى﴾ أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى أو يعدمونها. و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتكرار.

و ﴿لا بُشْرى﴾ : إن جعلت ﴿بُشْرى﴾ مبنية مع ﴿لا﴾ كان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبرا لها ؛ لأنه ظرف زمان ، وظروف الزمان تكون أخبارا عن المصادر. و ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ صفة للبشرى. وإن جعلت ﴿بُشْرى﴾ غير مبنية مع ﴿لا﴾ أعملت ﴿بُشْرى﴾ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لأن الظروف يعمل فيها معاني الأفعال ، وللمجرمين خبر ﴿لا﴾.

البلاغة :

﴿لَوْ لا أُنْزِلَ لَوْ لا﴾ هنا بمعنى هلا للترجي.

﴿عَتَوْا عُتُوًّا﴾ و ﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾ جناس الاشتقاق.

﴿لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ﴾ مبالغة بنفي الجنس ، والمعنى : لا يبشر يومئذ المجرمون ، وعدل عنه إلى ذلك للمبالغة.

﴿هَباءً مَنْثُوراً﴾ تشبيه بليغ ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه ، أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه.

المفردات اللغوية :

﴿لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ أي لا يأملون لقاءنا بالخير لكفرهم بالبعث ، أو لا يخافون لقاءنا بالشر ، أي لا يخافون البعث ، على لغة تهامة ، أي أن الرجاء في بعض لغات العرب: الخوف ، مثل قوله تعالى : ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً﴾. وأصل اللقاء : الوصول إلى الشيء ، ومنه الرؤية ، فإنه وصول إلى المرئي ، والمراد به : الوصول إلى جزائه ، أي لقاء جزائنا.

﴿لَوْ لا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ﴾ أي أرسلوا إلينا ، فيخبروننا بصدق محمد ﷺ ﴿أَوْ نَرى رَبَّنا﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي لقد تكبروا في شأن أنفسهم ، حتى أرادوا لها ان تكون أنبياء أو ما هو أعظم من ذلك ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ تجاوزوا الحد في الظلم حتى بلغوا أقصى الغاية ، بطلبهم رؤية الله تعالى في الدنيا ، وكذبوا الرسول الذي جاء بالوحي ، ولم يأبهوا بمعجزاته. و ﴿عَتَوْا﴾ بالواو على أصله ، بخلاف «عتي» بالإبدال في سورة مريم في قوله : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [٨].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ في جملة الخلائق ، وهو يوم القيامة ، وهو منصوب بفعل مقدر تقديره : اذكر ﴿لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين ، والمعنى : يمنعون البشرى ، بخلاف المؤمنين ، فلهم البشرى بالجنة ﴿وَيَقُولُونَ : حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي ويقول الكفرة حينئذ هذه الكلمة ، وهي كلمة تقال عند حصول شدة كلقاء عدو أو حدث خطير ، يقصد بها العرب : الاستعاذة من وقوع الخطر ، والطلب من الله أن يمنع ذلك الحادث منعا. والحجر لغة : المنع ، ومنه الحجر على القاصر أي منعه من التصرف ، وسمي العقل حجرا ؛ لأنه يمنع صاحبه من بعض الأعمال.

﴿وَقَدِمْنا﴾ عمدنا وقصدنا إلى ما عملوا في كفرهم في الدنيا من المكارم كقرى الضيف وصلة الرحم ، وإغاثة الملهوف ، فأحبطناه لعدم الإيمان ﴿فَجَعَلْناهُ هَباءً﴾ هو ما يرى في الهواء أثناء ضوء الشمس الداخل من الكوى أو النوافذ ، أي جعلناه كالغبار المفرق في عدم النفع فيه ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ أي مكانا يستقرون فيه أكثر الوقت للجلوس والمحادثة ، والمعنى : أصحاب الجنة يوم القيامة خير مستقرا من الكافرين في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ مكانا يؤوي إليه للقيلولة والراحة : وهي الاستراحة نصف النهار في الحر تشبيها بمكان القيلولة في الدنيا ؛ إذ لا نوم في الجنة. وأخذ من ذلك انقضاء

الحساب في نصف نهار ، كما ورد في الحديث : أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار.

المناسبة :

هذا هو موضوع الشبهة الرابعة للمشركين منكري نبوة محمد ﷺ ومكذبي القرآن ، ومفادها : لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محقّ في دعواه ، أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا.

والشبهات الثلاث المتقدمة لهم : هي قولهم : ﴿إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ﴾ وما حكي عنهم : ﴿وَقالُوا : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها﴾ وذكرهم خمس صفات للرسول ، زعموا أنها تخل بالرسالة ، منها قولهم : ﴿ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ﴾ إلخ.

التفسير والبيان :

هذا موقف عجيب من مواقف تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم ، صوره القرآن بقوله تعالى:

﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا : لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا﴾ أي وقال المشركون الذين ينكرون البعث والثواب والعقاب : هلا أنزل علينا الملائكة كما تنزل على الأنبياء فنراهم عيانا ، فيخبرونا بأن محمدا ﷺ صادق في دعواه النبوة ، أو نرى ربنا جهارا نهارا ، فيخبرنا بأنه أرسله إلينا ، ويأمرنا بتصديقه واتباعه ، كقولهم في آية أخرى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٢] والحقيقة أنهم لا يرومون من كلامهم هذا إلا المكابرة والتمادي في الإنكار والعناد ، لذا قال تعالى :

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ أي والله لقد تكبروا وأضمروا الاستكبار عن الحق ، وهو الكفر والعناد في قلوبهم واعتقدوه كما قال سبحانه : ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ، ما هُمْ بِبالِغِيهِ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٦] وتجاوزوا

الحد في الظلم والكفر تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، فهم لم يجسروا على هذا القول الشنيع إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو.

ولن يؤمنوا في الحقيقة والواقع ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى ، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١١١].

ثم أخبر الله تعالى مهددا عن حال رؤيتهم الملائكة ، فقال :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ، لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَيَقُولُونَ : حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي هم لا يرون الملائكة في حال خير ، وإنما في حال شر وسوء ، فإنهم سيرونهم عند الموت أو يوم القيامة قائلين لهم : لا بشرى لهم بخير ، ولا مرحبا بهم ، وتبشرهم الملائكة بالنار وغضب الجبار ، وتقول لهم : ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٣].

ويقول الكفار : حجرا محجورا ، أي استعاذة وطلبا من الله أن يمنع عنهم الخطر والضرر ، والمقصود أنهم يتعوذون من الملائكة. قال ابن كثير : وهذا القول ، وإن كان له مأخذ ووجه ، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد ، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه. وإنما هذا من قول الملائكة لهم ، يراد به : حرام محرم عليكم البشرى بالمغفرة والجنة ، وبما يبشر به المتقون ، وحرام محرم عليكم الفلاح اليوم.

وهذا بخلاف حال المؤمنين وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللهُ ، ثُمَّ اسْتَقامُوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها

ما تَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٣٠ ـ ٣٢] وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : «إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب ، إن كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ، وربّ غير غضبان».

ثم أخبر الله تعالى عن إحباط أعمال الكفار الخيرية التي كانوا يعتزون بها في الدنيا كالإكرام والصدقة وفك الأسير وإنقاذ الملهوف وحماية المستجير وخدمة البيت الحرام والحجيج ، فقال :

﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾ أي قصدنا يوم القيامة إلى محاسن أعمال هؤلاء الكفار في الدنيا ، حين حساب العباد على ما عملوه من الخير والشر ، تلك الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم ، كالتي ذكرت ، فجعلناها مبددة لا نفع فيها ولا خير كالغبار المتناثر الذي لا جدوى فيه ولا فائدة ، لفقد الشرط الشرعي لقبولها وهو إما الإخلاص فيها لله ، وإما المتابعة لشرع الله ، فكل عمل لا يكون خالصا لوجه الله الكريم ، وليس على منهج الشريعة المرضية لله ، فهو باطل ، وأعمال الكفار تفقد أحد الشرطين أو كليهما ، فتكون أبعد عن القبول.

ثم قارن الله تعالى حال هؤلاء الكفار بحال المؤمنين فقال :

﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ أي إن حال أهل الجنة خير مأوى ومنزلا ، وأتم استقرارا ، وأفضل راحة من حال المشركين في النار. والمستقر : مكان الاستقرار ، والمقيل : زمان القيلولة. وهذا إشارة إلى أنهم من المكان في أحسن مكان ، ومن الزمان في أطيب زمان. وبما أنه لا خير في النار ، فيكون المراد من قوله تعالى : ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ..﴾ هو ما أريد من قوله : ﴿أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ وهو التقريع والتوبيخ ، كما إذا أعطى السيد خادمه

مالا ، فتمرد وأبى واستكبر ، فيضربه ضربا وجيعا ، ويقول له موبخا : هذا أطيب أم ذاك.

وهذا يدل على انتهاء حساب الخلائق في نصف يوم ، كما ورد في الحديث : «إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار».

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ﴾ [يس ٣٦ / ٥٥ ـ ٥٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ إن عدم الخوف من البعث ولقاء الله ، أي عدم الإيمان بذلك هو سبب التمادي في إنكار صدق القرآن والنبي المنزل عليه ، والعناد والإصرار على الكفر. ثم إن التستر على الكفر والدفاع عنه يجعل الكفرة يطالبون بما فيه تعجيز وشطط وخروج عن المألوف ، مثل المطالبة بإنزال الملائكة عليهم لإخبارهم أن محمدا ﷺ صادق ، أو رؤية الله عيانا لإخبارهم برسالته ، كما قال تعالى حاكيا مطالبهم في آيات أخرى : ﴿وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى قوله : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٠ ـ ٩٢].

لذا قال الله تعالى في الآيات المفسرة هنا : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً﴾ حيث سألوا الله الشطط ؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت ، والله تعالى لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، فلا عين تراه. وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين.

٢ ـ إذا رؤيت الملائكة عند الموت ، فتبشر المؤمنين بالجنة ، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم ، وتقول الملائكة لهم : ﴿حِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي حراما محرما أن يدخل الجنة إلا من قال : لا إله إلا الله ، وأقام شرائعها ، وذلك القول يحصل عند الموت ، كما روي عن ابن عباس وغيره. وقيل : إن ذلك يوم القيامة.

٣ ـ إن جميع أعمال الكفار لا سيما التي اعتقدوا أنها برّ وخير ، وظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى تكون يوم القيامة مهدرة باطلة لا جدوى فيها ولا نفع منها بسبب الكفر ، ولأن قبولها يفقد الشرط الشرعي لها وهو الإيمان بالله وإخلاص العمل له. وقوله سبحانه : ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ تنبيه على عظم قدر يوم القيامة ، ومعناه كما بينا : قصدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل برّ عند أنفسهم.

٤ ـ أصحاب الجنة في مكان مستقر ومأوى ثابت ، ومنزل حسن مريح طيب الإقامة ، على النقيض من حال أهل النار. فقوله تعالى : ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ، وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ كقوله : ﴿قُلْ : أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التقريع والتوبيخ ، وإنما قال : ﴿خَيْرٌ﴾ ولا خير في النار والعذاب : بالنظر إلى التفاوت بين منزلتي الجنة والنار ، وهما من المنازل. أما من حيث الواقع فإن ﴿خَيْرٌ﴾ هنا ليس للمفاضلة التي تفهم من صيغة أفعل التفضيل ، وإنما لتقرير أن الجنة هي الخير المحض والحسن المطلق ، ولا خير أصلا في ضدها وهي النار.

رهبة يوم القيامة وهوله

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ﴾ الباء في قوله ﴿بِالْغَمامِ﴾ للحال ، والتقدير : يوم تشقق السماء ، وعليها الغمام ، كقولك : خرج زيد بسلاحه ، أي وعليه سلاحه.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ﴾ : ﴿الْمُلْكُ﴾ مبتدأ ، و ﴿الْحَقُّ﴾ صفة له ، و ﴿لِلرَّحْمنِ﴾ الخبر ، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ : ظرف للملك.

البلاغة :

﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ﴾ كناية عن الندم والحسرة ، وكذلك كلمة «فلان» كناية عن الصديق الضال المضل.

المفردات اللغوية :

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ الأصل : تتشقق والمراد يوم القيامة ﴿السَّماءُ﴾ كل سماء ﴿بِالْغَمامِ﴾ هو غيم أبيض ، أي مع الغمام ، مثل قوله تعالى : ﴿السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل ٧٣ / ١٨] والمعنى أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها ، أو عن الغمام ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً﴾ أي تنزل الملائكة من كل سماء ، وفي أيديهم صحائف أعمال العباد. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ﴾ أي الملك الثابت يوم القيامة لله تعالى وحده ، لا يشركه فيه أحد ﴿وَكانَ يَوْماً﴾ أي وكان اليوم يوما عسيرا أي شديدا على الكافرين ، بخلاف المؤمنين.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ﴾ كناية عن الندم والتحسر يوم القيامة ، والمراد بالظالم: الجنس ، أو المشرك عقبة بن أبي معيط الذي كان نطق بالشهادتين ، ثم رجع إرضاء لأبي بن خلف ﴿اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ محمد ﷺ طريقا إلى الهدى والنجاة ﴿يا وَيْلَتى﴾ ألفه عوض عن ياء الإضافة ، أي ويلتي ، ومعناه : هلكتي. وقرئ : يا ويلتي بالياء وهو الأصل ؛ لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته ، يقول لها : تعالي فهذا أوانك : وإنما قلبت الياء ألفا كما في صحارى ومداري.

﴿أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ ذكر الله أو القرآن أو موعظة الرسول ﷺ ﴿بَعْدَ إِذْ جاءَنِي﴾ بأن ردني عن الإيمان به ﴿وَكانَ الشَّيْطانُ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس ؛ لأنه حمله على مخالفة الرسول ﷺ ﴿لِلْإِنْسانِ﴾ الكافر ﴿خَذُولاً﴾ بأن يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ، ثم يتركه ويتبرأ منه عند البلاء ، ولا ينفعه.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان أبيّ بن خلف يحضر النبي ﷺ ، فيزجره عقبة بن أبي معيط ، فنزل : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ﴾ إلى قوله : ﴿خَذُولاً﴾.

وفي رواية : كان عقبة بن أبي معيط يكثر مجالسة النبي ﷺ ، فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل طعامه حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل ، وكان أبي بن خلف صديقه ، فعاتبه ، وقال : صبأت؟! فقال : لا ، ولكن أبى أن يأكل من طعامي ، وهو في بيتي ، فاستحييت منه ، فشهدت له ، فقال : لا أرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأ قفاه ، وتبزق في وجهه ، فوجده ساجدا في دار الندوة ، ففعل ذلك ، فقال ﷺ : «لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف» فأسر يوم بدر ، فأمر عليا فقتله ، وطعن أبيا بأحد في المبارزة ، فرجع إلى مكة ومات يقول : ﴿يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾.

قال الضحاك : لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ ، عاد بزاقه في وجهه ، فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه ، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت.

المناسبة :

بعد بيان طلب المشركين إنزال الملائكة ، أخبر الله تعالى عن هول يوم القيامة وعن نزول الملائكة حينئذ ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ، فيعض الظالم على يديه ألما وحسرة على ما فات ، ويتمنى أن لو كان أطاع الرسول فيما أمر ونهى ، ولم يكن ممن أطاع الشيطان من الإنس والجن ، ثم يفصل الله تعالى القضاء بين الخلائق.

التفسير والبيان :

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ﴾ أي اذكر أيها النبي الرسول يوم تتشقق السماء عن الغمام ، وتتفتح عنه ، ويتبدل نظام العالم ، وتنتهي الدنيا ، وتصبح الشمس والكواكب أشبه بالغمام ، لتفرقها وتحللها وتناثرها في الجو ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار ٨٢ / ١ ـ ٢] وقال سبحانه : ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ ، فَكانَتْ أَبْواباً ، وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾ [النبأ ٧٨ / ١٩ ـ ٢٠]. وقال عزّوجلّ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ ، وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ﴾ [الحاقة ٦٩ / ١٥ ـ ١٦].

﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ﴾ أي وتنزل الملائكة وفي أيديهم صحائف أعمال العباد ، لتكون حجة وشاهدا عليهم.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٠].

﴿وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً﴾ أي وكان يوم القيامة على الكافرين يوما شديدا صعبا ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل (محاكمة) كما في آية أخرى : ﴿فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ، عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر ٧٤ / ٩ ـ ١٠].

أما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٣] روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قيل : يا رسول الله : ﴿يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج ٧٠ / ٤] ما أطول هذا اليوم؟! فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ، إنه ليخفّف على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة ، يصليها في الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ : يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم القيامة الذي يعض المشرك وكل ظالم على يديه ندما وحسرة وأسفا على ما فرّط في حياته ، وعلى إعراضه عن طريق الحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ ، ويقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول ﷺ طريقا إلى النجاة والسلامة.

﴿يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ أي يا هلاكي احضر فهذا أوانك ، ليتني لم أتخذ فلانا الذي أضلني خليلا أي صديقا حميما ، أرداني اتباعه ، وصرفني عن الهدى ، وعدل بي إلى طريق الضلال ، سواء في ذلك أبي بن خلف أو أمية بن خلف أو غيرهما.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي﴾ هذا من قول الناس ، أي لقد ضللني وحرفني عن ذكر الله والإيمان والقرآن بعد بلوغه إلي.

﴿وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً﴾ هذا من قول الله ، لا من قول الظالم أي إن من شأن الشيطان أن يخذل الإنسان عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويدعوه إلى الباطل ويستعمله فيه ، ثم يتركه ويتبرأ منه عند المحنة ، ولا ينفعه في العاقبة.

والشيطان : إشارة إلى خليله سماه شيطانا ؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان ، أو أراد إبليس وأنه هو الذي حمله على مصادقة أو مخالّة المضل ومخالفة

الرسول ﷺ ، ثم خذله ، أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والإنس. والمعنى الأخير هو الأولى.

فقه الحياة أو الأحكام :

طلب المشركون إنزال الملائكة ، فأبان سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم له أربع صفات هي :

١ ـ إن في ذلك اليوم تتشقق السماء بالغمام أي عن الغمام ، لأن الباء وعن يتعاقبان ؛ كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس ، روي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيق مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم ، فتنشق السماء عنه ، وهو الذي قال تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٠]. وقوله : ﴿تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ﴾ جامع لمعنى الآيتين : ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار ٨٢ / ١] وآية ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾ المذكورة.

وفي ذلك اليوم تنزل الملائكة من السموات إلى الأرض لحساب الثقلين. ومعنى ﴿تَنْزِيلاً﴾ توكيد للنزول ، ودلالة على إسراعهم فيه.

٢ ـ يكون الملك الثابت الدائم في ذلك اليوم لله الرحمن الرحيم ، وهذا دليل الألوهية ؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك ، فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم ، وزال كل ملك وملكه ، وبقي الملك الحق لله وحده.

٣ ـ يكون هذا اليوم شديدا صعبا على الكافرين ؛ لما ينالهم من الأهوال ، ويلحقهم من الخزي والهوان ، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة ، كما دل الحديث المتقدم ، وهذه الآية ؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرا ، فهو على المؤمنين يسير.

٤ ـ إنه يوم يعض فيه الظالم الكافر وكل مكذب وطاغ على يديه ، حسرة

وألما على ما فرط في دنياه ، فلم يؤمن بربه وبالرسول محمد ﷺ ، فكلمة ﴿الظَّالِمُ﴾ للعموم ، يعم جميع الظلمة ، ويشمل عقبة بن أبي معيط الذي همّ بالإسلام ، فمنعه منه صديقه أمية بن خلف الجمحيّ ، ويروى : أبي بن خلف أخ أمية. وعضّه يديه : فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليله ، وعدم اتخاذه في الدنيا طريقا إلى الجنة ، فيدعو على نفسه بالويل والهلاك على مخالفة الكافر ومتابعته ، ويقول : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ عنى أمية ، وكنى عنه ولم يصرح باسمه ، لئلا يكون هذا الوعد مخصوصا به ، ولا مقصورا عليه ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما.

فهذه العبارات الثلاث : الظالم ، وفلان ، والشيطان عامة.

والخليل الصاحب قد يضل صاحبه عن ذكر الله والإيمان به والقرآن وموعظة الرسول ﷺ .

والشيطان يوسوس ويغري بالكفر والشرك والمعصية ، ثم يخذل أتباعه ، والخذل : الترك من الإعانة ، والتبرؤ من فعله. وكل من صدّ عن سبيل الله وأطيع في معصية الله ، فهو شيطان للإنسان ، خذول عند نزول العذاب والبلاء ، كما قال تعالى : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ : اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ، إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ [الحشر ٥٩ / ١٦].

وفي صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال : «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك (١) ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحا طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد ريحا خبيثة» (٢). وذكر أبو بكر البزّار

---

(١) أحذاه : أعطاه.

(٢) وأخرجه أبو داود من حديث أنس.

عن ابن عباس قال : قيل : يا رسول الله ، أيّ جلسائنا خير؟ قال : «من ذكّركم بالله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقه ، وذكّركم بالآخرة عمله».

هجر الكفار القرآن ومطالبتهم بإنزاله جملة واحدة

﴿وَقالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً (٣١) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤)﴾

الإعراب :

في لام ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ وجهان : أن تتعلق بفعل مقدر ، أي نزلناه لنثبت به فؤادك ؛ لقولهم : ﴿لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أو أن تكون اللام لام القسم ، وتقدر النون مع الفعل ، وتظهر النون إذا فتحت اللام فيقال : «والله لنثبتن» وتسقط إذا كسرت. وكاف ﴿كَذلِكَ﴾ صفة لمصدر محذوف دل عليه نزلناه.

البلاغة :

﴿شَرٌّ مَكاناً﴾ إسناد مجازي ، لأن الضلال لا ينسب إلى المكان ، ولكن إلى أهله.

المفردات اللغوية :

﴿وَقالَ الرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ مشتكيا إلى ربه في الدنيا ﴿إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشا ﴿مَهْجُوراً﴾ متروكا ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا عدوا من مشركي قومك ، جعلنا

لكل نبي قبلك عدوا من المشركين ، فاصبر كما صبروا ، وفيه دليل على أن الله خالق الشر. والعدو : يطلق على الواحد والجمع ﴿هادِياً﴾ لك إلى طريق قهرهم ﴿وَنَصِيراً﴾ ناصرا لك على أعدائك.

﴿لَوْ لا﴾ هلا ﴿جُمْلَةً واحِدَةً﴾ دفعة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ أي أنزلناه كذلك مفرّقا لتقوية قلبك بتفريقه على حفظه وفهمه ؛ لأنه ﷺ بخلاف حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام كان أميا ، وكانوا يكتبون ، فلو ألقي إليه جملة ، عانى التعب والإجهاد في حفظه ، ولأن نزوله بحسب الوقائع يزيد الأمر تبصرا ، وتعمقا في فهم المعنى. وكلمة ﴿كَذلِكَ﴾ صفة مصدر محذوف يشير إلى إنزاله مفرقا ﴿وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ أتينا به شيئا بعد شيء ، أو قرأناه عليك شيئا بعد شيء ، بتمهل وتؤدة ، لتيسير فهمه وحفظه ، في مدى ثلاث وعشرين سنة. وأصله الترتيل في الأسنان : وهو تفليجها.

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحال وصفة غريبة ونوع من الكلام يشبه المثل في تنميقه وتحسينه ورصف لفظه ، بقصد القدح في نبوتك وإبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ﴾ الدافع له ، أو الدامغ له في جوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أي بما هو أحسن بيانا لهم ، وأصح معنى من سؤالهم العجيب الذي كأنه مثل في البطلان.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ﴾ أي يساقون ويسحبون على وجوههم ، أي مقلوبين ﴿شَرٌّ مَكاناً﴾ هو جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أبعد عن الحق طريقا من غيرهم ، وهو كفرهم

سبب النزول :

نزول الآية (٣٢):

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : قال المشركون : إن كان محمد ﷺ ، كما يزعم نبيا ، فلم يعذبه ربه ، ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ، فينزل عليه الآية والآيتين ، فأنزل الله : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾.

المناسبة :

بعد بيان اعتراضات المشركين وأقاويلهم الباطلة ، وأوجه تعنتهم ، كطلب إنزال الملائكة أو رؤية الله ، وتكذيب القرآن ووصفه بالأساطير ، أوضح الله

تعالى أن الرسول ﷺ ضاق صدره واشتكاهم إلى ربه بأن قومه هجروا القرآن.

التفسير والبيان :

﴿وَقالَ الرَّسُولُ : يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ أي شكى الرسول إلى ربه سوء أفعال المشركين وأقوالهم الساقطة قائلا : يا ربّ ، إن قومي قريشا تركوا الإصغاء لهذا القرآن ، ولم يؤمنوا به ، وأعرضوا عن استماعه واتباعه ، فكانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه ، كما حكى تعالى عنهم : ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت ٤١ / ٢٦] فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره ، حتى لا يسمعونه ، فهذا من هجرانه ، وكذلك ترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو من هجرانه ، كما قال ابن كثير (١).

﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ على ما يلقى من قومه من الأذى والصدود والإعراض ، أي لا تحزن يا محمد ، فتلك سنة الله في خلقه ، فكما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك الأباطيل ، ويهجرون القرآن ، جعلنا لكل نبي من أنبياء الأمم الماضين أعداء من المشركين الظالمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام ٦ / ١١٢] فاصبر كما صبروا ، وامض في تبليغ رسالتك. قال ابن عباس : كان عدو النبي ﷺ أبا جهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى.

لكن النصر والغلبة للرسول ﷺ ، كما قال تعالى :

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٣١٧

﴿وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً﴾ أي وكفى بالله ربك هاديا لك إلى الحق ، وهاديا من اتبعك وآمن بكتابك وصدقك إلى مصالح الدين والدنيا ، وناصرك على أعدائك في الدنيا والآخرة.

وقد قرن الله تعالى بين الهداية والنصر ؛ لأن الأولى سبيل لتحقيق نصر المؤمنين على الكافرين ، وكان المشركون يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد بالرسول ﷺ ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، وللحفاظ على قوة التفوق والغلبة ، وإبقاء ميزان القوى راجحا في صالحهم.

الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد ﷺ :

بعد بيان شكوى الرسول ﷺ قومه إلى ربه ، حكى الله تعالى شبهة أخرى للمشركين أهل مكة فقال :

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ أي أضاف المشركون أهل مكة لطعنهم السابق في القرآن بأنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين ، أضافوا شبهة أخرى هي قولهم : إذا كنت تزعم أنك رسول من عند الله ، أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة ، كما أنزلت التوراة جملة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والزبور على داود؟

ومعنى الآية : لو كان القرآن من عند الله حقا ، فهلا أنزل على محمد ﷺ جملة واحدة ، كما نزلت الكتب الإلهية المتقدمة.

فأجابهم الله تعالى عن ذلك بقوله :

﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقا ، وأتينا به شيئا بعد شيء وقرأناه على لسان جبريل في مدى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام.

والحكمة أو الفائدة من ذلك متنوعة وكثيرة أهمها ما يأتي [١] :

أ . تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين بشريعة الله ، والعون على حفظ القرآن وفهمه ، وتطبيق أحكامه بنحو دقيق وشامل ؛ لأن النبي ﷺ كان أميا ، وكانت أمته أمية ، لا يعرفون القراءة والكتابة ، فلو نزل القرآن جملة واحدة ، لصعب عليهم ضبطه ، وجاز عليهم السهو والغلط. ثم إن مشاهدة النبي ﷺ جبريل وقتا بعد وقت مما يقوي عزيمته ، ويحمله على الصبر في تبليغ الرسالة وتصحيح المسيرة ، والصمود في وجه التحديات واحتمال أذى قومه ، ومتابعة جهاده.

ب . دفع الحرج عن المكلفين بتكليفهم بأحكام كثيرة مرة واحدة : فلو طولب المؤمنون بتحمل أعباء الشريعة دفعة واحدة ، فربما وقعوا في الحرج والمشقة ، وصار التنفيذ أمرا صعبا غير سهل ولا يسير.

ج . مراعاة مبدأ التدرج في التشريع : فقد كانت العادات والتقاليد الموروثة ، والأعراف العامة مسيطرة في بيئة العرب وغيرهم من الأمم ، فلو طولبوا بالإقلاع عما تحكمت فيهم العادات ، لنفروا وأعرضوا وقالوا جميعا : لا نترك هذا الأمر ، فكان من الحكمة والمصلحة والنجاح في التربية ، وتغيير تلك العادات المستحكمة أو المألوفة أن ينزل القرآن منجّما ، ويتدرج في الأحكام من مرحلة إلى أخرى ، تتهيأ بها النفوس لقبول الحكم النهائي.

د . معالجة الوقائع والطوارئ والأحداث وإجابة الأسئلة بما هو الأنسب والأوفق : فلو كان التشريع دفعة واحدة ، سواء فيما يتعلق بحالة السلم أو حالة الحرب ، لانكشفت الخطة ، ودبر الأعداء المكايد لتحقيق الغلبة على المسلمين ، وهان على أهل الحيلة والمكر التشكيك في مدى صلاحية حكم تشريعي ما.

ثم أبان تعالى تأييد نبيه بالوحي وإبطال حجج المشركين فقال :

---

(١) انظر وقارن تفسير الرازي : ٢٤ / ٧٩

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أي لا يأتيك هؤلاء المشركون المعاندون بحجة أو شبهة ، ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، والتشكيك في نبوتك إلا أجبناهم بما هو الحق الثابت الذي يدحض قولهم ، ويبطل حجتهم ، ويكون أصدق في الواقع ، وأبين وأوضح وأفصح مما يقولون ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٨].

وبعد وصف القوم المتعنتين رسول الله ﷺ بأوصاف كاذبة ، أورد الله تعالى وصفهم يوم القيامة بما يدل على سوء حالهم في معادهم وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ، فقال :

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ ، أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي إن أولئك المشركين المفترين على رسول الله ﷺ ، الذين يسحبون على وجوههم إلى جهنم إذلالا وخزيا وهوانا ، ويساقون إليها بالسلاسل والأغلال ، هم شر مكانا وهو جهنم من أهل الجنة ، وأضل سبيلا وطريقا عن الحق. والمقصود منه الزجر عن طريقهم ، كما في قوله تعالى المتقدم : ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ فلا يراد من ذلك المفاضلة ، وإنما بيان سوء حال أهل النار ، وحسن حال أهل الجنة ، ولفت نظر الكفار إلى أن مكانهم شر من مكان المؤمنين ، وسبيلهم أضل من سبيل المسلمين.

جاء في صحيح البخاري عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال : «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفا مشاة ، وصنفا ركبانا ، وصنفا على وجوههم ،

قيل : يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ ترك المشركون والكفار القرآن في أوضاع متعددة ، إما بعدم الاستماع والإصغاء إليه ، وإما بترك تدبره وتفهمه ، وإما بترك الإيمان به وعدم تصديقه ، وإما بترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وإما بالعدول عنه إلى غيره من أنظمة الجاهلية والكفار أمثالهم.

روى أنس عن النبي ﷺ قال : «من تعلّم القرآن ، وعلّق مصحفه ، لم يتعاهده ولم ينظر فيه ، جاء يوم القيامة متعلقا به يقول : يا رب العالمين ، إن عبدك هذا اتخذني مهجورا ، فاقض بيني وبينه».

وقال ابن القيم : هجر القرآن أنواع : أحدها ـ هجر سماعه والإيمان به ، والثاني ـ هجر العمل به وإن قرأه وآمن به ، والثالث ـ هجر تحكيمه والتحاكم إليه ، والرابع ـ هجر تدبره وتفهم معانيه ، والخامس ـ هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب ، وكل هذا داخل في قوله تعالى : ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

٢ ـ ما من حق إلا ويقابله باطل ، وما من مصلح صادق إلا وله أعداء ، وكما جعل الله لنبيه محمد عدوا من مشركي قومه كأبي جهل وأمثاله ، جعل لكل نبي عدوا من مشركي قومه ، فما على المحق والمصلح إلا الصبر كما صبر الأنبياء المتقدمون ، والله هاد أهل الحق والصلاح ، وناصرهم على كل من ناوأهم.

٣ ـ استدل أهل السنة بآية ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ...﴾ على أنه تعالى خالق الخير والشر ؛ لأن ذلك القول يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ، وتلك العداوة كفر.

٤ ـ طلب كفار قريش أو اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا أن ينزل على محمد جملة واحدة ، كما أنزلت التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، والزبور على داود. والتغاير في طريقة الإنزال له معنى وحكمة.

٥ ـ إن نزول القرآن مفرقا لتقوية قلب النبي ﷺ في تحمله ووعيه ؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون ، والقرآن أنزل على نبي أمي ، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور ، فتفريقه ليكون أوعى للنبي ﷺ ، وأيسر على العامل به ، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب. وقد ذكرت تلك الفوائد والحكم في أثناء التفسير للآية.

وقوله تعالى : ﴿كَذلِكَ﴾ إما من قول المشركين أي كالتوراة والإنجيل ، فيوقف على ﴿ذلِكَ﴾ ثم يبتدأ بقوله : ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ ويجوز الوقف على قوله : ﴿جُمْلَةً واحِدَةً﴾ ثم يبتدأ ﴿كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾ أي أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك. قال ابن الأنباري : والوجه الأول أجود وأحسن ، والقول الثاني قد جاء به التفسير. وقال النحاس : والأولى أن يكون التمام ﴿جُمْلَةً واحِدَةً﴾ لأنه إذا وقف على ﴿كَذلِكَ﴾ صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولم يتقدم لها ذكر. وهذا موافق لرسم القرآن.

٦ ـ نزل القرآن مرتلا مرسلا ، أي شيئا بعد شيء.

٧ ـ إن الله تعالى مؤيد رسوله وهاديه وناصره ، فلو نزل عليه القرآن جملة واحدة ، ثم سألوه عن أمر ، لم يكن عنده ما يجيب به ، فإذا كان مفرقا ثم سألوه أجاب بوحي من عند الله. قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة ؛ لأنهم

لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلا من نبي ، فكان ذلك تثبيتا لفؤاده وأفئدتهم. ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم ، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى تنبيه الناس إلى ما فيه الخير والحكمة والصواب.

٨ ـ أهل النار وهم الكفار يحشرون إليها على وجوههم إما حقيقة كما تقدم ، وإما أن القصد الذل والخزي والهوان ، وإما الدلالة على الحيرة في طريق الذهاب. وهم في شر مكان ؛ لأنهم في جهنم ، وأضل دينا وطريقا.

قصص بعض الأنبياء وعقوبات مكذبيهم

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (٣٧) وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠)﴾

الإعراب :

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ قَوْمَ﴾ منصوب عطفا على الهاء والميم في ﴿فَدَمَّرْناهُمْ﴾ أو بتقدير فعل يفسره ﴿أَغْرَقْناهُمْ﴾ أي أغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ، أو بتقدير فعل «اذكر».

﴿وَعاداً وَثَمُودَ﴾ منصوبان بالعطف على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ إذا نصب بتقدير «اذكر» أو بالعطف على ﴿فَدَمَّرْناهُمْ﴾. ولا يجوز العطف على ﴿وَجَعَلْناهُمْ﴾.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنا كُلًّا﴾ منصوب بفعل تقديره : أنذرنا كلا ؛ لأن ضرب الأمثال في معنى الإنذار ، فجاز أن يكون تفسيرا ل «أنذرنا». ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً كُلًّا﴾ منصوب بتبرنا ، و ﴿تَتْبِيراً﴾

مصدر مؤكد.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ﴾ أي التوراة ﴿وَزِيراً﴾ معينا يؤازره في الدعوة إلى الله وإعلاء كلمته ، ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة ، لتآزرهما في الأمر. والوزير : من يستعان برأيه ويستشار في الأمور ، يقال : وزير الملك أو الرئيس لأنه يؤازره ويعينه في أعباء الملك أو الرئاسة ﴿إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ هم فرعون وقومه القبط ﴿فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً﴾ أهلكناهم إهلاكا ، وفيه محذوف تقديره : فذهبا إليهم فكذبوهما.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي واذكر ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ أي نوحا وغيره ، أو نوحا وحده ؛ لأن تكذيبه تكذيب لباقي الرسل ؛ لاشتراكهم في الدعوة إلى التوحيد ﴿أَغْرَقْناهُمْ﴾ بالطوفان وهو جواب لما ﴿وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بعدهم أي جعلنا إغراقهم أو قصتهم للناس ﴿آيَةً﴾ عبرة ﴿وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ أعددنا في الآخرة للكافرين عذابا مؤلما ، سوى ما يحل بهم في الدنيا. والجملة إما للتعميم ، وإما للتخصيص فيكون وضعا للظاهر موضع الضمير.

﴿وَعاداً﴾ أي واذكر عادا قوم هود وثمود أو : وثمودا : قوم صالح ، فهو إما ممنوع من الصرف على أنه اسم قبيلة ، وإما مصروف على أنه الحي أو اسم الأب الأكبر ﴿وَأَصْحابَ الرَّسِّ﴾ هم قوم كانوا يعبدون الأصنام ولهم آبار ومواش ، فبعث الله إليهم شعيبا ، وقيل : غيره ، فكذبوه ، فبينا هم حول الرّس : وهي البئر غير المطوية (غير المبنية) قعودا ، انهارت بهم وبمنازلهم ، جمع رساس. ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ﴾ أقواما بين ذلك المذكور ، بين عاد وأصحاب الرس. ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ﴾ في إقامة الحجة عليهم ، فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً﴾ أهلكنا إهلاكا بتكذيبهم أنبياءهم.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ أي مرّ كفار مكة أثناء تجارتهم إلى الشام ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ هي سدوم عظمي قرى قوم لوط ، فأهلك الله أهلها لفعلهم الفاحشة ، بمطر مصحوب بالحجارة. والسوء : مصدر ساء ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها﴾ في أثناء سفرهم إلى الشام ، فيعتبروا ويتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله. والاستفهام للتقرير. ﴿بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ أي بل كانوا كفرة لا يخافون بعثا ، فلا يؤمنون ولا يتعظون.

المناسبة :

بعد بيان شبهات المشركين حول القرآن والنبوة والبعث ، ذكر الله تعالى قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم الرسل ، ليعتبر هؤلاء المشركون ، ويحذروا ما حلّ بمن سبقهم من الأمم الماضية من أليم العقاب ، إذا بقوا على كفرهم وعنادهم ، وذكر تعالى أربعة قصص هي ما يأتي :

القصة الأولى ـ قصة موسى وهارون عليهما السلام :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً﴾ بدأ تعالى بذكر موسى ، فقال : وتالله لقد آتينا موسى التوراة ، وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا له ، أي نبيا مؤازرا ومعينا وناصرا. ونبوة هارون ثابتة في آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٥٣] لكنه وإن كان نبيا فالشريعة لموسى عليه السلام ، وهو تابع له فيها ، لذا أمر الاثنان بتبليغ رسالتهما في قوله تعالى :

﴿فَقُلْنَا : اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً﴾ أي فقال الله تعالى آمرا موسى وهارون : اذهبا إلى فرعون وقومه لتبليغ الرسالة وهي إعلان الوحدانية والربوبية لله عزّ وجلّ ، فلا إله غيره ، ولا معبود سواه ، فلما ذهبا كذبهما فرعون وجنوده ، كما قال تعالى : ﴿اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ، فَقُلْ : هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ، فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى ، فَكَذَّبَ وَعَصى﴾ [النازعات ٧٩ / ١٧ ـ ٢١] وقال سبحانه : ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتِي ، وَلا تَنِيا فِي ذِكْرِي ، اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ ، إِنَّهُ طَغى ، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى ، قالا : رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى ، قالَ : لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه ٢٠ / ٤٢ ـ ٤٦].

فلما كذب فرعون وقومه برسالة موسى وأخيه هارون ، ولم يعترفوا بوحدانية

الله تعالى ، أهلكهم الله إهلاكا ، كما قال : ﴿دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ [محمّد ٤٧ / ١٠]. فانظروا يا كفار مكة عاقبة الكفر وتكذيب الرسل.

القصة الثانية ـ قصة نوح عليه‌السلام :

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ ، وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي واذكر يا محمد لقومك ما فعله قوم نوح حين كذبوا رسولهم نوحا عليه‌السلام الذي مكث فيهم يدعوهم إلى توحيد الله ويحذرهم من عقابه ونقمته ألف سنة إلا خمسين ، فما آمن به إلا قليل ، فأغرقناهم بالطوفان ، وجعلناهم عبرة وعظة للناس يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ ، لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً ، وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ﴾ [الحاقة ٦٩ / ١١ ـ ١٢].

وقوله ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ قصد به تكذيب نوح عليه‌السلام ، على أساس أن من كذب رسولا واحدا ، فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، فدعوتهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام واحدة ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول ، فإنهم كانوا يكذبون.

ثم عمّم تعالى الحكم فقال :

﴿وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً﴾ أي وأعددنا وهيأنا عذابا مؤلما في الآخرة لكل ظالم كفر بالله ، ولم يؤمن برسله ، وسلك سبيلهم في تكذيب الرسل. وفي هذا تهديد لكفار قريش أنه سيصيبهم من العذاب مثلما أصاب قوم نوح.

القصة الثالثة ـ قصة عاد وثمود وأصحاب الرّس :

﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ﴾ أي واذكر أيها الرسول أيضا لقومك قصة عاد الذين كذبوا رسولهم هودا ، وقصة قبيلة ثمود الذين كذبوا رسولهم صالحا ، وقصة أصحاب الرس أي البئر وهم قوم من عبدة الأصنام أصحاب آبار وماشية ،

بعث الله لهم شعيبا وقيل غيره ، فدعاهم إلى توحيد الله والإيمان به وبرسالته ، فكذّبوه ، فبينا هم حول البئر قعود ، خسف الله بهم وبمنازلهم. واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرسّ : هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج.

﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً﴾ أي واذكر لهم أمما كثيرة بين قوم نوح وعاد وأصحاب الرس ، لما كذبوا الرسل ، أهلكناهم جميعا.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ ، وَكُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً﴾ أي وكل واحد من هؤلاء الأقوام بيّنا لهم الحجج ، وأوضحنا لهم الأدلة ، وأزحنا الأعذار عنهم ، فلم يؤمنوا وإنما كذّبوا ، بالرغم من الرد على كل الشبهات والاعتراضات ، فأهلكناهم إهلاكا شديدا ، كقوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٧]. والقرن في الأظهر : هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر ، كما ثبت في الصحيحين : «خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم». والتتبير : التفتيت والتكسير.

القصة الرابعة ـ قصة لوط عليه‌السلام :

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي ذكّر مشركي مكة بعبرة أخرى ، وهي أنهم والله لقد مروا أثناء تجارتهم إلى الشام في رحلة الصيف على سدوم أعظم قرى قوم لوط التي أهلكها الله بالقلب (جعل عاليها سافلها) وبالمطر المصحوب بالحجارة من سجّيل ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً ، فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٧٣] لارتكابهم الفاحشة.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها ، بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ أي أفلم يروا ما حلّ بتلك القرية من عذاب الله ونكاله ، بسبب تكذيبهم بالرسول ، وبمخالفتهم أوامر الله ، إنهم فعلا يرون ذلك ، ولكنهم لم يعتبروا ، ومنشأ عدم العظة والعبرة

وتكذيب النبي محمد ﷺ أنهم قوم لا يخافون أو لا يتوقعون نشورا ، أي معادا يوم القيامة. وهذا تأكيد لما قال تعالى سابقا في هذه السورة نفسها : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ [١١] فإن عدم الخوف من اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب هو السبب الجوهري في الإعراض عن دعوة الرسول ﷺ .

ورجح الرازي أن الرجاء في قوله تعالى ﴿لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ على حقيقته ؛ لأن الإنسان لا يتحمل متاعب التكاليف إلا لرجاء ثواب الآخرة ، فإذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها ، فلا يتحمل تلك المتاعب.

فقه الحياة أو الأحكام :

الغرض من إيراد هذه القصص هنا واضح ، وهو تحذير المشركين من تكذيب النبي ﷺ ، فيحل بهم من العذاب ، كما حلّ بالأمم الماضية المكذبين رسل الله.

فالقصة الأولى ـ قصة موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، كان معهما التوراة ، وأمرا بالذهاب إلى فرعون وقومه من أقباط مصر لدعوتهم إلى الإيمان بوجود الله ، والإقرار بوحدانيته ، فكذبوا بآيات الله الدالة على صدق النبوة والتوحيد ، فدمرهم الله تدميرا ، وأهلكهم إهلاكا شديدا بالإغراق في البحر.

والقصة الثانية ـ قصة نوح عليه السلام مع قومه الذي مكث يدعوهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام زمنا هو ألف سنة إلا خمسين ، مما لم يمكث فيه نبي مع قومه مثل هذا ، فبعد أن كذبوه ويئس من إيمانهم ، أغرقهم الله جميعا بالطوفان ، وجعلهم للناس آية أي علامة ظاهرة على قدرته ، وأعدّ لهؤلاء المشركين من قوم نوح ولكل ظالم عذابا شديد الألم في الآخرة ، ونجّى الله الذين آمنوا مع نوح في السفينة.

وقوله : ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ذكر الجنس ، وأراد به نوحا وحده ؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده ، فنوح إنما بعث ب «لا إله إلا الله» وبالإيمان بما ينزل الله تعالى ، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة.

والقصة الثالثة ـ قصة عاد وثمود وأصحاب الرس وأقوام آخرين مما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس ، أنذروا جميعا ، وضربت لهم الأمثال الحقة ، وبيّنت لهم الحجة ، فأبوا الإيمان ، وكذبوا الرسل ، فأهلكهم الله بالعذاب ودمرهم تدميرا. والرس في كلام العرب : البئر التي تكون غير مطوية.

وأصحاب الرسّ كما عرفنا كانوا قوما من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش ، فبعث الله تعالى إليهم شعيبا عليه‌السلام ، فدعاهم إلى الإسلام ، فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه ، فبينما هم حول الرس ، خسف الله بهم وبدارهم. وقيل : الرس : قرية باليمامة قتلوا نبيهم ، فهلكوا ، وهم بقية ثمود.

والقصة الرابعة ـ قصة لوط عليه‌السلام مع قومه في قرية سدوم إحدى قرى قوم لوط الخمس ، دعاهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام ، والتطهر من الفاحشة ، فأصروا على ما هم عليه ؛ لأنهم لا يصدقون بالبعث ، أو لا يرجون ثواب الآخرة ، فأهلكهم الله بمطر السوء ، أي بالحجارة من السماء ، وكان مشركو مكة يمرون في أسفارهم بتلك المدائن ، ومع ذلك لم يعتبروا. قال ابن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٣٧] وقال : ﴿وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر ١٥ / ٧٩].

وقد أهلك الله تعالى أربعا من قرى قوم لوط بأهلها ، وبقيت واحدة.

استهزاء المشركين بالنبي ﷺ وتسمية دعوته إضلالا

﴿وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)﴾

الإعراب :

﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً إِنْ﴾ بمعنى «ما» أي ما يتخذونك إلا ذا هزء أو موضع هزء أو مهزوءا به ، مثل ﴿إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما الكافرون إلا في غرور. ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ محكي بعد قول مضمر تقديره : قائلين : ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾. و ﴿أَهذَا﴾ مبتدأ ، و ﴿الَّذِي﴾ خبره ، و ﴿رَسُولاً﴾ إما منصوب على الحال وهو الأولى ، أو على المصدر ، بجعل ﴿رَسُولاً﴾ بمعنى «رسالة» مثل قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ... بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أي برسالة.

﴿إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا إِنْ﴾ هنا عند البصريين مخففة من الثقيلة ، تقديره : ما كاد إلا يضلّنا.

البلاغة :

﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ الاستفهام للاستهزاء والتهكم ، والإشارة للاستحقار.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ تعجيب ، وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية به ، والأصل : اتخذ هواه إلها له ، بأن أطاعه وبنى عليه دينه ، لا يسمع حجة ، ولا يبصر دليلا.

المفردات اللغوية :

﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ أي ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزوءا به ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ هناك محذوف تقديره : يقولون ، أو قائلين : أهذا الذي بعث الله رسولا في دعواه ، والاستفهام للاستهزاء والتقدير ، والإشارة للاستحقار وعدم تأهله للرسالة في زعمهم. ﴿إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا ...﴾ يصرفنا و ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ، أي إنه قارب إضلالنا ، وصرفنا عن آلهتنا بفرط اجتهاده في الدعوة إلى التوحيد ، لو لا أننا ثبتنا على عبادة آلهتنا. وهذا اعتراف صريح من المشركين بأن محمدا بلغ الغاية في الدعوة إلى ربه.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ﴾ عيانا في الآخرة ، وهذا كالجواب عن قولهم: ﴿إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا﴾ فإنهم نسبوا الرسول ﷺ إلى الضلال ، وفيه وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه ، وإن طالت مدة الإمهال ، ولا بد للوعيد أن يلحقهم ، فلا يغرنهم التأخير ، وسينزل بهم العقاب ويعرفون حينئذ من أخطأ طريقا ، أهم أم المؤمنون؟!

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ﴾ أخبرني عمن جعل هواه إلهه ، بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ، ولا يبصر دليلا ﴿وَكِيلاً﴾ حافظا تحفظه عن اتباع هواه أي مهويه ، وتمنعه عن الشرك والمعاصي ، وحاله هذا؟ لا ، فالاستفهام الأول للتقرير والتعجيب ، والثاني للإنكار.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما تقول لهم ، فتجديهم الآيات أو الحجج ، فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حق بالإضراب عنه إليه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ﴾ أي ما هم إلا كالسوائم في عدم انتفاعهم بقرع الآيات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أبعد عن الحق طريقا منها ؛ لأنها تنقاد لمن يتعهدها بالرعاية ، وهم لا يطيعون مولاهم وخالقهم المنعم عليهم بنعم كثيرة ، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار.

سبب النزول :

نزول الآية (٤١):

روي أن هذه الآية نزلت في أبي جهل ، فإنه كان إذا مرّ رسول الله ﷺ مع صحبه قال مستهزئا : ﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾؟.

المناسبة :

بعد بيان مواقف المشركين في إنكار نزول القرآن من الله ، والطعن في نبوة محمد ﷺ ، وعدم الإيمان برسالته ، وإيراد الشبهات الواهية حول ذلك ، أبان الله تعالى إسرافهم في الشطط والغلو والاستعلاء ، وإساءتهم لهذا الرسول ﷺ بالاستهزاء به ، والاستهانة بشخصه ، والحط من قدره ، متهكمين على اختياره للبعثة النبوية ، ومغالين في ذلك حتى سموا دعوته إضلالا ، ولجؤوا إلى التحذير من تأثير تلك الدعوة القوية والآيات والحجج البالغة التي شارفت أن تجرفهم إلى الإيمان ، وترك دينهم إلى دين الإسلام ، لو لا ثباتهم على الوثنية ، واستمساكهم بعبادة آلهتهم.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ وتعييره بالعيب والنقص ، فيقول :

﴿وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ أي إذا رآك أيها النبي المشركون الذين كفروا بالله ورسوله ، ما يتخذونك إلا موضع هزء وسخرية ، أو مهزوءا به ، مقارنة بما هم عليه من العزة والسيادة والغنى ، وما أنت عليه من الفقر واليتم والمسكنة.

﴿أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ ويقولون على سبيل التنقص والازدراء : أهذا المبعوث من عند الله رسولا إلينا؟ كما قال تعالى في شأن غيره : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٠].

قبحهم الله ، فلم يكن رسول الله ﷺ إلا المثل الأعلى للأنبياء وللبشر قاطبة في مشيه وسلوكه وتصرفاته وأخلاقه وفكره ومنطقه العذب ، ولكنه العناد في

الكفر الذي يصر أهله على تدليس الحقائق وطمس الفضائل ، وهم في أصائل قلوبهم يرون الحقيقة ويظهرون غيرها ، بدليل قولهم الآتي : ﴿إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها﴾ أي قارب محمد أن يثنيهم عن عبادة الأصنام ، ويحملهم على ترك دينهم إلى دين الإسلام ، لو لا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على ما هم عليه ، وتمسكوا بالوثنية والأسطورة والخرافة التي لا يقبل بها عاقل رشيد.

وفي هذا دلالة واضحة على تناقضهم وإظهارهم خلاف ما يعتقدون من الحقيقة ؛ لأنهم عرفوا محمدا الصادق الأمين الراجح العقل في غضون أربعين عاما من العمر قبل النبوة ، ولم يوجهوا له يوما ما أي طعن أو نقد ، وإنما على العكس كان محل احترام وإجلال من جميع قومه ، كما هو معروف.

ثم إن في هذا القول اعترافا ضمنيا بقوة تأثير محمد ﷺ فيهم ، بدعوتهم إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام ؛ بحجج بالغة وأدلة دامغة ، حتى إنهم شارفوا مفارقة دينهم إلى الإسلام ، لو لا المكابرة والعناد والاستكبار والغلو ، فراحوا يقولون بأن صنيعه إضلال.

وبعد أن حكى الله تعالى كلامهم زيّف طريقتهم وسفه آراءهم من وجوه ثلاثة :

الأول :

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ هذا وعيد شديد لهم وتهديد على التعامي عن الحق والإعراض عن الاستدلال والنظر ، وعلى وصفهم له بالإضلال ، فإنهم حين يشاهدون العذاب الذي لا مفرّ لهم منه يدركون من أخطأ طريقا ، أهم أم المؤمنون وهو ﷺ قائدهم ، ومن الضّال ومن المضلّ؟

الثاني :

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ وهذا تنبيه على

عدم الفائدة من دعوة من سيطرت عليه الأهواء إلى الدين الحق ، فانظر فيمن جعل هواه إلهه ، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، واستولى عليه التقليد ، وصمّ أذنه عن سماع الدليل المقنع والبرهان الساطع ، فكل ما زين له الهوى شيئا انقاد له ، وحينئذ لن تستطيع منعه من الشرك والمعاصي ، ولن تكون مستطيعا دعوته إلى الهدى ولا وليا حافظا على شؤونه لتقمعه عن الضلال ، وترشده إلى الهدى والصواب ؛ فما استحسنه بهواه جعله دينه ومذهبه ، كما قال تعالى : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ﴾ الآية [فاطر ٣٥ / ٨].

قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني ، وترك الأول.

وهذا دليل على ألا حجة لهم في عبادة الأصنام إلا التقليد واتباع الأهواء ، ولا يرشد إلى طريقهم فكر ولا عقل سليم.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢٢] ، وقوله سبحانه : ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق ٥٠ / ٤٥] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٦].

الثالث :

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾

وهذا ذمّ أشد مما سبق ، لذا عبر عنه بقوله ﴿أَمْ﴾ أي بل للإضراب عما سبق إليه ، والمعنى بل أتظن أن أكثرهم يسمعون سماع تدبر وفهم ، أو يتعقلون ويفكرون فيما تتلو عليهم ، وترشدهم إليه من الفضائل والأخلاق الحميدة ، فتجهد نفسك في إقناعهم بدعوتك ، ونقلهم إلى العقيدة الصحيحة ، فما حالهم إلا كالأنعام السائمة ، بل هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، وأخطأ طريقا منها ، فإن تلك البهائم تفعل ما هو خير لها ونفع ، وتتجنب ما هو ضارّ

بها وخطر عليها ، أما هؤلاء فلا يقدّرون مصلحتهم حق التقدير ، فتراهم متهورين في المعاصي ، قاذفين أنفسهم في المهالك ، لا يشكرون نعمة الخالق عليهم ولا يعرفون إحسانه ، وإساءة الشيطان لهم ، ولا يفعلون ما يحقق لهم الثواب الأخروي ، ولا يتجنبون ما يؤدي بهم إلى العقاب والعذاب.

والسبب في قوله ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لا الكل أن بعضهم عرف الله تعالى وعلم أن الإسلام حق ، لكنه لم يعلن إسلامه لمجرد حب الرياسة.

وهذا دليل على فقدهم الإدراك الصحيح والوعي السليم ، وتعطيلهم طاقات الحواس والمواهب الإلهية التي لو فكروا بموجبها دون تأثر بعصبية ، أو تقليد موروث ، أو هوى متبع كحب الزعامة والسيطرة ، لانقادوا إلى رسالة الحق والتوحيد ، وآمنوا بدعوة النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ اتّخذ المشركون النبي ﷺ موضع استهزاء وسخرية ، فهل بعد هذا من جرم أفظع منه وأشنع؟

٢ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا ..﴾ على أمور : هي أنهم سمّوا ذلك إضلالا ، وأن الرسول ﷺ بلغ أقصى الجهد والاجتهاد في صرفهم عن عبادة الأوثان ، وأنهم لم يعترضوا على دلائل النبوة إلا بمحض الجحود والتقليد ، وأن القوم أقروا بقوة حجته ﷺ وكمال عقله ، لكنهم طاشوا كالمجانين ، فاستهزؤوا به ، وذلك فعل الجاهل العاجز المتحير في أمره.

٣ ـ كان الرد الحاسم من الله على قبائح المشركين هذه من وجوه ثلاثة :

أولها :

أنهم حين مشاهدة العذاب يدركون من أضل دينا أهم أم محمد؟

ثانيها :

أنهم لجهالتهم وإعراضهم عن آيات الله اتخذوا أهواءهم آلهة ، فأصروا على الشرك ، وقلدوا آباءهم ، مع إقرارهم بأن الله خالقهم ورازقهم ، وعبدوا الأحجار من غير حجة.

ثالثها :

أن أكثرهم لا يسمعون سماع قبول أو يفكرون فيما يقوله النبي ﷺ فيعقلونه ، أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع ، وما هم إلا كالأنعام لا يفكرون في الآخرة ، بل هم أضل ؛ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام.

٤ ـ دلّ قوله سبحانه : ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أي حفيظا وكفيلا حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد ، على أن الهداية والضلالة ليستا موكولتين إلى مشيئة النبي ﷺ ، وإنما عليه التبليغ. والآية تسلية له عن تركهم الإيمان وإعراضهم عن دعوته.

أدلة خمسة على وجود الله وتوحيده

﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ

ماءً طَهُوراً (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٥٠) وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤)﴾

الإعراب :

﴿وَأَناسِيَ﴾ معطوف على ﴿أَنْعاماً﴾ وواحده (أنسي) أو (إنسان). قال الفراء والزجاج : الأنسي والأناسي كالكرسي والكراسي. وقال الزمخشري : الأناسي : جمع أنسي أو إنسان.

البلاغة :

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً﴾ تشبيه بليغ ، حذف منه أداة الشبه ووجه التشبيه ، أي كاللباس الساتر.

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ مقابلة بين الليل والنهار ، والنوم والتقلب في المعاش.

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ استعارة ، استعار اليدين لما هو أمام الشيء وقدّامه.

﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ﴾ التفات من الغيبة : ﴿أَرْسَلَ الرِّياحَ﴾ إلى التكلم للتعظيم والامتنان.

﴿هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ بينهما مقابلة ، أي في نهاية العذوبة ونهاية الملوحة.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تنظر. ﴿إِلى رَبِّكَ﴾ إلى صنعه وفعله. ﴿مَدَّ الظِّلَ﴾ بسطه ، والظل : خيال الأشياء المادية ذات الجسم كجبل أو بناء أو شجر من حين طلوع الشمس حتى غروبها. وهو دليل الحدوث وتصرف الله فيه على الوجه النافع ، مما يدل على أن ذلك فعل الصانع الحكيم. ﴿وَلَوْ

﴿شاءَ﴾ ربك. ﴿ساكِناً﴾ ثابتا مقيما على حاله في القدر ، فلا يزول ولا تذهبه الشمس بأن يجعل الشمس قائمة على وضع واحد. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ أي جعلنا الشمس علامة على الظل ، فلو لا الشمس ما عرف الظل. ﴿ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي أزلنا الظل ومحوناه بإيقاع الشعاع عليه تدريجيا قليلا قليلا شيئا فشيئا بمعدل سير الشمس في فلكها وبمقدار ارتفاعها.

﴿لِباساً﴾ جعل ظلام الليل ساترا كاللباس. ﴿سُباتاً﴾ راحة لأبدانكم بقطع الأعمال والمشاغل ، من السبت وهو القطع. ﴿نُشُوراً﴾ ذا نشور ، أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش وابتغاء الرزق ، أو بعثا من النوم بعث الأموات. ﴿بُشْراً﴾ مبشرات. ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قدّام المطر ، وقرئ : نشرا أي متفرقة قدّام المطر ، جمع نشور كرسول ورسل. ﴿طَهُوراً﴾ مطهرا يتطهر به ، لقوله تعالى : ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال ٨ / ١١] وهو اسم لما يتطهر به ، كالوضوء لما يتوضأ به ، والوقود لما يوقد به. وتطهير الظواهر دليل على تطهير البواطن.

﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أي لا نبات فيها ، والميت يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وذكّر ميتا باعتبار المكان ، أي لأن البلدة في معنى البلد. والفرق بين الميت بالتخفيف ، والميّت بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة ، والثاني لمن سيموت. ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أي الماء. ﴿أَنْعاماً﴾ هي الإبل والبقر والغنم. ﴿وَأَناسِيَّ كَثِيراً﴾ هم الناس ، جمع أنسي. والمراد : أنعاما كثيرة وبشرا كثيرين ؛ لأن فعيل يراد به الكثرة.

﴿صَرَّفْناهُ﴾ أي الماء بمعنى فرقناه وحولناه من جهة إلى أخرى ، ومنه : تصريف الأمور.

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي يتذكروا نعمة الله به ويعتبروا. ﴿كُفُوراً﴾ كفران النعمة وإنكارها وقلة الاكتراث بها ، حيث قالوا : مطرنا بنوء كذا أي سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق ، يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوما ، ما عدا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوما ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها ، وقيل : إلى الطالع ؛ لأنه في سلطانه ، وجمعه أنواء.

﴿نَذِيراً﴾ نبيا ينذر أهلها ويخوفهم ، ولكن بعثناك إلى أهل القرى كلها نذيرا ، ليعظم أجرك. ﴿فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ﴾ في هواهم وفيما يريدون منك وهو تهييج له وللمؤمنين. ﴿وَجاهِدْهُمْ بِهِ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه. ﴿فَلا تُطِعِ﴾ والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك ، فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم. ﴿جِهاداً كَبِيراً﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف. ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان. ﴿فُراتٌ﴾ مفرط العذوبة. ﴿مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ شديد الملوحة. ﴿بَرْزَخاً﴾ حاجزا.

﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ تنافرا بليغا شديدا أو حدا محدودا. ﴿نَسَباً وَصِهْراً﴾ أي ذوي نسب وهم الذكور الذين ينسب إليهم ، والصهر : أي ذوي صهر وهم الإناث اللائي يصاهر بهن.

المناسبة :

لما بيّن الله تعالى جهل المعرضين عن أدلة التوحيد ومناقشتهم وفساد تفكيرهم في ذلك ، ذكر خمسة أدلة دالة بنحو قاطع حسا وعقلا على وجود الصانع الحكيم ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة.

التفسير والبيان :

أورد الحق تعالى أدلة خمسة على وجوده وقدرته من الظواهر الكونية التي يدركها ويشاهدها عيانا كل مخلوق وهي خلق الظل ، والليل والنهار ، والرياح والأمطار ، والبحار المالحة والعذبة ، والإنسان من الماء ، وهي ما يلي :

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً﴾ ألم تنظر أيها الرسول وكل سامع إلى صنع ربك الذي يدل على كمال قدرته ومنتهى رحمته كيف بسط الظل ، يتفيأ به الناس طوال النهار ، وينعمون فيه بالوقاية من شدة حر الشمس ، من طلوع الشمس إلى غروبها. ولو شاء لجعله ثابتا دائما على حال واحدة لا يتغير طولا وقصرا ، وإنما جعله متفاوتا في ساعات النهار والفصول المختلفة ، وفي ذلك فوائد كثيرة للإنسان والنبات والحيوان ، ومن فوائده : اتخاذه مقياسا للزمن ، حتى إن الفقهاء جعلوه علامة على بعض أوقات الصلاة ، كالظهر عند الزوال ، أي تحول الظل نحو المشرق وميل الشمس نحو المغرب ، والعصر إذا بلغ ظل كل شيء مثله في رأي الجمهور ، وعند أبي حنيفة : إذا بلغ ظل كل شيء مثليه.

وهذا على تفسير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ برؤية العين ، والأولى في رأي الرازي حمله على رؤية القلب ، والمعنى : ألم تعلم ؛ لأن الظل من المبصرات ولكن تأثير قدرة الله في تمديده غير مرئي.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ، ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً﴾ أي ثم جعلنا طلوع الشمس علامة على الظل ، فلو لا طلوعها لما عرف الظل ؛ فإن كل شيء يتميز بضده. وهذا يعني أن الله تعالى خلق الظل أولا ، ثم جعل الشمس دليلا عليه. ثم أزلنا الظل وحولناه وغيرنا اتجاهه بضوء الشمس قليلا قليلا وشيئا فشيئا على مهل غير فجأة بحسب سير الشمس وارتفاعها ، حتى لا يبقى على الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه.

وفي إيجاد الظل وتغيره بعد شروق الشمس إلى غروبها ، وانتقاله من حال إلى حال ، وقبضه وبسطه ، والتصرف فيه على وفق الحكمة دليل واضح على وجود الإله القادر ، الخبير البصير ، العليم الحكيم ، الرؤوف الرحيم.

٢ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً ، وَالنَّوْمَ سُباتاً ، وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً﴾ أي والله هو الذي جعل ظلام الليل ساترا كاللباس ، كما قال : ﴿وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى﴾ [الليل ٩٢ / ١] وجعل النوم كالموت قاطعا للحركة ، توفيرا لراحة الأبدان والحواس والأعضاء ، بعد إجهاد النهار ، وعناء العمل ، فبالنوم تسكن الحركات وتستريح الأعصاب والأعضاء والبدن والروح معا.

وجعل تعالى النهار مجالا للانتشار في الأرض ، ينتشر فيه الناس لابتغاء الرزق وغيره ، ويتوزعون فيه لمعايشهم ومكاسبهم.

وكما أن النوم يشبه الموت ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام ٦ / ٦٠] وقال : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها﴾ [الزمر ٣٩ / ٤٢] فإن الانتشار واليقظة يشبه البعث ، قال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشر.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٣].

وفي الليل وسكونه ، والنوم وراحته ، والنهار وحركته دليل واضح على وجود الإله الخالق القادر المتصرف في الكون ، ففي ضوء النهار الحياة والبهجة والحركة والعمل ، وفي الليل الهدوء والسكون وإعداد النفس للكد والكدح والجهاد ، والله تعالى جعل لكل ظرف ما يناسبه تماما ويحقق المقصود على أكمل وجه. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق ، فيها إظهار لنعمته على خلقه ؛ لأن في ستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وفي تشبيه النوم واليقظة بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر.

٣ . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي والله تعالى الذي يرسل الرياح مبشّرات بمجيء السحاب وهطول الأمطار.

﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً﴾ أي وأنزلنا مطرا من السماء ، أي السحاب وجعلناه طاهرا مطهّرا ، أي وسيلة يتطهر بها في تنظيف الأجسام والملابس والأشياء المختلفة ، والانتفاع به في الطعام والشراب وسقي النباتات والحيوانات. والطهور : اسم لما يتطهر به كالوضوء لما يتوضأ به ، والوقود لما يوقد به. روى الشافعي وأحمد وصححه ، وأبو داود والترمذي وحسنه ، والنسائي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : «إن الماء طهور لا ينجّسه شيء». وروى أبو داود والترمذي والنسائي أن النبي ﷺ قال لما سئل عن التوضؤ بماء البحر : «هو الطّهور ماؤه ، الحلّ ميتته». وقال سعيد بن المسيّب في هذه الآية : أنزله الله طهورا ، لا ينجسه شيء.

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ أي وأنزلناه لإحياء الأرض التي لا نبات فيها ، وطال انتظارها للغيث ، فتصبح بعد ريها مزدهرة بأنواع النبات والزهر والشجر ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج ٢٢ / ٥].

﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان المحتاجان إليه أشد الحاجة لبقاء الحياة وسقي الزروع والأشجار ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى ٤٢ / ٢٨].

والخلاصة : ذكر الله تعالى لمنافع الماء أمرين : إحياء النبات ، لقوله : ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ وإحياء الحيوان والإنسان لقوله : ﴿أَنْعاماً وَأَناسِيَ﴾.

والسبب في تخصيص الإنسان والأنعام هنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء هو شدة الحاجة ، فالطير والوحش تبعد في طلب الماء ، وتصبر على فقده أكثر من الناس والحيوان الأهلي ، فلا يعوزها الشرب غالبا.

وتنكير الأنعام والأناسي ، ووصفهما بالكثرة ، لملاحظة أحوال الماشية البعيدة عن منابع الماء ، وأهل البوادي الذين يعيشون بالمطر ، أما أهل المدن والقرى فيقيمون عادة بقرب الأنهار ومنابع الماء ، فهم في غنية عن المطر بشرب المياه المجاورة لهم.

وقدم الأنعام وأخر الإنسان عن النبات والحيوان لشدة حاجة الحيوان وكونه عاجزا عن التعبير عن مراده ، أما الإنسان فيتفنن في استخراج الماء بوسائل عديدة ، ولأن الناس إذا ظفروا بما يسقي أرضهم ومواشيهم ، فقد ظفروا أيضا بسقياهم ، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي ولقد فرقنا المطر وحولناه من جهة إلى أخرى ، فأمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب من مكان إلى آخر ليتذكروا نعمة الله ويعتبروا ، فإن الحرمان من الشيء ثم الإفاضة به يذكّر بفضل الله ونعمته ، فيوجب الشكر ، ويدفع الإنسان إلى العظة والعبرة ، ولكن أكثر الناس يأبون شكر النعمة ، ويكفرون بها

ويجحدونها ، وينسبون ذلك لغير الخالق الحقيقي ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، أي من النجوم الساقطة أو الطالعة ، كما

ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل : «أتدرون ما ذا قال ربّكم؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي ، مؤمن بالكوكب».

وفسر بعضهم قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ﴾ أي تصريف القرآن وتقليب حججه وآياته من حال إلى حال ، ليذكر الناس ويتعظوا ، ومع ذلك كفر به كثيرون.

وفي إنزال المطر والتحكم فيه من قبل الله دليل على وجوده وقدرته وحكمته ، فإذا ما أحيا الله الأرض الميتة به ، تذكر الناس أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات ، وإذا ما حرم قوم المطر تذكروا أنما أصيبوا بالحرمان بذنب حدث منهم ، فيقلعون عما هم عليه ، ليتعرضوا إلى رحمة الله. وكما أن المطر نعمة ينبغي أن تذكر فتشكر ، هناك نعمة عظمي على الإنسانية وهي إرسال الرسول محمد ﷺ بالقرآن ، فقال تعالى :

﴿وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية رسولا منذرا يخوف الناس من عذاب أليم لفعلنا ، ولكنا بعثناك يا محمد إلى الثقلين : الجن والإنس ، وإلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ، كما قال تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ [الشورى ٤٢ / ٧] وقال : ﴿قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٨] وجاء في الصحيحين : «بعثت إلى الأحمر والأسود» أي إلى العجم والعرب. وفيهما أيضا : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» وعموم البعثة لندّخر

لك أيها الرسول عظيم الثواب ، وواسع الجزاء ، فما عليك إلا الجهاد والصبر ، ولا تأبه بإعراضهم عن دعوتك. لهذا قال :

﴿فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾ أي فلا تتبع الكفار فيما يدعونك إليه من مجاملة أو موافقة لآرائهم ومذاهبهم ، وجاهدهم بكل سلاح مادي أو عقلي وهو القرآن جهادا شاملا لا هوادة فيه ، متناسبا مع كل فرصة تنتهزها ، كما قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ ، وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة ٩ / ٧٣]. والجهاد الكبير : هو الذي لا يخالطه فتور.

٤ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، هذا عَذْبٌ فُراتٌ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي والله الذي جعل البحرين المتضادين متجاورين متلاصقين لا يمتزجان ، هذا ماء زلال عذب شديد العذوبة ، وهذا مالح شديد الملوحة ، ولكن لا يختلط أحدهما بالآخر ، كأن بينهما حاجزا منيعا ، وكأنهما ضدان مفترقان متنافران لا يجتمعان ، ولا يصل أحدهما إلى الآخر ، فهما في مرأى العين واحد ، ولكنهما في الحقيقة والواقع منفصلان ، كما قال تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ ، بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ١٩ ـ ٢١] وقال : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً ، أَإِلهٌ مَعَ اللهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٦١].

أي دليل آخر يدل على قدرة الله الباهرة غير مثل هذا الدليل؟ إن الماء ماء واحد ، ولكن الماء العذب لا يختلط بالماء المالح ، والله خلق الماءين : الحلو والملح ، وجعل الأنهار والعيون والآبار حلوة ، وهي البحر الحلو الفرات الزلال ، وجعل البحار في المشارق والمغارب والمحيطات الخمس مالحة ، وملوحتها سبب لنقاوتها وعدم فسادها ، ويتجدد هواء البحر بالمد والجزر ، فتستطيع الأسماك في قيعانه العيش بسلام.

٥ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً ، فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ، وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ أي والله سبحانه الذي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدّله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكرا وأنثى كما يشاء ، فقسمه قسمين : ذكورا تنسب إليهم الأنساب ، وإناثا يصاهر بهن ، كما قال : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى﴾ [القيامة ٧٥ / ٣٩] وكان الله قديرا بالغ القدرة على كل شيء من هذا وغيره ، يخلق ما يريد ، وقد أبدع كل شيء خلقه ، وأتقن كل ما في الوجود ، وهو ما يزال كامل القدرة على الإبداع والخلق والتكوين. وختم الآية بإثبات القدرة هو مسك الختام.

قال ابن سيرين : نزلت هذه الآية في النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه ؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر. وقال ابن عطية : فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة.

وهذا دليل آخر على قدرة الله تعالى إذ خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وزوده بطاقات الحس والعقل ، والمعرفة والتفكير ، وأقدره على مخلوقات الدنيا ، وجعلها مذلّلة مسخرة لخدمته ونفعه ، فسبحانه من إله بديع الخلق ، عجيب الصنع ، واهب الوجود ، ومبدع الكون العجيب.

فقه الحياة أو الأحكام :

في هذه الآيات أدلة خمسة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وهي :

أولا ـ خلق الظل المقابل للشمس وتمديده طوال النهار وانعدامه عند الظهيرة ما عدا سقف البيت والشجر ، حكى أبو عبيدة عن رؤبة : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل.

والظل نعمة عظمي للأحياء والعقلاء في كل مكان ، لا سيما في البلاد الحارة ، ففيه الراحة والهدوء ، وتوقي الحر ، أو الوقاية من ضربات الشمس الحادّة ، كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ ، عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ ، سُجَّداً لِلَّهِ ، وَهُمْ داخِرُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٤٨].

وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم ، أي من رؤية القلب. والخطاب وإن كان في الظاهر للرسول ﷺ فهو عام في المعنى.

والشمس دليل على الظل ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، ولو لا الشمس ما عرف الظل ، ولو لا النور ما عرفت الظلمة ، فالشمس دليل ، أي حجة وبرهان.

ويتفاوت طول الظل وقصره أثناء النهار تفاوتا سهلا يسيرا ، شيئا فشيئا ، والله هو الذي يقبضه بيسر وسهولة ، وكل أمر ربنا عليه يسير.

ثانيا ـ الليل ستر للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن ، والنوم راحة للأبدان بالانقطاع عن الأشغال ، والنهار ذو نشور ، أي انتشار للمعاش ، فهو سبب الإحياء للانتشار. والنوم ليلا يشبه الإماتة ، واليقظة نهارا تشبه البعث ، وكان ﷺ إذا أصبح قال : «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

ثالثا ـ الرياح مبشّرات بهطول المطر ، تقود السحب من مكان إلى آخر ، والأمطار الهاطلة حياة الأبدان والنباتات والحيوانات ، وهي ماء طهور أي ما يتطهر به ، والمراد أنه مطهر. وأجمعت الأمة على أن وصف (طهور) يختص بالماء ، ولا يتعدى إلى سائر المائعات ، وهي طاهرة.

والمياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة ، على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها. والمخالط للماء ثلاثة أنواع : نوع يوافقه في صفتيه جميعا وهو التراب طاهر مطهر ، ونوع يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة ، فإذا خالطه فغيّره سلبه صلاحية التطهير وهو ماء الورد وسائر المائعات الطاهرات ، ونوع يخالفه في الصفتين جميعا ، وهو النجس.

ويرى الجمهور أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة ، والكثير لا يفسده إلا

ما غيّر لونه أو طعمه أو ريحه من النجاسات. ويرى أبو حنيفة أنه إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته ، كثيرا كان أو قليلا إذا تحققت النجاسة فيه ، فإن وقعت نقطة بول في بركة ، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس ، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس.

وميّز الشافعية بين القليل والكثير بمقدار القلتين (١٥ صفيحة) فإذا بلغ الماء قلتين ، فوقعت فيه نجاسة ، ولم تغير طعمه أو لونه أو ريحه ، فهو طاهر مطهر ، وإذا غيرت أحد أوصافه ، ولو تغيرا يسيرا فنجس ؛ لقوله ﷺ فيما رواه أصحاب السنن الأربعة عن ابن عمر : «إذا بلغ الماء قلّتين ، لم يحمل الخبث» أو «لم ينجس» قال الحاكم : على شرط الشيخين : البخاري ومسلم.

ولا حدّ عند المالكية بين القليل والكثير ، والمرجع فيه إلى العرف والعادة ، فما هو قدر آنية الوضوء والغسل قليل يسير ، وما يزيد عن ذلك كثير.

ولا يضر تغير الماء بما في مقره وممره كزرنيخ وطحلب وورق شجر ينبت عليه. وكذلك لا يضر ما مات في الماء مما لا دم له ، أو له دم سائل من دواب الماء ، كالحوت والضفدع إن لم يغيّر ريحه.

والماء المستعمل القليل في رفع حدث أو إزالة نجس طاهر مطهر عند المالكية ، وطاهر غير مطهر عند الجمهور. ودليل المالكية : الآية التي وصفت الماء بالطهور والمطهر ، والأصل في الثابت بقاؤه ، والسنة وهو أنه ﷺ توضأ فمسح رأسه بفضل ماء في يده ، وأنه توضأ فأخذ من بلل لحيته ، فمسح به رأسه ، والقياس : وهو أنه ماء طاهر لقي جسدا طاهرا ، فأشبه ما إذا لقي حجارة أو حديدا. ودليل الجمهور قوله ﷺ فيما رواه مسلم : «لا يغتسل أحدكم في الماء الدائم [١] وهو جنب» ولو بقي الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان للمنع منه معنى.

---

(١) الماء الدائم : هو الراكد الساكن.

والقياس وهو أن الصحابة كانوا يتوضئون في الأسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه ، مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك إلى الماء ، ولو كان ذلك الماء مطهرا لحملوه ليوم الحاجة. [١]

والماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات : هو الماء الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار ، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شيء خالطه كماء الورد ، ولا يضره لون أرضه ، كما بينا.

ولا بأس في مذهب الجمهور أن يتوضأ الرجل بفضل ماء وضوء المرأة وتتوضأ المرأة من فضل ماء وضوء الرجل ، سواء انفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد ؛ روى الترمذي عن ابن عباس قال : حدثتني ميمونة قالت : كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد من الجنابة. وقال : هذا حديث حسن صحيح. ورواه مسلم أيضا.

رابعا ـ أرسل الله البحرين : العذب والمالح ، وجعلهما متجاورين متلاصقين لا يمتزجان ولا يختلطان ، وجعل بينهما حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ، وسترا مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر ، فالبرزخ : الحاجز ، والحجر : المانع.

خامسا ـ خلق الله تعالى من النطفة إنسانا ، وجعل من الإنسان صنفين : الذكر والأنثى ، وجعل الذكر موضع نسبة النسب ، والأنثى سببا للمصاهرة ، وإيجاد قرابات جديدة ، فكل من النسب والصهر قرابة ويعمان كل قربى بين آدميين.

وتضمنت الآيات أيضا بالإضافة إلى الاستدلال بها على قدرة الله تعداد النعم على بني الإنسان من إيجاد الظل ، وتعاقب الليل والنهار ، وإنزال الأمطار ،

---

(١) تفسير الرازي : ٢٤ / ٩٢

وخلق الماءين : الحلو والمالح ، وتسخير البحار والأنهار لسير المراكب وتنقل الناس ، وإيجاد الإنسان بعد العدم ، والتنبيه على العبرة في كل ذلك.

كما تضمنت الآيات بيان فضله تعالى في إنزال القرآن على تفسير التصريف بتصريف آيات القرآن وترداد الحجج والبينات فيه ، وفي بعثة النبي ﷺ لجميع العالم في الشرق والغرب ، فهاتان هما النعمتان العظيمتان على بني الإنسان ، وعلى التخصيص المسلمين.

وإذا لم يكن النسب ثابتا شرعا لم تثبت حرمة المصاهرة ، وعليه قال الجمهور : إذا لم يكن نسب شرعا ، فلا صهر شرعا ، فلا يحرّم الزنى بنت أم ولا أمّ بنت ، ولا بنتا من الزنى ، وما يحرّم من الحلال لا يحرّم من الحرام ؛ لأن الله امتنّ بالنسب والصهر على عباده ، ورفع قدرهما ، وعلّق الأحكام في الحل والحرمة عليهما ، فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما. وقال الحنفية : تحرم البنت من الزنى أو الأخت أو بنت الابن من الزنى ؛ بسبب التولد من ماء الرجل.

جهل المشركين في عبادة الأوثان وتوجيه النبي

وسبب جعل العبادة للرحمن

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩)

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (٦٠) تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (٦٢)﴾

الإعراب :

﴿وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ...﴾ أي على معصية ربه ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ مِنْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، و ﴿إِلى رَبِّهِ﴾ أي إلى قربة ربه ، فحذف المضاف.

﴿وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾ أي كفاك الله ، فحذف المفعول الذي هو الكاف ، والباء : زائدة ، و ﴿خَبِيراً﴾ تمييز أو حال.

﴿الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً الرَّحْمنُ﴾ : إما خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، أو مبتدأ ، و ﴿فَسْئَلْ بِهِ﴾ خبره ، أو الخبر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ أو بدل من ضمير ﴿اسْتَوى﴾.

ويجوز النصب على المدح ، والجر على البدل من ﴿الْحَيِ﴾ و ﴿خَبِيراً﴾ : مفعول اسأل ، وهو وصف لموصوف محذوف ، تقديره : فاسأل به إنسانا خبيرا ، والباء بمعنى (عن) مثل : فإن تسألوني بالنساء أي عن النساء.

﴿أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا﴾ ما : إما اسم موصول ، والتقدير : للذي تأمرنا به ، فحذف حرف الجر ثم الهاء العائدة إلى الاسم الموصول. وإما مصدرية ، فلا يكون هناك شيء محذوف.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي الكفار. ﴿ما لا يَنْفَعُهُمْ﴾ بعبادته. ﴿وَلا يَضُرُّهُمْ﴾ بتركها ، وهو الأصنام. ﴿ظَهِيراً﴾ معينا للشيطان بالعداوة والشرك. ﴿مُبَشِّراً﴾ بالجنة. ﴿وَنَذِيراً﴾ مخوّفا من النار. ﴿أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ ما أرسلت به. ﴿إِلَّا مَنْ شاءَ﴾ أي لكن فعل من أراد. ﴿سَبِيلاً﴾ طريقا بإنفاق ماله في مرضاته تعالى ، فلا أمنعه من ذلك ، أو إلا من أراد أن يتقرب

إلى ربه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة. وفيه إشعار بأن الطاعة تعود على صاحبها بالثواب.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ نزّهه عن صفات النقصان وصفه بصفات الكمال ، قائلا : سبحان الله والحمد لله. ﴿خَبِيراً﴾ عالما بالظاهر والباطن. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي قدر ستة أيام من أيام الدنيا ، ولو شاء لخلقهن في لمحة واحدة ، ولكنه عدل إلى ذلك لتعليم خلقه التثبت والتأني في الأمر والتدرّج.

﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي استوى استواء يليق به على العرش الذي هو أعظم من خلق السموات والأرض وأعظم المخلوقات ، وليس خلق العرش بعد خلق السموات ؛ لقوله تعالى : ﴿وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ﴾ [هود ١١ / ٧].

﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أي اسأل بالرحمن أي عن الرحمن خبيرا يخبرك بصفاته. ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ﴾ لكفار مكة أي قال لهم الرسول ﷺ ، فهو الآمر بالسجود. ﴿لِما تَأْمُرُنا﴾ للذي تأمرنا به أي تأمرنا بسجوده. ﴿وَزادَهُمْ﴾ هذا القول ﴿نُفُوراً﴾ إعراضا عن الإيمان.

﴿تَبارَكَ﴾ تعاظم. ﴿بُرُوجاً﴾ منازل الكواكب السيارة الاثني عشر المعروفة وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، المجموعة في قول الشاعر :

حمل الثور جوزة السّرطان ... ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدي ... نزح الدلو بركة الحيتان

وهي منازل الكواكب السيارة السبعة وهي المرّيخ : وله الحمل والعقرب ، والزّهرة : ولها الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها الأسد والمشتري: وله القوس والحوت ، وزحل : وله الجدي والدلو. ونظم الشاعر هذه الكواكب بقوله :

زحل شرى مرّيخه من شمسه ... فتزاهرت لعطارد الأقمار

وسميت بالبروج وهي لغة : القصور العالية للتشبيه بها ، فهي للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها.

﴿سِراجاً﴾ هو الشمس ، وقرئ : سرجا بالجمع وهي الشمس والكواكب الكبار فيها. ﴿وَقَمَراً مُنِيراً﴾ مضيئا بالليل ، وقرئ : قمر جمع قمراء ، وخص الشمس والقمر بالذكر لفضيلتهما.

﴿خِلْفَةً﴾ أي يخلف كل منهما الآخر بأن يأتي بعده ويقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه. ﴿أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ أن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه ، فيعلم أنه لا بدّ له من صانع حكيم واجب الذات رحيم بالعباد ، ويتذكر أيضا ما فاته في أحدهما من خير فيفعله في الآخر. ﴿أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾ أن يشكر الله على ما فيه من النعم.

المناسبة :

بالرغم مما أبان الله تعالى من أدلة التوحيد في ظواهر الكون ، فإن المشركين ظلوا يعكفون على عبادة الأصنام ، فأخبر تعالى عن جهلهم في عبادة ما لا يضر ولا ينفع ، بلا دليل ولا حجة في ذلك ، بل بمجرد التقليد والهوى والتشهي ، تاركين اتباع الرسول ﷺ الذي جاء يبشرهم بالخير إن أطاعوا ، وينذرهم بالعذاب إن عصوا وأعرضوا ، وهو لا يبتغي على ذلك أجرا.

ثم وجه الله تعالى رسوله بأن يتوكل على الله الحي الذي لا يموت ، العالم بجميع المعلومات ، القادر على كل الممكنات ، فلا يرهب جانب المشركين ولا يخشى بأسهم ، وأمره أيضا بأن ينزه ربه عن كل صفات النقص كالشريك والولد ، ويصفه بجميع صفات الكمال ، وأبان له أن وجوب السجود والعبادة لا يكون إلا للرحمن الذي خلق الكواكب السيارة وجعل لها منازل ، وجعل الليل والنهار في تعاقب دائم للتذكر وتوجيه الشكر لله تعالى.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن ضلال المشركين عن عبادة الله وجهلهم وكفرهم بربهم فيقول :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ﴾ أي ويعبد المشركون آلهة من غير الله لا تنفعهم عبادتها ، ولا يضرهم هجرها وتركها ، ولا دليل لهم على ذلك إلا مجرد الهوى والتشهي ، ويتركون عبادة من أنعم عليهم بالنعم السابق ذكرها في الآيات من مدّ الظل وغيره.

﴿وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ أي وكان الكافر على معصية ربه معينا للشيطان بالعداوة والشرك أو يعينه على معصية الله. والمراد : جنس الكافر وهو عام في كل كافر.

قال ابن عباس : نزلت الآية في أبي الحكم بن هشام الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام. لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالأولى حمل لفظ ﴿الْكافِرُ﴾ على العموم ، ولأنه أوفق لظاهر قوله : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾.

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي أن المشركين قوم حمقى جهال ، فكيف يعينون الشيطان على معصية الله ورسوله ، مع أن الله أرسل رسوله محمدا ﷺ ليبشر من أطاعه بالجنة ، وينذر من عصاه بالنار؟ وأما أنت أيها الرسول فلا تأبه بعنادهم وكفرهم ، فما أنت إلا نذير وبشير ، وعلى الله الحساب والعقاب ، فلا تحزن على عدم إيمانهم. وهل من جهل أعظم من الإمعان في إيذاء من يريد نفعهم في الدنيا والآخرة؟!

ونظير الآية : ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٥ / ٦٧].

وهو يريد نفعهم بمحض الإخلاص دون أن يبغي لنفسه نفعا من أجر أو غيره ، لذا قال تعالى : ﴿قُلْ : ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك : لا أطلب على هذا البلاغ وهذا الإنذار أجرة من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى. و ﴿مِنْ﴾ للتأكيد.

﴿إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي لم أسألكم أجرا أبدا ، لكن من أراد أن يتقرب إلى الله بالإنفاق في الجهاد والتطوعات وغيرها ، ويتخذ إلى ربه طريقا يؤدي به إلى رحمته ونيل ثوابه ، بالعمل الصالح ، فليفعل ولا يتردد. والمراد : لا تصنعوا معي إحسانا بأجر تدفعونه لي ، ولكن اطلبوا الأجر لأنفسكم بفعل الخير وعبادة الله وشكره.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ بعد أن بيّن سبحانه

لرسوله أن الكفار متظاهرون على إيذائه ، مع أنه لا يطلب منهم أجرا مطلقا ، أمره بأن يتوكل عليه في أموره كلها لدفع جميع المضار ، وجلب جميع المنافع ، فمن يتوكل عليه فهو حسبه وكافيه من كل شر ، وناصره ، ثم أمره بأن ينزهه عن كل نقص كالشريك والولد ، تنزيها مقترنا بحمده وشكره ، فيقرن بين الحمد والتسبيح ، قائلا : سبحان الله وبحمده ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : «سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك» أي أخلص له العبادة والتوكل. ومعنى التوكل : تفويض الأمر كله لله بعد اتخاذ الأسباب والوسائط المطلوبة شرعا وعقلا.

وللآية نظائر كثيرة مثل : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمّل ٧٣ / ٩]﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود ١١ / ١٢٣]﴿قُلْ : هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا﴾ [الملك ٦٧ / ٢٩].

﴿وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾ أي كفاك الله عالما علما تاما بمعاصي عباده ، لا تخفى عليه خافية ، يعلم ما ظهر منها وما بطن ، وهو محصيها عليهم ، ومجازيهم عليها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد ٥٧ / ٣]. وفي هذا سلوة لرسوله ، ووعيد للكفار إن لم يؤمنوا على كفرهم ومعاصيهم.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي أن الله الخبير العليم بكل شيء هو الذي أوجد السموات السبع والأرضين السبع في ستة أيام بقدرته وسلطانه ، ثم استوى على العرش أعظم المخلوقات استواء يليق بعظمته ، كما يقول السلف ، وهو الأصح ، واستولى على العرش كما يقول الخلف ، يدبر الأمر ، ويقضي بالحق ، وهو خير الفاصلين. وكلمة ﴿ثُمَ﴾ للترتيب الإخباري ، لا للترتيب الزمني ؛ لأنها ما دخلت على خلق العرش ، بل على رفعه على السموات.

﴿الرَّحْمنُ ، فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أي إن ذلك الخالق هو العظيم الرحمة بكم ، فلا تتكلوا إلا عليه ، واستعلم أيها السامع من هو خبير به ، عالم بعظمته ، فاتبعه واقتد به. ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ﷺ ، فما قاله فهو الحق ، وما أخبر به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم فيما يتنازع فيه البشر : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم ٥٣ / ٤].

تبين مما ذكر أن الله سبحانه لما أمر الرسول ﷺ بأن يتوكل عليه ، وصف نفسه بأمور ثلاثة هي :

الأول ـ أنه حي لا يموت ، وهو قوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾.

الثاني ـ أنه عالم بجميع المعلومات ، وهو قوله : ﴿وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً﴾.

الثالث ـ أنه قادر على جميع الممكنات ، وهو المراد من قوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما﴾ لأنه لما كان هو الخالق للسموات والأرض وما بينهما ولا خالق سواه ، ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضارّ ، وأن النعم كلها من جهته ، فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.

أما الكفار فقابلوا الشكر والتوكل بالكفر والاعتماد على النفس ، فقال تعالى : ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا : وَمَا الرَّحْمنُ﴾ أي وإذا طلب منهم السجود لله الرحمن الرحيم ، وعبادته وحده دون سواه ، قالوا : لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمّى الله باسم ﴿الرَّحْمنُ﴾ وإذا كنا لا نعرف الرحمن فكيف نسجد له. وهذا شبيه بقول موسى لفرعون : ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٠٤] فقال فرعون : ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٣].

﴿أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً﴾ أي أنسجد للذي أمرتنا بالسجود له ، لمجرد قولك ، من غير أن نعرفه ، وزادهم هذا الأمر بالسجود نفورا وإعراضا ، وبعدا عن الحق والصواب ، ومن حقه أن يكون باعثا على الفعل والقبول.

وقد اتفق العلماء ﷺ على أن هذه السجدة التي في الفرقان يشرع السجود عندها لقارئها ومستمعها. وهذا شأن المؤمنين الذين يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ، ويفردونه بالألوهية ، ويسجدون له. روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين. فهذا هو المراد من قوله : ﴿وَزادَهُمْ نُفُوراً﴾ أي فزادهم سجودهم نفورا.

وبعد أن حكى سبحانه عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ، ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن ، فقال :

﴿تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ يمجّد الله تعالى نفسه ويعظمها على جميل ما خلق في السموات ، فيذكر أنه تعاظم وتقدس الله الذي جعل في السماء كواكب عظاما ومنازل لتلك الكواكب السيارة وغيرها ، التي عدها المتقومون ألفا ، ورصدتها الآلات الحديثة أكثر من مائتي ألف ألف ، وجعل في السماء سراجا وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود ، كما قال : ﴿وَجَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً﴾ [النبأ ٧٨ / ١٣] وجعل في السماء أيضا قمرا منيرا ، أي مشرقا مضيئا ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً ، وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس ١٠ / ٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾ أي والله هو الذي جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ويأتي بعده ، توقيتا لعبادة عباده له عزوجل . فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ،

ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، فيكون في ذلك عظة لمن أراد أن يتذكر ما يجب عليه ، ويتفكر في آلاء الله وعجائب صنعه ، ويشكر ربه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى. جاء في الحديث الصحيح لدى الشيخين : «إن الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». وقال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، وقد فاتته قراءة القرآن بالليل : «يا ابن الخطاب ، لقد أنزل الله فيك آية وتلا : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾. ما فاتك من النوافل بالليل ، فاقضه في نهارك ، وما فاتك من النهار فاقضه في ليلك». وروى أبو داود الطيالسي عن الحسن أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ، فقال : إنه بقي عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه ، أو قال : أقضيه ، وتلا هذه الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً﴾.

وهذه الآية وما قبلها من أدلة قدرة الله تعالى ووحدانيته ووجوده.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ إن مما يثير العجب والدهشة أن الله تعالى بعد أن عدد النعم وبيّن كمال قدرته ، وجد المشركين باقين على إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضرر ، بسبب جهلهم وعنادهم ، وشأن الكافر أنه معين للشيطان على المعاصي.

٢ ـ لا سلطان للرسول ﷺ في مجال الإيمان والطاعة على أحد ، وإنما تقتصر مهمته على تبشير من أطاعه بالجنة ، وإنذار من عصاه بالنار ، يفعل ذلك بمحض الإخلاص وحب الخير للناس ، دون أن يطلب على التبليغ والإنذار أو الوحي والقرآن أجرا ولا جزاء ولا شكورا.

لكن باب التنافس في القربات والمبادرة إلى الخيرات مفتوح على مصراعيه ، فمن أراد أن ينفق من ماله في سبيل الله من جهاد وصدقات وغيرها فليفعل.

٣ ـ على الرسول ﷺ وكل مؤمن بعد اتخاذ الأسباب والوسائط أن يتوكل على الله الحي الذي لا يموت. والتوكل : اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور ، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها. ويجب تنزيه الله تعالى عما يصفه الكفار به من الشركاء ، فيقول الواحد: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم أستغفر الله ، كما ورد في المأثور. والتسبيح : التنزيه. وحسبك أيها الإنسان أن الله عليم بكل شيء من أمورك ظاهرها وباطنها ، فيجازيك عليها خيرا أو شرا.

٤ ـ إن الله تعالى هو الحي الدائم الباقي الذي لا يموت ولا يفنى ، وهو عالم بجميع المعلومات ، قادر على كل الممكنات.

٥ ـ الله سبحانه هو خالق كل شيء ، خلق جميع السموات في ارتفاعها واتساعها ، وخلق جميع الأرضين في سفولها وكثافتها. وقد أتم خلق السماء والأرض في ستة أيام لتعليم الناس التثبت والتروي والتؤدة. وخلق العرش واستوى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته ، وما على الجاهل إلا أن يسأل خبيرا بالله من رسول أو عالم ، ثم يتبعه ويقتدي به.

قال الرازي في تفسير قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ : الاستقرار غير جائز ؛ لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب والبعضية ، وكل ذلك على الله محال ، بل المراد : ثم خلق العرش ورفعه على السموات ، وهو مستول ، كقوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد ٤٧ / ٣١] فإن المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون. وليس خلق العرش بعد خلق السموات ؛

لقوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود ١١ / ٧] وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ ما دخلت على خلق العرش ، بل على رفعه على السموات.

٦ ـ استبد العناد والاستكبار بالمشركين أنه إذا طلب منهم السجود للرحمن ، قالوا على جهة الإنكار والتعجب : وما الرحمن؟ أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون : مسيلمة الكذاب ، أنسجد لما تأمرنا أنت يا محمد؟ وزادهم هذا الأمر نفورا عن الدين ، ومن شأنه حملهم على الفعل والقبول. كان سفيان الثوري يقول في هذه الآية : إلهي زادني لك خضوعا ما زاد عداك نفورا.

٧ ـ من أدلة قدرة الله تعالى ووحدانيته : جعله في السماء بروجا ، أي منازل للكواكب العظام كالزّهرة والمشتري وزحل والسماكين ونحوها ، وجعله فيها الشمس ضياء والقمر نورا ينير الأرض إذا طلع ، وجعله الليل والنهار في تعاقب دائم في الضياء والظلام والزيادة والنقصان ، لا عبثا وإنما ليتذكر المقصر تقصيره والمسيء إساءته ، فيصلح ما بدر منه ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم. قال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن : معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل.

ففي الليل دعة وسكون وهدوء يستدعي التذكر ، وفي النهار حركة وتصرف وانشغال قد يشغل عن التذكر ، أو يكون سببا لتذكر ما مر من الليل بالنوم ، فيستدرك المؤمن ما فاته في أحدهما من الخير في وقت الآخر ، فهما وقتان للمتذكرين والشاكرين ، والله يتقبل عمل الليل وعمل النهار ، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

ثم إن سكون الليل والتصرف بالنهار نعمة تستحق الشكر ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٣].

صفات عباد الرحمن

﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (٦٥) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (٦٨) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (٦٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٠) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (٧٤) أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (٧٥) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (٧٦) قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (٧٧)﴾

الإعراب :

﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ﴾ : مبتدأ ، وخبره : ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اصْرِفْ﴾ إلى قوله : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنا هَبْ لَنا﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾.

﴿قالُوا : سَلاماً﴾ منصوب على المصدر أي (تسليما) فسلام في موضع تسليم.

﴿وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾ اسم ﴿كانَ﴾ مضمر فيها ، و ﴿قَواماً﴾ خبرها ، أي كان الإنفاق ذا قوام بين الإسراف والإقتار. ويجوز جعل ﴿بَيْنَ﴾ متعلقا بخبر ﴿كانَ﴾ أي كائنا بين ذلك ، فيكون ﴿قَواماً﴾ خبرا بعد خبر.

﴿يُضاعَفْ﴾ بالجزم : بدل من ﴿يَلْقَ أَثاماً﴾ والفعل يبدل من الفعل ، كما يبدل الاسم من الاسم. ويقرأ بالضم على أنه في موضع الحال ، أو على الاستئناف والقطع مما قبله.

﴿مَتاباً﴾ منصوب على المصدر ، وهو مصدر مؤكد. وأصله : متوب ، فنقلت الفتحة من الواو إلى التاء ، فتحركت في الأصل ، وانفتح ما قبلها الآن ، فقلبت ألفا.

﴿كِراماً﴾ حال من واو ﴿مَرُّوا﴾.

﴿صُمًّا وَعُمْياناً﴾ حال من واو ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾.

﴿وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً إِماماً﴾ أي إماما واحدا أريد به الجمع ، أي أئمة كثيرا ، واكتفى بالواحد عن الجمع للعلم به ، كقولهم : نزلنا الوادي فصدنا غزالا كثيرا ، أي غزلانا. ويجوز أن يكون جمع (آمّ) على وزن فاعل ، وفاعل يجمع على فعال نحو قائم وقيام وصاحب وصحاب.

﴿لِزاماً﴾ خبر ﴿يَكُونُ﴾ واسمها مضمر فيها ، وتقديره : فسوف يكون التكذيب لزاما ؛ لدلالة قوله : ﴿كَذَّبْتُمْ﴾.

البلاغة :

﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ﴾ الإضافة للتشريف والتكريم.

﴿سُجَّداً وَقِياماً﴾ و ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بين كلّ طباق.

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ و ﴿ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ مقابلة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً﴾ استعارة ، استعار لمن لم يتغافل عن الهداية والإنذار حال من لا يسمع ولا يبصر.

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ كناية عن الفرحة والسرور ، وكذلك ﴿الْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة.

المفردات اللغوية :

﴿هَوْناً﴾ الهون : اللين والرفق ، والمراد أنهم يمشون بسكينة وتواضع ووقار ، دون تكبر ولا تجبر. ﴿الْجاهِلُونَ﴾ السفهاء. ﴿سَلاماً﴾ أي تسليم متاركة بلا خير ولا شر ، أو سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. ﴿يَبِيتُونَ﴾ يدركون الليل ، ناموا أو لم يناموا. ﴿سُجَّداً﴾ جمع ساجد. ﴿وَقِياماً﴾ أي قائمين يصلون بالليل. وخصّ البيتوتة ؛ لأن العبادة بالليل أبعد عن الرياء ، وأكثر خشوعا وقربة إلى الله تعالى.

﴿غَراماً﴾ لازما لا يفارق ؛ لأنه عذاب دائم ، وهو إشارة إلى أنهم مع اجتهادهم في عبادة الحق خائفون من العذاب ، مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم ، لعدم اعتدادهم بأعمالهم. ﴿ساءَتْ﴾ بئست. ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ موضع استقرار وإقامة. والجملة تعليل لما سبق.

﴿أَنْفَقُوا﴾ على عيالهم وأنفسهم. ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ لم يجاوزوا الحدّ المعتاد ، ولم يضيقوا تضييق الشحيح ، والقتر والإقتار والتقتير : البخل. ﴿وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾ أي كان الإنفاق بين الإسراف والإقتار وسطا عدلا. وقرئ بكسر القاف أي ما يقام به الحاجة ، لا يفضل عنها ولا ينقص ، وهو ما يدوم عليه الأمر ويستقر.

﴿لا يَدْعُونَ﴾ لا يعبدون ولا يشركون. ﴿حَرَّمَ اللهُ﴾ أي حرّمها بمعنى حرّم قتلها. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ﴾ واحدا من الثلاثة. ﴿أَثاماً﴾ عقوبة وجزاء إثم في الآخرة ، والآثام : الإثم ، والمراد جزاؤه. ﴿يُضاعَفْ﴾ وفي قراءة : يضعّف ، وسبب مضاعفة العذاب انضمام المعصية إلى الكفر. ﴿مُهاناً﴾ ذليلا مستحقرا. ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ أي في الآخرة. ﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي ولم يزل متصفا بذلك ، فيعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات. ﴿وَمَنْ تابَ﴾ من ذنوبه أو معاصيه ، بتركها والندم عليها. ﴿وَعَمِلَ صالِحاً﴾ يتلافى به ما فرط. ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً﴾ يرجع إلى الله رجوعا مرضيا عند الله ، ماحيا للعقاب ، ومحصلا للثواب ، فيجازيه عليه. وهذا تعميم بعد تخصيص.

﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة أو الكاذبة ، و ﴿الزُّورَ﴾ الكذب والباطل ، والمقصود : لا يعينون أهل الباطل على باطلهم. ﴿بِاللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يلغى ويطرح

من الكلام القبيح وغيره. ﴿مَرُّوا كِراماً﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب.

﴿وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ أي وعظوا بالقرآن. ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها﴾ يسقطوا ، والخرور : السقوط على غير نظام ولا ترتيب. ﴿صُمًّا وَعُمْياناً﴾ المراد : لم يقيموا عليها غير واعين ولا متبصرين بما فيها ، كمن لا يسمع ولا يبصر ، بل أقبلوا عليها سامعين بآذان واعية ، مبصرين ناظرين منتفعين. ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لنا بأن نراهم مطيعين لك ، والمراد : الفرح والسرور بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل ، فإن المؤمن يسرّ قلبه بطاعة أهله وأولاده لربهم ، ليلحقوا به في الجنة. و ﴿مِنْ﴾ في قوله : ﴿مِنْ أَزْواجِنا ..﴾ ابتدائية أو بيانية. وتنكير الأعين للتعظيم ، والإتيان بجمع القلة في كلمة ﴿أَعْيُنٍ﴾ لأن المراد أعين المتقين ، وهي قليلة بالنسبة إلى عيون غيرهم. ﴿وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾ في الخير ، يقتدون بنا في أمر الدين ، بإفاضة العلم والتوفيق للعمل. وأفرده ، وأراد به الجمع ، أي أئمة يقتدى بهم في إقامة مراسم الدين ، لأنه يستعمل للمفرد والجمع.

﴿الْغُرْفَةَ﴾ كل بناء مرتفع عال ، والمراد الدرجة العليا في الجنة أو أعلى مواضع الجنة ، وهي اسم جنس أريد به الجمع ، لقوله تعالى : ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٣٧]. ﴿بِما صَبَرُوا﴾ بصبرهم على المشاق والقيام بطاعة الله. ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيها﴾ بالتشديد ، والتخفيف ، أي يلقون في الغرفة. ﴿تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ من الملائكة ، أي تحييهم الملائكة ويسلمون عليهم ، وهو دعاء بالتعمير والسلامة. أو يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه. ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ موضع استقرار وإقامة دائمة لهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ما يَعْبَؤُا بِكُمْ﴾ ما يعتدّ بكم ولا يبالي ولا يكترث ، و ﴿ما﴾ : نافية. ﴿لَوْ لا دُعاؤُكُمْ﴾ إياه في الشدائد ، فيكشفها ، أو عبادتكم له تعالى ، فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة ، وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي كيف يعبأ بكم وقد ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ الرسول والقرآن. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ أي سوف يكون العذاب وجزاء التكذيب ملازما لكم في الآخرة حتى يقذفكم في النار ، بعد ما يحلّ بكم في الدنيا ، فقتل منهم يوم بدر سبعون. وجواب ﴿لَوْ لا﴾ دلّ عليه ما قبله ، أي لو لا دعاؤكم لم يبال بكم.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٨):

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ﴾ : أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : سألت

رسول الله ﷺ ، أي الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل لله ندّا ، وهو خلقك» ، قلت : ثم أي؟ قال : «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» ، قلت : ثم أي؟ قال : «أن تزاني حليلة جارك» فأنزل الله تصديقها : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ الآية.

وأخرج الشيخان عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ ، فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؟ فنزلت : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ إلى قوله : ﴿غَفُوراً رَحِيماً﴾. ونزل : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر ٣٩ / ٥٣].

سبب نزول الآية (٧٠):

﴿إِلَّا مَنْ تابَ﴾ : أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : لما أنزلت في الفرقان : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ الآية ، قال مشركو أهل مكة : قد قتلنا النفس بغير حق ، ودعونا مع الله إلها آخر ، وأتينا الفواحش ، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ تابَ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ، وإعراض الكافرين عن السجود له ، بالرغم من اطلاعهم على دلائل التوحيد والقدرة الإلهية ، ذكر صفات المؤمنين عباد الرحمن التي استحقوا من أجلها أعلى منازل الجنان ، وأنه خصّ اسم العبودية بالمشتغلين بالعبادة ، مما يدل على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات ، فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره وقلبه ولسانه بما أمره ، فهو الذي يستحق اسم العبودية.

ووصفهم سبحانه بتسع صفات كما ذكر الرازي ، وقال القرطبي : وصف تعالى عباد الرحمن بإحدى عشرة صفة حميدة من التحلّي والتخلّي ، وهي : (التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والبعد عن الزنى والقتل ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسيء ، وقبول المواعظ ، والابتهال إلى الله).

ثم بيّن الله تعالى جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة التي هي الدرجة الرفيعة ، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا [١].

التفسير والبيان :

هذه صفات عباد الله المؤمنين عباد الرحمن الذين استحقوا أعلى الدرجات في الجنة ، وهي في الجملة تسع صفات :

١ ـ التواضع : ﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ أي وعباد الله المخلصين الربانيين الذين لهم الجزاء الحسن من ربهم هم الذين يمشون في سكينة ووقار ، من غير تجبر ولا استكبار ، يطؤون الأرض برفق ، ويعاملون الناس بلين ، لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا ، كما قال تعالى حاكيا وصية لقمان لابنه : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان ٣١ / ١٨].

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء ، وإنما بعزة وأنفة هي عزة المؤمن المتواضع لله وحده ، فقد كان النبي ﷺ سيد ولد آدم إذا مشى كأنما ينحطّ من صبب [٢] ، وكأنما الأرض تطوى له.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ٨٣.

(٢) أي كأنما ينحدر من مكان عال مرتفع.

وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شابا يمشي رويدا ، فقال : مالك أأنت مريض؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدّرة ، وأمره أن يمشي بقوة.

وإنما المراد بالهون هنا : السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ في الصحيحين عن أبي هريرة : «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا».

وروي أيضا أن عمر رضي الله عنه رأى غلاما يتبختر في مشيته ، فقال : إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : ﴿وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ فاقصد في مشيتك.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٣٧].

٢ ـ الحلم أو الكلام الطيب : ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا : سَلاماً﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء ، لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما ، وكما قال تعالى : ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٥]. قال النحاس : ليس ﴿سَلاماً﴾ من التسليم ، إنما هو من التسلّم ، تقول العرب : سلاما ، أي تسلّما منك ، أي براءة منك.

وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرّن المزني قال : قال رسول الله ﷺ . وسبّ رجل رجلا عنده ، فجعل المسبوب يقول : عليك السلام ـ : «أما إن ملكا بينكما يذبّ عنك ، كلما شتمك هذا ، قال له : بل أنت ، وأنت أحقّ به ، وإذا قلت له : وعليك السلام قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به».

وقوله : ﴿قالُوا : سَلاماً﴾ يعني قالوا سدادا ، أو ردوا معروفا من القول. وقال الحسن البصري : قالوا : سلام عليكم : إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون.

هاتان صفتان بينهم وبين الناس وهما ترك الإيذاء وتحمل الأذى ، ثم ذكر الله تعالى صفاتهم فيما بينه وبينهم فقال :

٣ ـ التهجد ليلا : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً﴾ أي أن سيرتهم في الليل كسيرتهم في النهار ، فنهارهم خير نهار ، وليلهم خير ليل ، فإذا أمسوا أو أدركوا الليل باتوا ساجدين قائمين لربهم ، يصلّون بعض الليل أو أكثره ، طائعين عابدين ، كما قال تعالى : ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات ٥١ / ١٧ ـ ١٨] ، وقال سبحانه : ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ [السجدة ٣٢ / ١٦] ، وقال عزّوجلّ : ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً ، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ، وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٩].

قال ابن عباس : من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء ، فقد بات لله ساجدا وقائما.

٤ ـ الخوف من عذاب الله : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ﴾ أي والذين يخافون ربّهم ويدعونه في وجل ، ويقولون في حذر : ربّنا أبعد عنا عذاب جهنّم وشدته ، كما قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا ، وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٦٠]. ثم ذكر تعالى أن علة سؤالهم ودعائهم شيئان :

الأول ـ ﴿إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً﴾ أي إن عذابا كان ملازما دائما للإنسان العاصي ، لزوم الدائن الغريم لمدينه ، أو هلاكا وخسرانا لازما.

الثاني . ﴿إِنَّهَا ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ أي إن جهنم بئس المنزل مستقرا ومنظرا يستقر فيه ، وبئس المقيل مقاما. وهذا أمر لا شك فيه يعلمه كل من اكتوى بشيء من نار الدنيا.

٥ . الاعتدال في الإنفاق : ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾ أي والذين إذا أنفقوا على أنفسهم أو عيالهم ليسوا بالمبذّرين في إنفاقهم ، فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا بالبخلاء ، فيقصرون في حقهم وفيما يجب عليهم ، بل ينفقون عدلا وسطا خيارا ، بقدر الحاجة ، وخير الأمور أوسطها ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٩] أي الوسطية في الاعتدال ، وترك الإسراف والتقتير.

وهذا أساس الاقتصاد وعماد الإنفاق في الإسلام ، روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : «من فقه الرجل قصده في معيشته». وروى الإمام أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «ما عال من اقتصد». وروى الحافظ أبو بكر البزّار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة».

فالتبذير سبب في ضياع مال الشخص ومال الأمة : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ﴾ [الإسراء ١٧ / ٢٧] ومن المعلوم أنه لا سرف في الخير ، ولا خير في السرف ، قال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوّجه ابنته فاطمة : ما نفقتك؟ فقال له عمر : الحسنة بين سيئتين ، ثم تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سرفا

ألا يشتهي شيئا إلا اشتراه فأكله. وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من السّرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

ثم ذكر الله تعالى صفات سلبية بعيدة عن المؤمنين ، وإنما هي من صفات المشركين والفاسقين فقال :

٦ ـ البعد عن الشرك والقتل والزنى : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِ﴾ أي والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر ، فيجعلون مع الله في عبادتهم شريكا آخر ، وإنما يخلصون له الطاعة والعبادة ، ولا يقتلون النفس عمدا إلا بحق ، كالكفر بعد الإيمان ، والزنى بعد الإحصان ، وقتل النفس بغير حق ، ويكون القتل بحكم الحاكم أو القاضي لا برأي شخصي ، ولا يزنون ، وهذه أعظم الجرائم : الشرك ، والقتل العمد العدوان ، والزنى ، والجريمة الأولى عدوان على الله ، والثانية عدوان على الإنسانية ، والثانية عدوان على الحقوق وانتهاك للأعراض.

فإذا جعلنا هذه الصفات ثلاثا ، صارت إحدى عشرة ، كما ذكر القرطبي. ثم توعد الله تعالى مرتكب هذه الجرائم فقال :

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ أي ومن يفعل واحدة من تلك الجرائم الثلاث ، يلق في الآخرة عقابا شديدا وجزاء إثمه وذنبه الذي ارتكبه ، بل يضاعف له العذاب ضعفين بسبب انضمام المعصية إلى الكفر ، ويخلد في نار جهنم أبدا مع الإهانة والإذلال والاحتقار ، وذلك عذابان : حسي ومعنوي.

ثم فتح الله تعالى باب التوبة للترغيب في الإصلاح والعودة إلى الاستقامة فقال : ﴿إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً ، فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي لكن من تاب في الدنيا إلى الله عزّ وجلّ عن جميع ذلك بأن أقلع عن

الذنب ، وندم على المعصية ، وكان مؤمنا مصدقا بالله ورسله واليوم الآخر ، وعمل الصالحات ، فأولئك يمحو الله عنهم بالتوبة السيئات ، ويبدلهم مكانها حسنات بإثبات لواحق الطاعة ، أو تنقلب تلك السيئات الماضية بنفس التوبة حسنات. روى أبو ذر عن النبي ﷺ : «إن السيئات تبدل بحسنات» وروى أحمد والترمذي والبيهقي عن معاذ أن النبي ﷺ قال : «أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن» وهذا الحديث مؤكد لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود ١١ / ١١٤].

والخلاصة : في معنى قوله ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾ قولان [١] :

القول الأول ـ أنهم بدّلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا ، وبالكفر إسلاما. أي أن التبديل يكون في الدنيا ، وأثره في الآخرة.

والقول الثاني ـ أن تلك السيئات تنقلب بالتوبة النصوح نفسها حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم ، واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، أي أن التبديل يكون في الآخرة.

والظاهر القول الأول ، وأن التوبة تجبّ ما قبلها ، وتفتح للتائب صفحة جديدة ، فيثاب على الأعمال الصالحة ، ويعاقب على السيئات ، كغيره من المؤمنين.

﴿وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتاباً﴾ أي ومن تاب عن معاصيه ، وعمل الأعمال الصالحة ، فإن الله يقبل توبته ، لأنه رجع إلى الله رجوعا مرضيا عند الله ، فيمحو عنه العقاب ، ويجزل له الثواب.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٤ / ١١٢ ، تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٢٧.

وهذا تعميم لقبول التوبة عن جميع المعاصي ، بعد تخصيص قبولها ممن تاب عن كبائر المعاصي السابقة التي هي الشرك والقتل العمد والزنى.

وللآية نظائر كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ [التوبة ٩ / ١٠٤] وقوله سبحانه : ﴿قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر ٣٩ / ٥٣].

٧ ـ البعد عن شهادة الزور أو تجنب الكذب : ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ أي الذين لا يشهدون شهادة الزور وهي الكذب متعمدا على غيره ، أو لا يحضرون مواضع الكذب ، قال ابن كثير : والأظهر من السياق أن المراد لا يحضرون الزور ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ أي لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مرّوا ، ولم يتدنسوا منه بشيء. ونظير الآية : ﴿وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقالُوا : لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٥].

والواقع أن الآية تدل على أمرين : تحريم شهادة الزور وتجنب مجالس اللغو أو العفو عن المسيء ، ويستدل بها الفقهاء على الأمر الأول ، كما ورد في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثا ، قلنا : بلى ، يا رسول الله ، قال : «الشرك بالله ، وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس فقال : «ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور» فما يزال يكررها حتى قلنا : ليته سكت. وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخّم وجهه (يطليه بالسواد) ويحلق رأسه ، ويطوّف به السوق.

٨ ـ قبول المواعظ : ﴿وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً﴾ أي والذين إذا ذكّروا بالآيات ، أكبّوا عليها حرصا على استماعها ،

وأقبلوا على من ذكّرهم بها بآذان صاغية واعية ، وعيون مبصرة متفتحة ، وقلوب مستوعبة ، لا كالكفار والمنافقين والعصاة من المؤمنين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ، ولم يغيروا ما هم عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم ، وجهلهم وطغيانهم ، كأنهم صمّ عمي ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٤ ـ ١٢٥].

٩ ـ الابتهال إلى الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً﴾ أي والذين يبتهلون إلى ربّهم داعين الله أن يرزقهم زوجات صالحات وأولادا مؤمنين صالحين مهديين للإسلام يعملون الخير ، ويبتعدون عن الشر ، تقرّ بهم أعينهم ، وتسرّ بهم نفوسهم ، فإن المؤمن إذا رأى من يعمل بطاعة الله قرّت عينه ، وسرّ قلبه في الدنيا والآخرة. ويدعونه أيضا أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير واتباع أوامر الدين.

وبذلك أحبوا أن تتصل عبادتهم بعبادة زوجاتهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع فهم دعاة خير وبر ، وذلك أكثر ثوابا ، وأحسن مآبا. روى مسلم في صحيحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

قال بعضهم : في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها ، قال إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.

ثم ذكر الله تعالى جزاء المتصفين بتلك الصفات الإحدى عشرة فقال :

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، والأقوال والأفعال الحميدة يجزون يوم القيامة الغرفة أي الغرفات لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ ٣٤ / ٣٧] وهي المنازل العالية ، والدرجات الرفيعة في الجنان ، بصبرهم على القيام بها ، ويلقّون في الجنة تحية وسلاما ، أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويعاملون بالتوقير والاحترام ، فلهم السلام و ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٣ ـ ٢٤]. ودلّ قوله : ﴿بِما صَبَرْتُمْ﴾ على أن الجنة بالاستحقاق.

ومفاد الآية أن الطائعين في نعيم الجنة مع التعظيم والاحترام ، على عكس العصاة الذين يضاعف لهم العذاب ، مع الإهانة والاحتقار.

﴿خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ أي إن نعيمهم دائم لا ينقطع ، فهم مقيمون في الجنان ، إقامة مستمرة لا يحوّلون ، ولا يموتون ولا يزولون عنها ، ولا يبغون عنها حولا ، حسنت منظرا ، وطابت مقيلا ومنزلا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ ، إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود ١١ / ١٠٨].

والخلاصة : أن الله وعد عباد الرحمن بالمنافع الجلي في الجنة أولا ، وبالتعظيم ثانيا ، ثم بيّن أن صفتهما الدوام : ﴿خالِدِينَ فِيها﴾ ، والخلوص أيضا ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾.

﴿قُلْ : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ﴾ أي إن الله غني عن عباده ، وإنما كلفهم لينتفعوا ، وعذبهم لعصيانهم ، فلا يبالي بهم ولا يكترث إذا لم يؤمنوا به ولم يعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا ، كما قال سبحانه : ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً﴾ أي أنكم أيها الكافرون والعصاة إذا كذبتم رسلي ، ولم تؤمنوا بلقائي ، فسوف يكون تكذيبكم سببا ملازما ومؤديا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾ [هود ١١ / ١٠٦ ـ ١٠٧]. واللّزام : الملازمة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه هي صفات عباد الرحمن ، وهي إحدى عشرة صفة ، يستحق بها أهلها المنازل العالية في الجنان.

الصفة الأولى :

التواضع والطاعة لله تعالى : ويكون ذلك بالعلم بالله والخوف منه ، والمعرفة بأحكامه ، والخشية من عذابه وعقابه.

الصفة الثانية :

الحلم والكلام الطيب : فإذا أوذوا قابلوا الإساءة بالإحسان ، قال الحسن البصري : «حلماء ، إن جهل عليهم لم يجهلوا» أي على نقيض خلق الجاهلية : «ونجهل فوق جهل الجاهلين» وإنما يقول المؤمن للجاهل كلاما موصوفا بالرفق واللين.

الصفة الثالثة :

التهجّد ليلا : أي العبادة الخالصة لله تعالى في جوف الليل ، فإنها أكثر خشوعا ، وأضبط معنى ، وأبعد عن الرياء.

الصفة الرابعة :

الخوف من عذاب الله تعالى : أي أنهم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله ، سواء في سجودهم وقيامهم ؛ لأن عذاب جهنم لازم دائم غير مفارق ، وبئس المستقر ، وبئس المقام ، وهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا قالوه عن علم ، كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجاح.

الصفة الخامسة :

الاعتدال في الإنفاق دون إسراف ولا تقتير ، والمراد من النفقة نفقة الطاعات في المباحات ، فهذه يطالب فيها الإنسان ألا يفرط فيها حتى يضيع حقا آخر أو عيالا ، وألا يضيق أيضا ويقتر ، حتى يجيع العيال ، ويفرط في الشح ، والحسن في ذلك هو القوام ، أي العدل ، والقوام في كل واحد بحسب حاله وعياله ، وصبره وجلده على الكسب ، وخير الأمور أوساطها ، وهذه الوسطية خير للإنسان في دينه وصحته ودنياه وآخرته.

أما النفقة في معصية الله فهو محظور حظرته الشريعة قليلا كان أو كثيرا ، وكذلك التعدي على مال الغير ، هو حرام أيضا.

الصفة السادسة :

البعد عن الشرك : وهو عبادة أحد مع الله أو عبادة غير الله ، وهو أكبر الجرائم ، لذا قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ٤٨].

الصفة السابعة :

الابتعاد عن القتل العمد : وهو إزهاق النفس الإنسانية عمدا دون حق ، وهو اعتداء على صنع الله ، وإهدار لحق الحياة الذي هو أقدس حقوق الإنسان.

أما القتل بحق كالقتل بسبب الردة أو زنى المحصن أو القصاص فجائز من قبل الحاكم.

الصفة الثامنة :

اجتناب الزنى : وهو انتهاك حرمة العرض ، وهو جريمة خطيرة تؤدي إلى اختلاط الأنساب ، وإشاعة الأمراض ، وهدم الحقوق ، وإثارة العداوات والأحقاد والبغضاء.

ومن يرتكب هذه الجرائم العظمى (الشرك ، والقتل ، والزنى) يضاعف له العذاب في نار جهنم ، ويكون مخلّدا فيها ذليلا خاسئا مبعدا مطرودا من رحمة الله تعالى.

لكن إذا تاب الكافر والقاتل والزاني تقبل توبته ، ويبدل الله سيئته حسنة إما في الدنيا على رأي ، بأن يجعل الإيمان محل الشرك ، والإخلاص محل الشك ، والإحصان مكان الفجور ، وإما في الآخرة على رأي آخر فيمن غلبت حسناته على سيئاته. وقيل : التبديل عبارة عن الغفران ، أي يغفر الله لهم تلك السيئات ، لا أن يبدلها حسنات.

ثم أكّد الله قبول التوبة الصادقة النصوح من كل إنسان.

الصفة التاسعة :

تجنب الكذب والباطل وشهادة الزور ، فلا يحضر المسلم مجالس اللغو والكذب والغناء واللهو ونحوها ، ولا يؤدي شهادة الزور مهما كانت البواعث والأسباب ؛ لأنها محرمة لذاتها. لذا قال أكثر أهل العلم : ولا تقبل له شهادة أبدا ، وإن تاب وحسنت حاله ، فأمره إلى الله تعالى.

الصفة العاشرة :

قبول المواعظ : فإذا قرئ القرآن عليهم ذكروا آخرتهم ومعادهم ، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع.

الصفة الحادية عشرة :

الابتهال إلى الله بجعل توابع الإنسان من أزواج وذريات هداة مهديين مطيعين لله ، تقرّ النفوس بهم ، وتثلج الصدور بسيرتهم العطرة ، وأن يكونوا أئمة وقدوة يقتدى بهم في الخير ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الداعي تقيا صالحا.

وهذا يدل على جواز الدعاء بالولد ، وللولد وللزوجة ، وبأن يكون نفع الإنسان شاملا غيره.

وجزاؤهم الدرجات العليا في غرفات الجنان ، مع التوقير والاحترام ، بالتحية والسلام ، والخلود الدائم ، والتمتع بحسن المقام والمنظر والاستقرار.

ونفع الطاعة للعباد لا لله ، فالله غني عن عباده ، فلو لا عبادتهم وكثرة استغاثتهم إليه في الشدائد ونحوها ، لما ب إلى الله بهم ولا اكترث بشأنهم. فإن كذبوا بما دعوا إليه من الإيمان وعبادة الله كان تكذيبهم ملازما لهم ، وجزاء التكذيب دائم لا مفرّ منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

مكية ، وهي مائتان وسبع وعشرون آية.

تسميتها :

سميت (سورة الشعراء) لما ختمت به من المقارنة بين الشعراء الضالين والشعراء المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى قوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [٢٢٤ ـ ٢٢٦] بقصد الرد على المشركين الذين زعموا أن محمدا ﷺ كان شاعرا ، وأن ما جاء به من قبيل الشعر.

مناسبتها لما قبلها :

تتضح مناسبة هذه السورة لسورة الفرقان في الموضوع والبداية والنهاية.

أما الموضوع : ففيها تفصيل لما أجمل في الفرقان من قصص الأنبياء بحسب ترتيبها المذكور في تلك السورة ، فبدأ بقصة موسى ، وهذا سر لطيف يجمع بين السورتين. وكان في الفرقان إشارة إلى قرون بين ذلك كثيرة ، ففصلت هنا قصة إبراهيم ، وقوم شعيب ، وقوم لوط.

وأما البداية : فقد بدئت كلتا السورتين بتمجيد القرآن العظيم : ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ .. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾.

وأما النهاية : فإن خاتمة كلتا السورتين متشابهة ، فقد ختمت الفرقان بوعيد المكذبين ، ووصف المؤمنين بأنهم يقولون : ﴿سَلاماً﴾ للجاهلين ، وأنهم

يمرون مر الكرام باللغو ، وختمت الشعراء بتهديد الظالمين المكذبين ، والرضا عن الشعراء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويذكرون الله كثيرا ، وينتصرون ممن ظلمهم.

مشتملاتها :

تضمنت هذه السورة كسائر السور المكية الكلام عن أصول الاعتقاد والإيمان من إثبات «التوحيد ، والرسالة النبوية ، والبعث» لذا كانت آياتها قصارا للزجر والردع وشدة التأثير.

وابتدأت الكلام عن القرآن الكريم وبيان هدفه في الهداية ، وتبشير المؤمنين الصالحين بالجنة ، وإنذار الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة بسوء العذاب ، وإثبات إنزال القرآن وحيا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وتسليته عن إعراض قومه عن الإيمان برسالته ، والاستدلال بخلق النباتات على وجود الله وتوحيده.

ثم أوردت قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم لعظة المكذبين ، مبتدئة بقصة موسى ومعجزاته ، ومحاورته مع فرعون الجبار وقومه في شأن توحيد الله ، وتأييده بالآيات البيّنات ، وإيمان السحرة برب موسى وهارون ، ثم تلتها قصة إبراهيم الخليل مع أبيه وقومه عبدة الأوثان ، وإبطاله عبادتها ، وإثباته وحدانية الله عزّ وجلّ .

ثم جاء بعدها قصص «نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب» عليهم السلام وما فيها من حملاتهم العنيفة ضد الوثنية ، والفساد الخلقي والاجتماعي ، وبيان عاقبة التكذيب للرسل ، ونهاية الجبابرة العتاة بأنواع رهيبة من العذاب.

وأعقب ذلك جعل الخاتمة كبدء السورة بإثبات كون القرآن العظيم وحيا وتنزيلا من رب العالمين لا من كلام الشياطين ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من الله لتبليغ رسالته إلى عشيرته والأمم جميعا ، ليس بكاهن ولا شاعر ، وأنه من سلالة

الموحدين ، وبراءته من أفعال المشركين ، والرد على افترائهم وزعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين التي تتنزل على كل أفّاك أثيم ، وإعلامهم بأن الغاوين الضالين هم أتباع الشعراء ، وليسوا المؤمنين الصلحاء المجاهدين.

فضلها :

ورد في فضل هذه السورة خبران : الأول عن ابن عباس ، والثاني عن البراء.

- روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذّكر الأول ، وأعطيت طه ، وطسم من ألواح موسى ، وأعطيت فواتح القرآن ، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، وأعطيت المفصّل نافلة».

- وروى البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال : «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المبين مكان الإنجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصّل ، ما قرأهن نبي قبلي» [١].

تكذيب المشركين بالقرآن وإنذارهم وإثبات وحدانية الله

﴿طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (٤) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ٨٧.

(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾

الإعراب :

﴿فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ فَظَلَّتْ﴾ في موضع جزم بالعطف على ﴿نُنَزِّلْ﴾. و ﴿أَعْناقُهُمْ﴾ : اسمها ، و ﴿خاضِعِينَ﴾ : خبرها.

وإنما قال ﴿خاضِعِينَ﴾ لأنه أراد بالأعناق الرؤساء ، أي فظلت الرؤساء خاضعين لها ، أو بتقدير مضاف محذوف ، أي فظلت أصحاب الأعناق.

البلاغة :

﴿فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾ كناية عن الذل والهوان الذي يلحقهم.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ وعيد وتهديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ استفهام للتوبيخ على إهمال النظر في دلائل وجود الله وتوحيده.

المفردات اللغوية :

﴿طسم﴾ تقرأ طا ، سين ، ميم ، مع إدغام السين في الميم والمراد بهذه الأحرف الهجائية كما بينا سابقا الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وتحدي العرب بالإتيان بمثله ، مع أنه مركب من الحروف الهجائية التي تتركب منها لغتهم ، وينطق بها كل عربي ، وهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة. وعليه ، فهي حروف تنبيه مثل ألا ونحوها ، ويا للنداء.

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه الآيات في هذه السورة ، أو آيات القرآن كله ، هي آيات القرآن الظاهر إعجازه وصحته ، والمظهر الحق من الباطل ، وإضافة ﴿آياتُ﴾ إلى ﴿الْكِتابِ﴾ بمعنى من ﴿لَعَلَّكَ﴾ يا محمد ، ولعل : هنا يراد بها الاستفهام المقصود به الإنكار والإشفاق ، أي أشفق على نفسك بتخفيف هذا الغم. ﴿باخِعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتلها أو مهلكها غما وحزنا. ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي من أجل عدم إيمان قومك أهل مكة. وأصل البخع : أن يبلغ بالذّبح البخاع : وهو عرق في فقرات الرقبة ، مبالغة في الذبح. ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان ، أو بلية قاسرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ﴾ بمعنى المضارع ، أي تظل

وتدوم. ﴿أَعْناقُهُمْ﴾ أي أصحابها ، كما يكنى عن النفس بالوجه ، ولما وصفت الأعناق بصفات العقلاء وهو الخضوع أجريت مجراهم ، وجمعت الصفة جمع العقلاء وهي : خاضعين ، أي منقادين ، وأصل الكلام : فظلوا لها خاضعين.

﴿ذِكْرٍ﴾ تذكير وموعظة ، وهو القرآن. ﴿مِنَ الرَّحْمنِ﴾ بوحيه إلى نبيه. ﴿مُحْدَثٍ﴾ مجدّد إنزاله ؛ لتكرار التذكير وتنويع التقرير. ﴿إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضا عنه وإصرارا على ما كانوا عليه ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ به أي بالذكر بعد إعراضهم ، وأمعنوا في تكذيبه ، بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي سيحل بهم العذاب إما في الدنيا كيوم بدر ، وإما يوم القيامة. ﴿أَنْبؤُا﴾ عواقب. ﴿ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ من أنه كان حقا أم باطلا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها. ﴿كَمْ أَنْبَتْنا﴾ أي كثيرا. ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صنف محمود كثير المنفعة ، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضي. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف. ﴿لَآيَةً﴾ دلالة على أن منبتها تام القدرة والحكمة ، سابغ النعمة والرحمة. ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في علم الله تعالى ، فلا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام. ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة الغالب القادر على الانتقام من الكفرة. ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم. أو العزيز في انتقامه ممن كفر ، الرحيم لمن تاب وآمن.

التفسير والبيان :

﴿طسم ، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذا القرآن مكون من أحرف عربية ، مثل الطاء والسين والميم ، يقصد بها تحدي العرب به ليأتوا مثله ، فإذا عجزوا دل على أنه كلام الله الموحى به إلى نبيه. وهذه آيات القرآن البيّن الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد.

﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أأنت يا محمد مهلك نفسك حزنا وأسفا على عدم إيمان قومك برسالتك؟! وهذه تسلية من الله لرسوله في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ٨] وقال سبحانه : ﴿فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف ١٨ / ٦].

﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً ، فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾ أي إن الله قادر على كل شيء ، فلو نشاء لأنزلنا عليهم من السماء آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، وتقسرهم عليه ، فتصبح رقابهم خاضعة ذليلة منقادة لما نريد ، أو يصبح كبراؤهم ورؤساؤهم منقادين ، ولكنا لا نفعل ذلك ؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان عن اختيار وطواعية ورضا ، لا بالقسر والإكراه ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٩] وقال عزّوجلّ : ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً﴾ [هود ١١ / ١١٨]. وأوضحت سنتنا إرسال الرسل إلى البشر ، وإنزال الكتب عليهم ، ليؤمنوا عن بيّنة واقتناع.

لكن الكفار ممعنون في الكفر ، موغلون في الضلال ، معاندون معرضون ، فقال : ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، وما الهدف من تجديد إنزال الكتب الإلهية إلا تكرار التذكير ، وتنويع البيان ، للتأمل وإعمال الفكر ، والهداية والإصلاح ، غير أنه كلما جدد الله لهم موعظة وتذكيرا جددوا إعراضا وتكذيبا كما قال :

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا ، فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي فقد كذب أولئك المشركون بما جاءهم من الذّكر والحق ، ثم بادروا إلى الاستهزاء ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب والاستهزاء في المستقبل ، كما قال تعالى : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص ٣٨ / ٨٨] وقال : ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [يس ٣٦ / ٣٠].

ثم إنهم أعرضوا عن التفكير في آيات الله الكونية وآثاره المشاهدة فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي أولم ينظروا إلى

الأرض التي خلقها الله ، وأنبت فيها من كل صنف كثير النفع من الزروع والثمار ، فيستدلوا بذلك على عظمة سلطان الله ، وباهر قدرته ، فهو موجود واحد قادر على كل شيء من هداية القوم وغيرها.

والجمع بين ﴿كَمْ﴾ و ﴿كُلِ﴾ لدلالة ﴿كُلِ﴾ على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، ودلالة ﴿كَمْ﴾ على أن هذا المحيط متكاثر ، فجمع بين الكثرة والإحاطة.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي في ذلك الإنبات لدلالة على قدرة الخالق للأشياء ، وقدرته على البعث والإحياء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره ، وارتكبوا نهيه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك أيها الرسول لهو القادر على كل ما يريد ، القاهر الغالب الذي قهر كل شيء وغلبه ، الرحيم بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل يمهله ويؤجله ، لعله يرجع عن غيه ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن القرآن الكريم كلام الله المعجز الواضح الجلي الذي أبان الحق وزيّف الباطل ، وقرر الأحكام ، ودعا إلى الهدى والرشاد.

٢ ـ لا حاجة بك أيها النبي إلى الإسراف في الأسى والحزن على تكذيب القوم وإعراضهم عن رسالتك ، وعدم إيمانهم بالقرآن ودعوة الإسلام.

٣ ـ إن الله جلت قدرته قادر على إنزال معجزة ظاهرة تجبرهم على الإيمان ، ولكنه لم يفعل ؛ لأن سنته وحكمته اقتضت جعل الإيمان اختياريا لا قسر فيه ولا

إكراه : ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٦].

٤ ـ بالرغم من تجدد المواعظ والمذكّرات فإن المشركين أعرضوا عن الهدى ، وكذبوا بالمنزل على الأنبياء ، فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا ، والذي استهزءوا به.

ويلاحظ أنه تعالى وصف الكفار بالإعراض عن القرآن المنزل أولا ، وبالتكذيب ثانيا ، والإنكار إلى درجة الاستهزاء ثالثا.

٥ ـ احتجت المعتزلة بقوله تعالى : ﴿مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ﴾ على خلق القرآن فقالوا : الذكر هو القرآن ، لقوله تعالى : ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٥٠] وبيّن في هذه الآية أن الذكر محدث ، فيلزم منه أن القرآن محدث ، والجواب : أن الحدوث إنما هو لهذه الألفاظ المتلوة بالوحي الحاصل ، أما أصل القرآن الذي هو كلام الله فهو قديم قدم الله تعالى.

٦ ـ نبّه الله تعالى بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ ..﴾ على عظمته وقدرته ، وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم ، لعلموا أن الله هو الذي يستحق أن يعبد ، إذ هو القادر على كل شيء ، لذا قال : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدليلا واضحا على أن الله قادر ، ولكن ، وما أكثر الناس بمصدقين ، لما سبق من علمي فيهم ، وإن الله هو المنيع المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه.

القصة الأولى

قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه

-١-

امتنان فرعون على موسى بتربيته

﴿وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (١٧) قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (١٩) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (٢٢)﴾

الإعراب :

﴿وَإِذْ نادى إِذْ﴾ : ظرف منصوب متعلق بفعل مقدر ، تقديره : واتل عليهم إذ نادى.

﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب ؛ لأنه يتعلق بمحذوف في موضع الحال ، تقديره : فأرسلني مضموما إلى هارون.

﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ قال ﴿رَسُولُ﴾ بالإفراد ، لأنه أراد بالرسول الجنس ، فوحّد ، أو أن يكون ﴿رَسُولُ﴾ بمعنى رسالة ، أي إنا ذوا رسالة ربّ العالمين ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا ..﴾ أي بأن أرسل معنا ، فحذف حرف الجر ، وهي تحذف معها كثيرا.

﴿أَنْ عَبَّدْتَ﴾ إما بدل مرفوع من ﴿نِعْمَةٌ﴾ وإما منصوب بتقدير : لأن عبدت ، ثم حذف حرف الجر ، لطول الكلام بصلة ﴿أَنْ﴾ طلبا للتخفيف.

البلاغة :

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾ بينهما مقابلة.

﴿رَسُولُ أَرْسِلْ﴾ جناس اشتقاق.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ جناس ناقص ، لاختلاف الشكل واتحاد الحروف.

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ ..﴾ إيجاز بالحذف ، تقديره : فأتيا فرعون فقالا له ذلك ، فقال لموسى : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾.

﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ كذلك إيجاز بالحذف ، أي فأرسل جبريل إلى هارون واجعله نبيا يؤازرني ويعاضدني.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ نادى﴾ متعلق بفعل مقدر ، أي اذكر أو اتل يا محمد لقومك. ﴿إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى﴾ ليلة رأى النار والشجرة. ﴿أَنِ ائْتِ﴾ بأن ائت رسولا. ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿الْقَوْمَ﴾ الأول أو عطف بيان له. ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ الله بطاعته ، فيوحدوه ، والاستفهام إنكاري ، وهو استئناف أتبعه إرساله إليهم للإنذار ، تعجيبا له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه ، وفيه مزيد الحثّ على التقوى. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم لي. ﴿وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾ بأداء الرسالة ، للعقدة التي فيه. ﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ أي أرسل جبريل إلى أخي هارون معي ، ليكون نبيا. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ لهم علي تبعة ذنب ، فحذف المضاف ، والمراد قتل القبطي ، وإنما سماه ذنبا على زعمهم. ﴿فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به ، وكان القتل قبل أداء الرسالة.

﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وردع ، أي ثق بالله ، ولا تخف منهم ، فلا يقتلونك. ﴿فَاذْهَبا﴾ أنت وأخوك ، فيه تغليب الحاضر على الغائب ، وهو معطوف على الفعل الذي دلّ عليه ﴿كَلَّا﴾ كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن ، فاذهب أنت والذي طلبته ليكون معك نبيا وهو هارون.

﴿بِآياتِنا﴾ معجزاتنا. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني موسى وهارون وفرعون ، أو أجريا مجرى الجماعة. ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ ما تقولون وما يقال لكم وما يجري بينكما وبينه ، فأجعل لكما الغلبة عليه.

﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ أي إن كلّا منا رسول من الله إليك ، أو أراد به الجنس أو ضمنه معنى الإرسال والرسالة. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا﴾ أي بأن أرسل معنا إلى الشام ، ﴿قالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا﴾ أي فأتياه فقالا له ما ذكر ، فقال فرعون لموسى : ألم نكن ربّيناك في منازلنا. ﴿وَلِيداً﴾ طفلا صغيرا ، سمي بذلك لقربه من الولادة بعد فطامه. ﴿وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أي ثلاثين سنة ، يلبس من ملابس فرعون ، ويركب من مراكبه ، وكان يسمى ابنه. ثم خرج إلى مدين عشر سنين ، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين ، ثم بقي بعد الإغراق لفرعون وقومه خمسين. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قتل القبطي ، وبّخه به معظما إياه ، بعد ما عدّد عليه نعمته. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾ الجاحدين لنعمتي عليك بالتربية وعدم الاستعباد. وهو حال من تاء ﴿فَعَلْتَ﴾.

﴿قالَ : فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي قال موسى : فعلتها حينئذ وأنا من المخطئين أو من الجاهلين ، قبل أن يؤتيني الله العلم والرسالة ، لأنه لم يتعمد قتله. ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾ خرجت من بينكم إلى مدين. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ حكمة وعلما. ﴿تَمُنُّها﴾ تمنّ بها ، أي وتلك التربية نعمة تمتن علي بها ظاهرا ، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وذبح أبنائهم ، أي اتخذتهم عبيدا ، ولم تستعبدني ، لا نعمة لك بذلك لظلمك باستعبادهم. وقدر بعضهم أول الكلام همزة استفهام للإنكار ، أي أو تلك نعمة تمنها علي وهي أن عبدت؟ والمعنى : تعبيدك بني إسرائيل نعمة تمنها علي ، وأنك لم تستعبدني.

المناسبة :

هذه القصة التي ترددت في القرآن كثيرا في سور عديدة [1] يراد من ذكرها هنا تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من قومه من صدود وإعراض وتكذيب ، فبعد أن ذكر الله تعالى تكذيب المشركين برسالته وإنذارهم وإثبات وحدانية الله لهم بإنبات النبات ، ذكر قصة موسى مع فرعون وقومه الذين كذبوه مع إثبات نبوته بالمعجزات البينات ، ولما لم تغن الآيات والنذر ، حاق بالمكذبين سوء العذاب ، وأغرقهم الله في اليم ، جزاء جحودهم وتكذيبهم.

---

(١) ذكرت قصة موسى في البقرة ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، وطه ، والشعراء ، والنمل ، والقصص ، وغافر (المؤمن) ، والسجدة (فصلت) ، والنازعات ، بأساليب مختلفة.

التفسير والبيان :

يبدأ الله تعالى القصة من بدء بعثة موسى بن عمران عليه السلام وتكليم ربّه له ومناجاته إياه من جانب الطور الأيمن ، فيقول :

﴿وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظّالِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ أي ، اذكر يا محمد لقومك حين نادى الله موسى من جانب الطور الأيمن بالوادي المقدس طوى ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه القوم الظالمين أنفسهم بالشرك واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم ، فيدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وتخلّيهم عن فكرة تأليه فرعون.

وقال الله لموسى تعجيبا من حالهم : ألا يتقونني ، ألا يخافون بطشي وانتقامي في الآخرة ، ويحذرون عصياني وعذابي على كفرهم وبغيهم. وقوله : ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ كلام مستأنف ، أتبعه تعالى إرساله إليهم للإنذار وتسجيل الظلم عليهم ، وأمنهم العواقب وقلة خوفهم.

والنداء الذي سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هو كلام الله القديم المنزه عن مشابهة الحروف والأصوات ، مع أنه مسموع ، على رأي أبي الحسن الأشعري. وقال أبو منصور الماتريدي : الذي سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات [1].

﴿قالَ : رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي﴾ أي قال موسى مجيبا ربّه : يا ربّ ، إني أخشى تكذيبهم لي ، فأحزن ويضيق صدري تأثرا وتألما بما يعملون ، ولا ينطلق لساني بما يجب علي من أداء الرسالة ، بل أتلعثم ، وأخي هارون أفصح مني لسانا ، وأقوى بنيانا.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٤ / ١٢١

﴿فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ﴾ أي فاجعل هارون نبيا مثلي ، أو أرسل جبريل عليه‌السلام له بالوحي ليكون معي نبيا ورسولا ، يؤازرني ويعاضدني ، فتتحقق أعباء الرسالة على الوجه الأكمل.

وسبب آخر هو :

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي ولهم آل القبط علي تبعة جرم بقتل قبطي خطأ قبل الرسالة أدى إلى خروجي من مصر ، فأخاف إن كنت وحدي أن يقتلوني بسبب ذلك ، وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة ، وأما هارون فليس متهما بشيء ، فيتحقق المقصود من البعثة. وهذا إيماء إلى أن الخوف قد يطرأ على الأنبياء كما يطرأ على غيرهم من البشر ، وقد وقع مثل هذا لنبينا ، حتى طمأنه الله بقوله : ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٥ / ٦٧].

والخلاصة : هذه أعذار سأل الله إزاحتها عنه ، وأسباب لبعثة هارون معه إلى فرعون وقومه ، بدأ بخوف التكذيب من فرعون وملئه ، ثم ثنّى بضيق الصدر تأثرا وتألما ، ثم ثلّث بعدم انطلاق اللسان ، وأما هارون فهو أفصح لسانا ، وأهدأ بالا ، ثم ربّع بوجود تبعة الذنب وهو جرم القتل خطأ قبل النبوة ، فخاف أن يبادروا إلى قتله ، فيفوت أداء الرسالة ونشرها. ويجمع مطالبه أمران : طلب دفع السوء أو الشر أو التقصير عنه ، وإرسال هارون معه.

فأجابه الله إليها فقال :

﴿قالَ : كَلَّا ، فَاذْهَبا بِآياتِنا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أي قال الله له : ارتدع يا موسى عما تظن ، ولا تخف من شيء ، فإنهم لا يقدرون على قتلك ، وأجابه إلى المطلب الثاني بقوله : ﴿فَاذْهَبا﴾ أي اذهب أنت وأخوك الذي طلبته وهو هارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ومعجزاتنا الدالة على صدقكما ، وأنا ناصركما ومعينكما ، كما قال تعالى : ﴿لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه ٢٠ / ٤٦] أي إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي ، وقوله : ﴿إِنَّا﴾ يريد

نفسه تعالى ، وقوله : ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون ، وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما ، وأنه يعينهما ويحفظهما.

﴿فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي فاذهبا إلى فرعون ، فقولا له بلين ورفق : إننا رسولا ربّ العالمين أرسلنا الله لك ولقومك أي أرسل كلا منا إليك ، فأطلق حرية بني إسرائيل ، ليعبدوا ربّهم في أرض الله الواسعة ، ويعودوا معنا إلى الأرض المقدسة : فلسطين.

وجاء لفظ الرسول هنا مفردا ، وفي آية أخرى مثنى ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ [طه ٢٠ / ٤٧] لأن الرسول يطلق على الواحد وغيره ، لأنه اسم جنس ، أو لأنه بمعنى الرسالة ، أي إنا ذوا رسالة ربّ العالمين ، أو لأنهما على شريعة واحدة وإخوة كأنهما رسول واحد ، أو كل واحد منا رسول.

فأعرض عنهما فرعون ، ونظر إلى موسى وأجابه بازدراء وتقريع معاتبا إياه بأمرين :

الأول :

﴿قالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً ، وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾؟ أي في الكلام حذف ، وهو أنهما أتياه وقالا ما أمر الله به ، فعند ذلك قال فرعون : ما هذا هو المؤمل منك ، أأنت الذي ربيناك صغيرا في بيوتنا وعلى فراشنا ، ولم نقتلك من جملة من قتلنا ، وأنعمنا عليك مدة من السنين. قيل : لبث عندهم ثلاثين سنة. ثم تقابل الإحسان بكفر النعمة ، وتبادرنا بما تقول؟ ومتى كان هذا الذي تدعيه؟

الثاني :

﴿**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ**﴾ أي وقتلت أيضا رجلا منا ، وهو ذلك القبطي الذي وكزته فقضيت عليه ، وهو من أتباعي ، فإنه كان خباز فرعون ، وكنت من جاحدي النعمة ، وهذا لا يليق في أخلاق الرجال من الوفاء وردّ الجميل.

فأجاب موسى عن قضية القتل ، وترك أمر التربية المعلومة الظاهرة والتي لم ينكرها موسى ، لأن الرسول مطالب بتبليغ الرسالة سواء كان المرسل عليه أنعم عليه أم لا ، والإعراض عن مثل هذا الكلام أولى ، إذ لا مكابرة فيه.

﴿**قالَ : فَعَلْتُها إِذاً ، وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾ أي قال موسى لفرعون : فعلت تلك الفعلة السيئة وهي قتل القبطي في تلك الحال ، وأنا من المخطئين لا المتعمدين قبل أن يوحى إلي وينعم الله علي بالرسالة والنبوة كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل ، أو : وأنا من الجاهلين بأن ضربتي تؤدي إلى القتل ، فإني تعمدت الوكز دفاعا وتأديبا ، فأدى ذلك إلى القتل ، وهو ما يسمى في القوانين الحديثة بالضرب المفضي إلى الموت. أي إن القتل الذي تعاتبني عليه لم يكن مقصودا مني.

﴿**فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ أي فولّيت هاربا إلى مدين خوفا من بأسكم ، حين أخبرني رجل ، فقال لي : ﴿**إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ**﴾ [القصص ٢٨ / ٢٠] وجاء أمر آخر وهو أن الله منحني فهما وعلما وحكمة [١] ، وأرسلني إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته هلكت.

---

(١) قال الرازي : الأقرب أن الحكم غير النبوة ، والنبوة مفهومة من قوله : وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ فالمراد بالحكم : العلم ، ويدخل في العلم : العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد.

ثم أجاب موسى عن فضل التربية لفرد والإساءة إلى جماعة وهم بنو إسرائيل فقال : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي وما أحسنت إلي وربيتني إلا وقد أسأت إلى بني إسرائيل قومي ، فجعلتهم عبيدا وخدما ، يقومون في أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة ، فهل الإحسان إلى رجل واحد منهم له قيمة بالنظر إلى الإساءة إلى مجموعهم؟ فليس ما ذكرته شيئا بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

فقوله : ﴿عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ معناه اتخذتهم عبيدا لك مستذلّين. وإنما جمع الضمير في ﴿مِنْكُمْ﴾ و ﴿خِفْتُكُمْ﴾ مع إفراده في ﴿تَمُنُّها﴾ و ﴿عَبَّدْتَ﴾ لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ، ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله ، بدليل قوله تعالى المتقدم : ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد [1]

فقه الحياة أو الأحكام :

هذا هو الفصل الأول من قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه ، ويستفاد منه ما يأتي :

١ ـ كان إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون الطاغية الجبار الذي ادعى الألوهية ، ومعه قومه الظالمون بالشرك واستعباد الضعفاء إعذارا وإنذارا ، حتى لا يبقى لهم ولأمثالهم حجة يتذرعون بها للجهل بحقيقة الإيمان والدين.

٢ ـ في قوله : ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ حثّ شديد على التقوى لمن تدبر وتأمل ووعى المستقبل المنتظر.

٣ ـ قدّر موسى خطورة المهمة وأداء الرسالة التي كلف بها إلى فرعون فسأل ربّه أمرين : أن يدفع عنه شرهم ، وأن يرسل معه هارون نبيا ، فأجابه الله تعالى

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤٢٢.

إلى الأمرين ، فهدّأ خوفه وروعه ، وأمره بالثقة بالله تعالى ، وأيّده بنصره وعونه ، وجعل أخاه رسولا مثله ، ليؤازره ويعاونه ، كما قال تعالى : ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هارُونَ أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه ٢٠ / ٢٩ . ٣٢] ، وقال سبحانه : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص ٢٨ / ٣٤].

قال القرطبي : وكأن موسى أذن له في هذا السؤال ، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة ، بل طلب من يعينه. ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيرا ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه في ذلك لوم (١).

٤ . لا بدّ من اتخاذ الأسباب لكل مهمة خطيرة أو غير خطيرة ، فذلك مأمور به شرعا ، كما أن الحذر مطلوب ، وتقدير المخاطر مما يوجبه الشرع والعقل.

٥ . لم يتردد موسى وأخوه هارون بعد هذا التأييد الإلهي من الذهاب إلى فرعون الظالم ، وأعلنا له أنهما رسولان إليه من ربّ العالمين ، وهذا واجب التبليغ الذي لا بدّ فيه من الجرأة والشجاعة والصبر ، حتى إنه ذكر أن فرعون لم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ، ثم أذن استهزاء ، فدخلا عليه وأدّيا الرسالة.

٦ . كان مطلب موسى وهارون بعد إعلان الرسالة والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك مطلبا عدلا ، وهو إخلاء سبيل بني إسرائيل حتى يسيروا مع هذين الرسولين إلى فلسطين ، وإنهاء عهد الاستعباد ، فإن فرعون استعبدهم أربع مائة سنة ، وكانوا في ذلك الوقت ست مائة وثلاثين ألفا.

٧ . إن حادثة قتل القبطي من قبل موسى عليه‌السلام كانت قبل النبوة في

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ٩٢.

عهد الشباب ، بدليل قوله بعدئذ : ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وحدثت تلك الحادثة خطأ من غير تعمد القتل ، وجهلا بأن الوكزة تؤدي إلى القتل. وقد أجاب موسى عليه‌السلام فرعون عن ذلك أولا.

٨ ـ قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ مختلف في معناه وفائدته :

ـ قال السدي والطبري والفراء : هذا الكلام من موسى عليه‌السلام على جهة الإقرار بالنعمة ، كأنه يقول : نعم ، وتربيتك نعمة عليّ من حيث عبّدت غيري وتركتني ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي.

ـ وقال قتادة وغيره : هو من موسى عليه‌السلام على جهة الإنكار ، أي أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليدا ، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟ أي ليست بنعمة ، لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم ، فإنهم قومي ، فكيف تذكر إحسانك إليّ على الخصوص؟!

وقال الأخفش والفراء أيضا : فيه تقدير استفهام ، أي أو تلك نعمة؟!

ـ وقال الضحّاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت ، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم تقتل بني إسرائيل لربّاني أبواي ، فأي نعمة لك علي! فأنت تمنّ عليّ بما لا يجب أن تمنّ به.

والظاهر لي هو المعنى الثاني ، وهو ما جريت عليه في أثناء التفسير.

- ٢ -

الجدل بين موسى وفرعون في إثبات وجود الله

﴿قالَ فِرْعَوْنُ وما رَبُّ الْعالَمِينَ (٢٣) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)﴾

البلاغة :

﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ صيغة تعجيب.

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ التأكيد بأنّ واللام لتشكك السامع وتردده.

﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ قال موسى ذلك في بدء مناظرته لفرعون وقومه بطريق التلطف والملاينة طمعا في إيمانهم ، ثم لما رأى عنادهم ومغالطتهم وبخهم بقوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا مقابل لقول فرعون : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿قالَ فِرْعَوْنُ﴾ لموسى. ﴿وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أي وما حقيقته وأيّ شيء هو الذي قلت : إنك رسوله. ﴿قالَ : رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا﴾ لما لم يكن للخلق سبيل إلى معرفة حقيقته تعالى ، وإنما يعرفونه بصفاته ، أجابه موسى عليه‌السلام بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما ، وهو أظهر خواصه وآثاره. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بأنه تعالى خلق ذلك ، فآمنوا به

وحده ، أو إن كنتم ذوي قلوب موقنة وأبصار نافذة ، والمعنى : إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح ، نفعكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفع.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ قال فرعون لأشراف قومه ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ جوابه الذي لم يطابق السؤال ، سألته عن حقيقة رب العالمين ، فذكر أفعاله ، أو يزعم أنه رب السموات وهي متحركة بذواتها وغير محتاجة إلى مؤثر ، وهذا مذهب الدهرية ، وفيه تعجب من نسبة الربوبية إلى غيره.

﴿قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال موسى : إنه رب جميع الخلائق وإنه رب المشرق والمغرب ، وهذا وإن كان داخلا فيما قبله الذي استوعب به الخلائق كلها ، فإنه تخصيص بعد تعميم ، لأنه أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل. ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء ويجيبني عن آخر ، وسماه رسولا على سبيل السخرية.

﴿قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ قال موسى : إنه الرب الذي تشاهدون آثاره كل يوم ، فيأتي بالشمس من المشرق ، ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله ، حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقل علمتم ألا جواب لكم فوق ذاك. إنه بقوله السابق : ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ لاينهم أولا ، ثم لما رأى شدتهم وخشانتهم عارضهم بمثل مقالتهم.

﴿قَالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ قال فرعون ، عدولا إلى التهديد عن المحاجة والمناظرة ، وهكذا شأن المعاند المحجوج. وهذا دليل على ادعائه الألوهية وإنكاره للصانع. واللام في المسجونين للعهد ، أي ممن عرفت حالهم في سجوني ، فإن سجنه كان شديدا ، يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده ، لا يبصر ولا يسمع فيه أحدا ، حتى يموت ، فكان ذلك أشد من القتل.

﴿قَالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي قال له موسى : أتفعل ذلك ولو جئتك ببرهان على رسالتي يعني المعجزة. والواو في قوله : ﴿أَوَ﴾ واو الحال ، دخلت عليها همزة الاستفهام.

﴿قَالَ : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي قال فرعون له : فائت به إن كنت صادقا في أن لك بينة ، أو في دعواك النبوة ، فإن مدعي النبوة لا بد له من حجة.

المناسبة :

لما سمع فرعون جواب موسى عما طعن به فيه وهو القتل والتربية ، ورأى أن موسى وهارون مصران على دعوتهما إلى توحيد الله ، وطلبهما إخراج بني إسرائيل من مصر ، شرع في الاعتراض على الدعوى ، فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل

للأنبياء ، علما بأن فرعون لم يقل لموسى : وما ربّ العالمين إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين ، بدليل ما تقدم من قوله : ﴿فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

التفسير والبيان :

هذه مناظرة بين موسى وفرعون حول الإله ، فلما قال موسى وهارون لفرعون : إنا أرسلنا إليك من رب العالمين لهدايتك إلى الحق وتوحيد الله ، وتفوّقا عليه بالحجة ، لجأ إلى المعارضة ، وأصرّ على جحوده وتمرده وطغيانه ، فقال :

﴿قالَ فِرْعَوْنُ : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أي قال فرعون لموسى : وما حقيقة رب العالمين الذي أرسلك؟ ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ وسبب السؤال أنه كان يقول لقومه : ﴿ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي﴾ [القصص ٢٨ / ٣٨] فجحدوا الإله الصانع جلّ وعلا ، واعتقدوا أنه لا رب لهم سوى فرعون.

فأجابه موسى عليه‌السلام :

﴿قالَ : رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي قال موسى : هو خالق ومالك السموات والأرض وما فيهما من كواكب ونجوم ، وبحار وجبال وأنهار وأشجار ، وإنسان وحيوان ونبات ، وما بينهما من الهواء والطير وما يحتوي عليه الجو ، إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، الجميع عبيد له ، خاضعون ذليلون ، خلق الأشياء كلها ، وهو المتصرف فيها. أو إن كنتم موقنين بإسناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود لذاته ، فاعرفوا أنه هو الله ، وأنه لا يمكن تعريفه إلا بآثاره. ونظير الآية قوله : ﴿قالَ : فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى قالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه : ٢٠ / ٤٩ ـ ٥٠].

فلم يعجبه الجواب والتفت إلى خاصته ورؤساء دولته قائلا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله :

﴿قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي قال فرعون لحاشيته : ألا تعجبون من قوله وزعمه أن لكم إلها غيري ، وأ لا تستمعون لتخريفه وتهربه من الجواب؟ أسأله عن حقيقة رب العالمين ، فيذكر أفعاله وآثاره.

فذكر موسى جوابا آخر أخص مما ذكر وأدل على المراد ، لأنه واقع حسي مشاهد لهم :

﴿قالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إنه تعالى خالقكم وخالق آبائكم المتقدمين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه ، والمقصود أن التغير من وجود إلى عدم وبالعكس دليل الحدوث ، فأنتم محدثون ، كنتم بعد العدم ، وآباؤكم ماتوا بعد أن كانوا موجودين ، وأنتم مثلهم على الطريق ، أما الإله الواجب لذاته فهو الباقي الذي لا يطرأ عليه الفناء ، ولا أول لوجوده ولا آخر ، فهو إذن الإله.

فلما حار فرعون ولم يجد جوابا مقنعا ، لجأ إلى عقلية الصبية والاتهام الرخيص :

﴿قالَ : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي قال فرعون لقومه : إن رسولكم ليس له عقل ، لا يفهم السؤال ، فضلا عن أن يجيب عنه ، وهو يخلط في كلامه ، ويدعي أن هناك إلها غيري.

فعدل موسى إلى طريق ثالث أوضح من الجواب الثاني فقال :

﴿قالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي قال موسى : إنه الله تعالى رب طلوع الشمس وظهور النهار ، ورب غروب الشمس وزوال النهار ، وهو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربا

تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع انتظام مداراتها ، فهذا الذي يغير ويبدل ، وينظم ويدبر تدبيرا مستمرا كل يوم هو الله ، بل هو الذي يدبر الكون كله ، لا أنتم ، إن كان لكم عقل تدركون به ظواهر الكون ، وهذا مناسب لقولهم واتهامهم بأنه مجنون. فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا ، فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغربا ، والمغرب مشرقا.

وهذا الطريق في الاستدلال على وجود الله هو الذي سلكه إبراهيم الخليل عليه السلام مع نمروذ ، فإنه استدل أولا بالإحياء والإماتة ، وهو بعينه الذي أجاب به موسى هنا بقوله : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فأجابه نمروذ بقوله : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٨] فقال إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٨] وهو الذي ذكره موسى هنا بقوله : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

ولما غلب موسى فرعون بحجته ، اتجه كأهل السلطة في كل زمان ومكان إلى التهديد والوعيد باستخدام القوة والقهر والسلطان ، فقال :

﴿قالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أي قال فرعون : لئن ألّهت غيري ، لجعلتك في عداد المسجونين الذين يزجّ بهم كما تعلم في قيعان السجون تحت الأرض ، ويتركون حتى يموتوا ، وكان سجنه أشد من القتل.

فقابل موسى التهديد والتخويف بالمعجزات الخارقة للعادة بعد أن لم تفلح الأدلة العقلية ، فقال :

﴿قالَ : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي قال موسى : أتفعل هذا وهو السجن ، ولو أتيتك بحجة بيّنة ، وبرهان قاطع واضح على صدق دعواي النبوة؟ وهي المعجزة الدالة على وجود الله تعالى.

﴿قالَ : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال فرعون : فأت بهذا الشيء الذي يشهد لك ، والدليل الواضح على دعوى الرسالة ، فكل من يدعي النبوة عليه تأييد دعواه ، ظنا منه أنه سيعارضه.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه مناظرة حاسمة في شأن إثبات وجود الله بين موسى عليه السلام وفرعون الطاغية الجبار.

يتبين منها النزعة المادية عند الماديين والملحدين ، الذين يريدون رؤية الله تعالى بالعين المجردة أو لمسه بالحس المجاور ، كشأن بقية المواد ، لذا استفهم فرعون عن حقيقة رب العالمين ، فأتى موسى عليه السلام بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته ، التي لا يشاركه فيها مخلوق ؛ لأن حقيقة الله لا يدركها أحد ، ولأن المادة المجسدة محدثة ، والله تعالى هو خالقها وموجدها.

وكان جواب موسى الأول أن الله هو خالق السموات والأرض وما بينهما ، فهو المالك والمتصرف وخالق الأشياء كلها ، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيّرات ، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطير وغيرهما. وخلق الأشياء هو الدليل القاطع على وجود الله : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل ١٦ / ١٧].

فلما أدرك فرعون عجزه عن الإيجاد والخلق ، قال : ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾؟ مستخدما أسلوب الإغراء والتعجب من غرابة المقالة التي تصادم المقرر في عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم ، كالفراعنة المتقدمين.

ثم أتى موسى عليه السلام ثانيا بدليل يفهمونه عنه من الحس والمشاهدة التي

يطلبونها ، فقال : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أن الله خالقهم وخالق آبائهم الأوائل ، فانحدارهم من آباء فنوا ، ووجودهم بعد أن لم يكونوا ، دليل على أنه لا بدّ لهم من مغيّر ، فهم محدثون ، ولا بد لهم من مكوّن وهم مخلوقون.

لم يجد فرعون جوابا ، فلجأ إلى التهكم والاستخفاف واتهم موسى بالجنون ؛ لأنه لا يجيب عما سأله تماما.

فأجابه موسى ثالثا بقوله : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي إن الله هو مسيّر نظام الكون كله ، ومحرك هذا العالم بأجمعه في نظام بديع لا يعرف الخلل والاضطراب ، ومالك جميع أنحاء الأرض ، أما فرعون فيملك بلدا واحدا ، لا سلطان له على غيره ، فهل من عقل يدرك هذا ، وهل من إدراك يؤدي بهم إلى ضرورة الإيمان بصاحب الملك المطلق ، وأن المالك الجزئي عبث وسفه وجنون أن يكون إلها ، فمن إله بقية العالم؟

ولما هزم فرعون أمام حجة موسى ، لم يجد بدا من استخدام السلطة الإرهابية ، فتوعد موسى بالسجن ، وذلك عين الضعف ، مع أنه كما يروى كان سجنه أشد من القتل ، وكان إذا سجن أحدا ، لم يخرجه من سجنه حتى يموت ، فكان مخوفا.

ولكن التأييد الإلهي أشد نفاذا وإرهابا وإقناعا ، ولا يجدي معه توعد فرعون ، ويهون أمامه كل مخاوف الدنيا ، فحينئذ طلب موسى عليه‌السلام إثبات صدق دعواه النبوة بالمعجزة الخارقة للعادة التي لا تحدث إلا على يد نبي أو رسول بإحداث الله تعالى وإيجاده ، فقبل فرعون إظهار تلك المعجزة ، ظنا منه أنه سيبطلها ، ويأتي بما يعارضها.

٣٠.

معجزة موسى عليه‌السلام ووصف فرعون لها بالسحر

﴿فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (٣٥) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿أَرْجِهْ﴾ فعل أمر ، أي أخر أمره وأمر أخيه ، يقال : أرجأته وأرجيته ، أي أخرته. وسكّنت الهاء ؛ لأنه أجرى الوصل مجرى الوقف. وقرئ بكسر الهاء من غير إشباع ، اكتفاء بالكسرة عن الياء ، وقرئ بكسر الهاء والإشباع ، وقرئ بالضم دون الإشباع على الأصل ، وبالضم دون الإشباع ، اكتفاء بالضمة عن الواو.

المفردات اللغوية :

﴿ثُعْبانٌ﴾ ذكر الحيات. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر ثعبانيته بلا تمويه ولا تخييل ، كما يفعل السحرة. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أخرجها من جيبه. ﴿بَيْضاءُ﴾ ذات شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسدّ الأفق. ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ خلاف ما كانت عليه من ظاهرة الجلد واللحم والعظم. ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ للأشراف والرؤساء المستقرين حوله ، فهو ظرف وقع موقع الحال. ﴿إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر. ﴿فَما ذا تَأْمُرُونَ﴾ بهره سلطان المعجزة حتى أنساه دعوى الربوبية إلى الاستعانة بائتمار القوم وتنفيرهم عن موسى ، وفيه استشعار بتغلبه واستيلائه على ملكه.

﴿أَرْجِهْ وَأَخاهُ﴾ أخر أمرهما ، وقيل : احبسهما. ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾ أرسل في أنحاء البلاد شرطا يحشرون (يجمعون) السحرة. ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ خبير بفن السحر يتفوق على موسى ويفضله.

التفسير والبيان :

بعد أن وافق فرعون على إظهار موسى عليه‌السلام معجزته ، أظهرها ، فقال تعالى : ﴿فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ أي رمى موسى عصاه من يده ، فانقلبت ثعبانا واضحا ظاهرا ، لا لبس فيه ، ولا تمويه ولا تخييل. روي أنه لما انقلبت حية ، ارتفعت في السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، وجعلت تقول : يا موسى ، مرني بما شئت ، ويقول فرعون : يا موسى ، أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فعادت عصا [1].

والسبب في قوله هنا : ﴿ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ وفي آية أخرى : ﴿فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى﴾ [طه ٢٠ / ٢٠] وفي آية ثالثة : ﴿كَأَنَّها جَانٌّ﴾ [القصص ٢٨ / ٣١] : أن الحية اسم الجنس ، ثم إنها لكبرها صارت ثعبانا ، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها.

ولما أتى موسى عليه‌السلام بهذه الآية قال له فرعون : هل غيرها؟ قال : نعم ، وهذا في الآية التالية :

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي أدخل موسى يده في جيبه ، ثم أخرجها ، فإذا هي بيضاء تلمع وتتلألأ للناظرين ، لها شعاع كالشمس ، يكاد يغشى الأبصار ، ويسدّ الأفق.

ومع هذا كله ، أراد فرعون تعمية الأمر ، فبادر بشقاوته إلى التكذيب والعناد ، فذكر أمورا ثلاثة :

١ ـ ﴿قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قال لحاشيته من القادة وأشراف قومه الذين حوله : إن هذا الرجل لبارع في السحر ، يريد بذلك وصف فعله بأنه سحر لا معجز. ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال :

---

(١) تفسير الرازي ٢٤ / ١٣١ ، الكشاف ٢ / ٤٢٤.

٢ ، ٣ ـ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ، فَما ذا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي يريد إخراجكم من وطنكم ، ويتغلب عليكم بسحره ، وبما يلقيه بينكم من العداوات ، فيفرق جمعكم ، ويكثر أعوانه وأنصاره ، ويغلبكم على دولتكم ، ويأخذ معه بني إسرائيل ، فأشيروا علي فيه ما ذا أصنع به؟ إني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ، وهذا أسلوب يستنفر حماسهم وجهودهم وتوحيد كلمتهم لمطاردته والتغلب عليه ، فاتفقوا على جواب واحد وهو :

﴿قالُوا : أَرْجِهْ وَأَخاهُ ، وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي قال مستشاروه بعد أن تشاوروا فيما يفعلون : أخر أمره ومناظرته وأخاه ولا تتعجل في عقابهما لوقت اجتماع السحرة ، بأن تجمعهم من أنحاء البلاد ، فتبعث في أرجاء مملكتك جامعين يحشرون السحرة ، ويأتونك بكل خبير في السحر ماهر فيه ، فيقابلون موسى بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت ويكون لك النصر والتأييد عليه.

وكان هذا من تسخير الله تعالى لموسى وأخيه ، ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس جهارا نهارا.

وقيل : معنى ﴿أَرْجِهْ﴾ احبسه ، روي أن فرعون أراد قتله ، ولم يكن يصل إليه ، فقالوا له : لا تفعل ، فإنك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة ، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه ، فلا يثبت له عليك حجة ، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة ، ظنا منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه ، وكشفوا حاله.

ويلاحظ أنهم عارضوا قوله : ﴿إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم : ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ، ليطيبوا قلبه ، وليسكنوا بعض قلقه.

فقه الحياة أو الأحكام :

كانت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد ، فألقى عصاه من يده ، فانقلبت ثعبانا وهو أعظم ما يكون من الحيّات ، وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، فإذا هي تلألأ ، كأنها قطعة من الشمس ، لكن كان بياضها نورانيا كالقمر.

فوصف فرعون تلك المعجزة لقومه بأنها من قبيل السحر ، لا من قبيل المعجزة ، وحرضهم على اتخاذ خطة للغلبة على موسى وأخيه ، حتى لا يأخذ البلاد من أيديهم.

وهنا جاء دور المزايدة كما يفعل أتباع الرؤساء اليوم ، فأشاروا على فرعون بجمع مهرة السحرة من أرجاء البلاد ، ليقابلوه بنظير ما جاء به موسى ، وتتحقق لفرعون الغلبة والنصرة عليه.

ولكن كان في هذا الجمع مفاجأة إلهية أدت إلى إيمان السحرة جميعا بإله موسى وهارون.

ـ ٤ ـ

إيمان السحرة بالله في المبارزة الحاسمة في مشهد عظيم

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (٤١) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (٤٦) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (٤٨) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾

الإعراب :

﴿قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ بدل اشتمال من ﴿فَأُلْقِيَ﴾ أو حال بإضمار : قد.

﴿رَبِّ مُوسى وَهارُونَ﴾ بدل للتوضيح.

المفردات اللغوية :

﴿لِمِيقاتِ﴾ ما وقت به من ساعات يوم معين ، وهو وقت الضحى من يوم الزينة الذي حدده موسى عليه‌السلام. والميقات يطلق على الميقات الزماني كأشهر الحج ، والميقات المكاني وهو مواقيت الإحرام. ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ الاستفهام للحث على مبادرتهم إلى الاجتماع. ﴿لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا ، والترجي على تقدير غلبتهم ، ليستمروا على دينهم ، فلا يتبعوا موسى ، فالمقصود الأصلي ألا يتبعوا موسى ، لا أن يتبعوا السحرة ، فساقوا الكلام مساق الكناية ؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه‌السلام.

﴿قالَ : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن غلبوا. ﴿أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ لم يرد به الأمر بالسحر والتمويه ، بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة ، توسلا به إلى إظهار الحق. ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أقسموا بعزة فرعون ، أي قوته على أن الغلبة لهم ، لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر.

﴿تَلْقَفُ﴾ تبتلع. ﴿ما يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه ، بتمويههم وتزويرهم ، فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر ، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق ، يخيل شيئا لا حقيقة له. وإنما بدّل الخرور بالإلقاء ليشاكل ما قبله ، ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم ، فكأنهم أخذوا وطرحوا على

وجوههم ، وأنه تعالى ألقاهم بما تعهدهم به من التوفيق. ﴿رَبِّ مُوسى وَهارُونَ﴾ فيه إشعار بأن موجب إيمانهم ما أجراه الله على يدي موسى وهارون ؛ لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر.

﴿قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ﴾ قال فرعون آمنتم لموسى. ﴿آذَنَ لَكُمْ﴾ أنا. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ إن المسؤول هو كبيركم موسى الذي علمكم شيئا دون شيء ، ولذلك غلبكم ، وتواطأتم على ما حدث. أراد بذلك التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم ، وما ينالكم مني.

﴿لا ضَيْرَ﴾ لا ضرر علينا في ذلك وفيما يلحقنا من عذاب الدنيا. ﴿إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي إنا راجعون في الآخرة بعد موتنا إلى الله ربنا بأي وجه كان ، فالصبر على الإيمان محاء للذنوب موجب للثواب والقرب من الله تعالى. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نرجو. ﴿أَنْ كُنَّا﴾ بأن كنا أو لأن. ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في زماننا.

التفسير والبيان :

أراد فرعون وقومه القبط أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، ما تواجها وتقابلا إلا غلب الإيمان الكفر: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ ، فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٨] ، ﴿وَقُلْ : جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء ١٧ / ٨١].

وهذا مشهد من مشاهد الصراع بين الحق والباطل ، قال تعالى :

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ جمع السحرة وجاؤوا من أقاليم مصر ، في اليوم المخصص للقاء موسى ، وهو وقت الضحى من يوم الزينة (العيد) كما حدد موسى : ﴿قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه ٢٠ / ٥٩] والميقات : ما وقت به الزمان أو المكان ، ومنه مواقيت الإحرام.

وكان السحرة أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك ، وكانوا هم الفئة المثقفة ، وكانوا جمعا كثيرا ، قيل : كانوا اثني عشر ألفا ، وقيل أكثر ، والله أعلم

بعددهم. قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم : سابور وعاذور وحطحط ومصفى.

وأراد موسى عليه السلام أن تقع تلك المبارزة يوم عيد لهم ، ليكون ذلك أمام حشد عظيم ، ولتظهر حجته عليهم أمام الجموع الغفيرة ، وهذا كله من لطف الله تعالى في إظهار أمر موسى عليه السلام .

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾؟ أي طلب من الناس الاجتماع ، وحثهم قوم فرعون على الحضور لمشاهدة ما يحدث من الجانبين ، ثقة من فرعون بالغلبة ، وهم أرادوا ذلك حتى لا يؤمن أحد بموسى ، وموسى عليه السلام رغب أيضا في هذا التجمع لتعلو كلمة الله ، وتتغلب حجة الله على حجة الكافرين.

﴿لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ﴾ أي وقال قائلهم : إنا نرجو أن يتغلب السحرة ، فنستمر على دينهم ، ولا نتبع دين موسى. ولم يقولوا : نتبع الحق ، سواء كان من السحرة أو من موسى ؛ لأن الرعية على دين ملكهم.

﴿فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ. قالَ : نَعَمْ ، وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي لما قدم السحرة إلى مجلس فرعون ، وقد جمع حوله وزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، قالوا : هل لنا أجر من مال أو غيره إن تغلبنا على موسى ، قال : نعم لكم الأجر ، وزيادة على ذلك أجعلكم من المقربين عندي ومن جلسائي ، فهم ابتدؤوا بطلب الجزاء : وهو إما المال وإما الجاه ، فبذل لهم كلا الأمرين.

وبعدئذ تحاوروا مع موسى على البادئ بالإلقاء ، فجعلهم أولا كما قال تعالى : ﴿قالَ لَهُمْ مُوسى : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ، وَقالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ﴾ أي أذن لهم موسى بالبدء بالإلقاء ، وقال : ألقوا ما تريدون إلقاءه من العصي والحبال ، ثقة منه بأن الله غالبة ومؤيده ، وليكون

ما يلقونه طعمة لعصاه ، بعد أن عرضوا عليه أن يبدأ أولا بالإلقاء ، فألقوا ما معهم من الحبال المطلية بالزئبق ، والعصي المحشوة به ، وقالوا : بعزة فرعون أي بقوته وجبروته إنا لنحن المتغلبون عليه.

فلما حميت الشمس ، تحركت العصي والحبال ، وامتلأت الساحة بالحيات والثعابين ، وخيل إلى موسى أنها تسعى ، وسحروا أعين الناس ، واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى ، قُلْنا : لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى﴾ [طه ٢٠ / ٦٦ ـ ٦٨] وقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ، وَجاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ.﴾ [الأعراف ٧ / ١١٦]. وحينئذ ابتهج فرعون وقومه ، واعتقدوا أن السحرة غلبوا ، وأن عصا موسى لن تفعل شيئا أمام آلاف الحيات.

فأمره الله أن يلقي عصاه :

﴿فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ ، فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ﴾ أي فلما ألقى موسى عصاه ، فإذا هي تبتلع من كل بقعة ما قلبوا صورته وزيفوا حاله بتمويههم وتخييلهم أنها حيات تسعى ، فلم تدع منه شيئا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ ، فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١١٧ ـ ١١٨].

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ﴾ أي فخرّ السحرة ساجدين بلا شعور ؛ لأنهم أدركوا أن ما فعله موسى فوق قدرة البشر ، وأنه من فعل إليه الكون رب موسى وهارون ، فلم يتمالكوا أنفسهم إلا ووجدوها ساجدة لهذا الإله ، أما هم فقد بذلوا أقصى ما لديهم من علم وطاقة ، وما هو منتهى فعل السحرة من تخييل وتمويه.

وفاعل الإلقاء في ﴿فَأُلْقِيَ﴾ أو نائب الفاعل هو الله عَزَّوَجَلَّ بما رزقهم من التوفيق ، أو هو إيمانهم ، أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة. ويجوز عدم تقدير فاعل ؛ لأن ألقوا بمعنى خروا وسقطوا.

والتعبير بالإلقاء إشارة إلى الدهشة التي اعترتهم ، حتى لكأنهم أخذوا فطرحوا وسقطوا ساجدين لله. ثم أعلنوا ما وقر في صدورهم :

﴿قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ ، رَبِّ مُوسى وَهارُونَ﴾ أي قال السحرة : صدقنا واعترفنا برب العالمين الذي دعا إليه موسى وهارون ، مفضلين الإيمان على الكفر ، والحق على الباطل ، غير عائبين بعزة فرعون وجبروته وباطله ، ولا طامعين بأجره وقربته ومنافعه.

وهذا دليل على إسقاط ربوبية فرعون ، وأن سبب الإيمان هو ما رأوه من معجزة الرسولين : موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

ولما رأى فرعون ما حدث أسقط في يده ، وتحير في أمره ، فلجأ إلى التهديد والوعيد شأن العتاة الظالمين ، حتى لا تسقط هيبته أمام شعبه ، وتتداعى أركان حكمه وسلطانه ، ويفعل الناس مثل فعل السحرة الكثيرين ، فإنه توقع الغلبة ، ففوجئ بالهزيمة المنكرة ، ولكن لم تفلح تهديداته في السحرة شيئا ، وأصروا على الإيمان بالله تعالى ، لانكشاف الحقيقة لهم ، وقال لإنقاذ موقفه :

أولا ـ ﴿قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعون للسحرة : أتؤمنون بموسى قبل استئذاني ، وكيف تخرجون عن طاعتي ، وأنا الحاكم المطاع؟! وفي هذا إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على ميلكم إليه ، وأنكم متهمون بالتواطؤ معه ، فربما قصروا في إتقان السحر.

وإنما قال ﴿لَهُ﴾ لا (به) لأنه الذي يدعو إليه موسى وهارون.

ثانيا ـ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذا تصريح بما رمز إليه أولا ، فإنكم فعلتم ذلك بتواطؤ بينكم وبينه ، وقصّرتم في السحر ، ليظهر أمر موسى. وهذا تلبيس على القوم وتضليل لهم لئلا يعتقدوا أن إيمان السحرة حق ، ومبالغة في التنفير عن موسى عليه‌السلام ، ومكابرة ظاهرة الضعف ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل الموعد أصلا ، فكيف يكون هو كبيرهم الذي علمهم السحر؟!

ثالثا ـ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم ، وما ينالكم مني من عقاب. وهذا وعيد مطلق وتهديد شديد.

رابعا ـ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي توعدهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، والصلب بعد ذلك جميعا. وليس في الإهلاك أشد من ذلك.

فأجابوه بما يدل على صلابة الإيمان بوجهين :

الأول ـ ﴿قالُوا : لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ الضر والضير واحد ، أي لا حرج ولا ضرر علينا من ذلك ، ولا نبالي به ، فكل إنسان ميت ، ولو بعد حين ، والمرجع إلى الله عزوجل ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ، وهذا دليل على أنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، وإنما مقصودهم مرضاة الله تعالى ، ولهذا قالوا :

الثاني ـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا إشارة منهم إلى الكفر والسحر ، أي إنا نأمل أن يغفر لنا ربنا ذنوبنا وما أكرهتنا عليه من السحر ، من أجل أن كنا أول المؤمنين الذين شهدوا هذا الموقف ، أو بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فما كان من فرعون إلا أن قتلهم جميعا. والطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين ، كقول إبراهيم : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ

يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٢] ويحتمل الظن ؛ لأن المرء لا يعلم ما سيحصل في المستقبل.

ونظير الآية : ﴿**قالُوا : لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ ، وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ، إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا. إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى**﴾ [طه ٢٠ / ٧٢ ـ ٧٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

كان اجتماع السحرة مع موسى عليه‌السلام للمبارزة أمام فرعون وملئه في مشهد عظيم خلده التاريخ ، تبين فيه موقف أهل الحق والإيمان بالله ، وموقف الأفاكين والمبطلين.

اجتمع الناس يوم عيد للقبط هو يوم الزينة ، كما حدد موسى عليه‌السلام : ﴿**قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ [طه ٢٠ / ٥٩] وحرض بعضهم بعضا على الحضور ، ورجوا أو تأملوا غلبة السحرة على موسى وأخيه هارون.

وبوادر الهزيمة كانت قائمة ، فالسحرة أرادوا التفوق والغلبة لهدف دنيوي إما المال وإما الجاه ، ووعدهم فرعون بالأمرين معا ، وأما موسى وأخوه عليهما‌السلام فأرادوا نصرة الحق ، وإثبات صدق النبوة والرسالة ، وإعلاء كلمة الله ، فأيدهما الله بنصره ؛ لأن المعجزة أمر خارق للعادة ، مصدرها الإرادة الإلهية ، وشتان بين قدرة الله وقدرة البشر!

ومن علائم الهزيمة : ابتداء السحرة بإلقاء حبالهم وعصيهم لتكون طعمة لعصا موسى عليه‌السلام ، بالرغم من انشداه الناس وانبهارهم بها ، روي عن ابن عباس : أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم ، وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق ،

والعصي مجوفة مملوءة بالزئبق ، فلما حميت اشتدت حركتها ، فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض ، فهاب موسى عليه السلام ذلك ، فقيل له : ألق ما في يمينك ﴿فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ﴾ ثم فتحت فاها ، فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ، حتى أكلت الكل ، ثم أخذ موسى عصاه ، فإذا هي كما كانت ، فلما رأى السحرة ذلك قالوا لفرعون : كنا نساحر الناس ، فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي ، وكذلك إن غلبونا ، ولكن هذا حق ، فسجدوا وآمنوا برب العالمين.

أما عدد السحرة والحبال والعصي فليس فيها رواية ثابتة ، والذي يدل عليه القرآن أنها كانت كثيرة ، من حيث حشروا من كل بلد ، ولأن فرعون اطمأن إلى الغلبة بهذا الجمع الغفير.

ومن أمارات الهزيمة : أن السحرة قالوا حين الإلقاء : ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ، إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ﴾ أي قطعوا بالغلبة ، أما موسى فألقى باسم الله وعزته.

والمفاجأة العظمى الأخرى غير نصر المعجزة لموسى عليه السلام هي إيمان السحرة بالله عزّ وجلّ ، فخروا ساجدين لله تعالى ؛ لأنهم كانوا عالمين بمنتهى السحر ، فلما رأوا أن عصا موسى تبتلع كل ما صنعوا من تخييل وتمويه ، وشاهدوا أن ذلك خارج عن حدّ السحر ، علموا أنه ليس بسحر.

وقد أعلنوا إيمانهم الجازم بالله عزّ وجلّ غير عائبين بتهديدات فرعون الجبار العاتي ، وفضلوا الموت استشهادا في سبيل هذا الإيمان ، مع تقطيع الأيدي والأرجل والصلب ، على العودة إلى مستنقع الكفر وضلال السحر ، وخلد القرآن الكريم موقفهم الصلب الثابت رضي الله عنهم ، بأمرين :

الأول ـ التفاني في حب الله وابتغاء مرضاته ، وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو

رهبة من عقاب : ﴿قالُوا : لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ﴾ وهذا أعلى درجات الصديقين.

الثاني ـ التخلص من تبعات الماضي الذميم القائم على الكفر والسحر : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا﴾ فكانوا بذلك السباقين إلى الإيمان في بيئة تغصّ بالكفر ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ـ ٥ ـ

نجاة موسى وقومه وإغراق فرعون وجنده

﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ أَسْرِ﴾ في موضع نصب ب ﴿أَوْحَيْنا﴾ وتقديره : بأن أسر ، فحذفت الباء ، فاتصل الفعل به.

﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ إنما جمع ﴿قَلِيلُونَ﴾ وإن كان لفظ ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ مفردا ، حملا على المعنى ؛ لأن الشرذمة جماعة من الناس ، موافقة لرؤوس الآي ، ولو أفرد لكان جائزا حملا على اللفظ.

﴿كَذلِكَ﴾ فيه ثلاثة أوجه : النصب بفعل مقدر أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا. والجر على أنه وصف لمقام ، أي مقام مثل ذلك المقام الذي كان لهم ، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ حال لقوم فرعون.

﴿فَانْفَلَقَ﴾ معطوف على جملة فعلية محذوفة ، تقديرها : ضرب البحر فانفلق ، ويجوز حذف الجملة الفعلية ، كما يجوز حذف الجملة الاسمية ، كقولهم : زيد أبوه منطلق وعمرو ، أي وعمرو أبوه منطلق ، مثل : ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.

البلاغة :

﴿فَانْفَلَقَ﴾ إيجاز بالحذف ، أي فضرب البحر فانفلق.

﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، ذكرت أداة الشبه وحذف وجه الشبه ، أي كالجبل في رسوخه وثباته.

المفردات اللغوية :

﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى﴾ أي بعد سنين أقامها في مصر يدعو شعبها بآيات الله إلى الحق ، فلم يزيدوا إلا عتوا وفسادا وإعراضا. ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ أي سر بهم ليلا ، وأسر : من سرى بمعنى أسرى : سار ليلا ، وقد أمر موسى بالتوجه إلى البحر. ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده ، وهو علة الأمر بالإسراء ، فإذا اتبعوكم مصبحين قبل وصولكم إلى البحر أنجيكم وأغرقهم ، إذ إنهم يسيرون وراءكم ، ويدخلون في مساركم في البحر. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أخبر بسيرهم. ﴿فِي الْمَدائِنِ﴾ قيل : كان له ألف مدينة ، واثنا عشر ألف قرية. ﴿حاشِرِينَ﴾ جامعين العساكر ليتبعوهم.

﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ طائفة. ﴿قَلِيلُونَ﴾ قللهم بالنظر إلى كثرة جيشه ، قيل : كان بنو إسرائيل ست مائة وسبعين ألفا ، ومقدمة جيش فرعون سبع مائة ألف ، كل رجل على حصان ، وعلى رأسه خوذة ، أما الجيش فهو مليون وخمس مائة ألف ، والتحديد بهذه الأعداد محل نظر لم يثبت ، والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ﴾ أي لفاعلون ما يغيظنا. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ﴾ وإنا لجميع مستعدون في حذر وحزم في الأمور. وقرئ : حذرون أي متيقظون.

﴿فَأَخْرَجْناهُمْ﴾ أي فرعون وقومه من مصر ليلحقوا موسى وقومه ، أي هيأنا في أنفسهم دواعي الخروج وحملناهم عليه. ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين كانت على جانبي النيل. ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار

جارية في الدور من النيل. ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال كنزوها أو خزنوها في الأرض. ﴿وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ أي قصور عالية ومنازل فخمة. ﴿كَذلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، أو كذلك إخراجنا كما وصفنا. ﴿وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ بعد إغراق فرعون وقومه. ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ لحقوهم. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين وقت شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر. ﴿لَمُدْرَكُونَ﴾ لملحقون ، يدركنا جمع فرعون ، ولا طاقة لنا به. ﴿قالَ﴾ موسى. ﴿كَلَّا﴾ أي لن يدركونا. ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة منهم.

﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ﴾ أي البحر الأحمر (القلزم) أو النيل. ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضرب ، فانشق اثني عشر فرقا بينها مسالك. ﴿فِرْقٍ﴾ قطعة من البحر. ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل الضخم الثابت ، فدخلوا في شعابها ، كل سبط في شعب ، لم يبتل منها أحد. ﴿وَأَزْلَفْنا﴾ قرّبنا. ﴿ثَمَ﴾ هناك. ﴿الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه ، حتى دخلوا وراءهم مداخلهم ، وسلكوا مسالكهم. ﴿وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه ، بإطباق البحر عليهم ، لما تمّ دخولهم في البحر ، وخروج بني إسرائيل منه. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الإغراق. ﴿لَآيَةً﴾ لعظة وعبرة. ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم ، إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي. مصر من القبط غير آسية امرأة فرعون ، وأبيها (حزقيل) مؤمن ال فرعون ، ومريم بنت ذا موسى التي دلت على عظام يوسف عليه‌السلام ، وكذلك بنو إسرائيل بعد النجاة سألوا بقرة يعبدونها ، واتخذوا العجل ، وقالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٢ / ٥٥]. ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من أعدائه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين ، فأنجاهم من الغرق.

مقدمة لخروج بني إسرائيل من مصر :

ذكر المفسرون أنه لما طال مقام موسى عليه‌السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم في ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى عليه‌السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى عليه‌السلام ما أمره به ربه عزوجل. خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا ، قائلين لهم : إن لنا في هذه الليلة عيدا. وكان خروجه بهم وقت طلوع القمر.

وكان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ؛ لأن يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم.

التفسير والبيان :

﴿وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ : أوحى الله إلى موسى أن يسير ليلا باتجاه البحر مع قومه بني إسرائيل ، ففعل موسى ، وقد أخبره الله أن فرعون وقومه سيتبعونهم ، حتى إذا تبعوهم مصبحين ، تقدموا عليهم ولم يدركوهم قبل وصولهم إلى البحر ، فيدخلون فيه ، ثم يلحقهم في مسالكهم فرعون وجنده ، فيطبقه عليهم ويغرقهم.

وكانت إقامة بني إسرائيل في مصر ٤٣٠ سنة ، وليلة الخروج هي عيد الفصح عندهم إلى الأبد. وكان عددهم كما روي عن ابن عباس ست مائة ألف ماش من الرجال.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ﴾ أي فلما أصبح فرعون وقومه وعلم بخروج بني إسرائيل ، غاظه ذلك واشتد غضبه على بني إسرائيل ، فأرسل سريعا في مدائن مصر من يحشر الجند كالنقباء والحجّاب.

واستخدم فرعون أسلوب التعبئة المعنوية لتحريض قومه على الخروج معه ، فوصف بني إسرائيل بثلاث صفات :

١ ـ ﴿إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ إن بني إسرائيل لطائفة قليلة ، فيسهل متابعتهم وأسرهم أو قتلهم أو إعادتهم إلى العبودية.

٢ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ﴾ أي أنهم في كل آونة يغيظوننا ويضايقوننا ، بالفتنة والشغب ، وقد ذهبوا بأموالنا ، وخرجوا عن عبوديتنا ، وخالفوا ديننا.

٣ . ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ﴾ أي وإن جميعنا قوم آخذون حذرنا وأهبتنا ومستعدون بالسلاح ، وإني أريد إبادتهم واستئصالهم.

فجمع الجموع الغفيرة ، ولا يوجد رواية ثابتة تحصي عددهم ، ولا عدد بني إسرائيل ، لكن من المؤكد أن عددهم كان أقل من عدد جند فرعون.

﴿فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ﴾ أي فجعلنا في قلوبهم داعية الخروج ، وخرجوا من النعيم إلى الجحيم ، وتركوا البساتين الخضراء ، والرياض الغناء ، والأنهار الجارية والأموال المكنوزة المخزونة في الأرض والمنازل العالية والدور الفخمة والملك والجاه العظيم في الدنيا.

﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي كان الأمر حقا كما قلنا ، وكذلك كان إخراجنا كما وصفنا ، وورثنا بني إسرائيل تلك الثروات ، وتحولوا من العبودية إلى الحرية والاستقلال والترف والنعيم ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٧] ، وقال سبحانه : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٥].

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس على خليج السويس. وفي هذه الآونة ظهرت المخاوف على بني إسرائيل ، فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ ، قالَ أَصْحابُ مُوسى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي فلما رأى كل من الفريقين صاحبه ، قال بنو إسرائيل وقد أيقنوا بالهلاك : إن فرعون وجنوده لحقوا بنا وسيقتلوننا ، أو إنا لمتابعون وسنموت على أيديهم.

فطمأنهم موسى عليه‌السلام وهدّأ نفوسهم قائلا :

﴿قالَ : كَلَّا ، إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال موسى : كلا لا يدركوننا ، إن

معي ربي بالحفظ والنصرة سيهديني إلى طريق النجاة والخلاص منهم ، وسينصرني عليهم ؛ وأوحى الله إلى موسى :

﴿فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ، فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي أمر الله موسى بضرب البحر بعصاه ، فضربه بها ، ففيها سلطان الله الذي أعطاه ، فانفلق اثني عشر طريقا ، وصارت كل قطعة من الماء المجوز عن الانسياب الواقف عن التحرك كالجبل الشامخ الكبير ، وكانت الطرق الجافة بالهواء والشمس بعدد أسباط بني إسرائيل ، لكل سبط منهم طريق ، كما قال تعالى : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى﴾ [طه ٢٠ / ٧٧].

﴿وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي وقرّبنا من البحر هنالك الآخرين وهم فرعون وجنوده ، فتبعوهم.

﴿وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، ولم يبق منهم أحد.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في هذه القصة وما فيها من العجائب لعبرة وعظة وآية دالة على قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام ، وعلى إنجاء عباد الله المؤمنين وإهلاك الكافرين.

﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ولم يؤمن أكثر من بقي في مصر من القبط ، وكذلك لم يؤمن أكثر بني إسرائيل ، فإن هذه المعجزة تحمل على الإيمان ، ومع ذلك كذب بنو إسرائيل ، واتخذوا العجل إلها ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أغمه وأحزنه من تكذيب قومه ، مع قيام

الأدلة والمعجزات على الإيمان بالله والرسل.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن الله تعالى لهو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين. وهذا بشارة بالنصر للنبي ﷺ في المستقبل القريب.

فقه الحياة أو الأحكام :

في هذا الفصل الخامس والأخير من قصة موسى وفرعون حسم الموقف حسما يظهر قدرة الله تعالى في أحلك الساعات وأشد الأزمات ، ويبين مدى ضعف الاعتماد على القوة البشرية الظالمة في مواجهة قدرة الله تعالى واختراعه ، أما عصا موسى فمجرد ضربها ليس بفارق للبحر إلا بما اقترن به من إظهار القدرة الإلهية ، وهذا ما يجب التبصر به بالنسبة للكافرين غير المؤمنين الهازئين بتأثير العصا في فلق البحر اثني عشر طريقا يبسا.

ومن حكمته تعالى أن يستدرج الظالمين إلى الهاوية والهلاك ، فيغرقهم جميعا ليكون عبرة للمعتبر ، وأن يقود جيش الإيمان بقيادة نبيهم إلى ساحل النجاة ، ليظهر فضله ، وتمام نعمته عليهم ، وكان بإمكان الله تعالى أن يهلك فرعون وجنوده في قلب مملكته وفي أرض دولته.

وإظهارا لتلك الحكمة وسنته تعالى في عباده لإنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه ، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، أمر موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلا وسماهم عباده ؛ لأنهم آمنوا بموسى ، وأوحى إليه أن فرعون وجنوده سيتبعونهم ليردوهم إلى بلاد مصر ، لإبقائهم عبيدا أرقاء.

فجمّع فرعون عساكره ، وأعد جيشه في اليوم التالي لمسيرة موسى ببني إسرائيل ليلا ، مستنفرا القوى العسكرية بأن هؤلاء طائفة قليلة حقيرة ، وأنهم

أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها كما تقدم بيانه ، وأننا مجتمع أخذنا حذرنا وأسلحتنا.

وكان هذا الاستنفار تجريدا لهم من أرض مصر وما فيها من أشجار وأنهار ومنازل عالية ، وجعل ممتلكاتهم إرثا مشروعا لبني إسرائيل الذين كانوا عبيدا أذلاء مستضعفين في مصر. قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حليّ آل فرعون بأمر الله تعالى. قال القرطبي : وكلا الأمرين حصل لهم ، والحمد لله ، أي فقد عادوا إلى مصر وأصبحوا قادتها وسادتها وملاكها.

وتبع فرعون وقومه بني إسرائيل حين أشرقت الشمس. وكان سبب تأخر فرعون وقومه إما اشتغالهم بدفن بناتهم الأبكار الذين ماتوا في تلك الليلة بسبب وباء وقع فيهم ، وإما لأن سحابة أظلتهم وظلمة أعاقتهم ، فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا.

فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه ، خاف أصحاب موسى ، وقالوا : لقد قرب منا العدو ولا طاقة لنا به ، فالعدو وراءنا والبحر أمامنا ، وساءت ظنونهم ، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فردّ عليهم قولهم وزجرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه بالهداية والظفر ، قائلا لهم : ﴿كَلَّا﴾ لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي معي بالنصر على العدو ، وسيدلني على طريق النجاة.

فلما عظم البلاء واشتدّ خوف بني إسرائيل ، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها ، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ لأنه تعالى أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة في الظاهر بفعل يفعله ، وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر ، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى

واختراعه ، وجعل هذا من معجزات موسى عليه السلام .

ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بني إسرائيل ، ووقف الماء بينها كالجبل العظيم ، وكأنه جمّد ، فصار البحر طريقا يبسا بتأثير رياح لفحتها وجففتها وجعلتها كوجه الأرض ، كما قال تعالى : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً ، لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى﴾ [طه ٢٠ / ٧٧].

وقرّب الله فرعون وقومه إلى البحر ، والغيظ يملأ نفوسهم ، ونار الحقد تغلي في قلوبهم كالمراجل ، وأنجى موسى ومن معه أجمعين ، ثم لما صار الآخرون في وسط البحر أطبقه عليهم وأغرقهم جميعا.

إنها آية وأي آية! عظة للمتعظ وعبرة للمعتبر المتأمل ، حقا ، إن الذي حدث في البحر آية عجيبة من آيات الله العظام الدالة على قدرته ، وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له ، وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا.

وفي هذا تحذير شديد من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى ، وأمر رسوله ، ويكون فيه اعتبار وتسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات ، فلا تعجب يا محمد من تكذيب أكثر قومك لك ، واصبر على إيذائهم ، فلعلهم أن يصلحوا ، لذا قال تعالى عقيب ذلك :

﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سواء من قوم فرعون أو من قوم موسى ، فإنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام . وأما قوم موسى فبعد أن نجوا ، عبدوا العجل ، وقالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾!! [البقرة ٢ / ٥٥].

القصة الثانية

قصة إبراهيم عليه السلام

- ١ -

التنديد بعبادة الأصنام وبيان صفات الرّب المستحق للعبادة

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (٦٩) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (٧٠) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (٧١) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ قالَ﴾ بدل من قوله ﴿نَبَأَ إِبْراهِيمَ﴾.

﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ فيه مضاف محذوف ، أي هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون.

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ عَدُوٌّ﴾ : اسم مفرد يؤدي معنى الجمع. و ﴿رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ : منصوب على الاستثناء المنقطع ؛ لأنه سبحانه ليس من أعداء إبراهيم.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ الَّذِي﴾ مبتدأ ، و ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ خبره ، والفاء للسببية.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ عطف على ﴿الَّذِي﴾ المتقدم ، وخبره محذوف. وتقديره : والذي هو يطعمني ويسقيني ، فهو يهدين. وكذلك كل ما جاء بعدها من ﴿الَّذِي﴾ إلى قوله : ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي ...﴾ خبره : «فهو يهدين» مقدرا.

البلاغة :

﴿يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ بينهما طباق ، وكذلك بين ﴿يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض لنفسه مراعاة للأدب تأدبا مع الله ؛ لأن الشر لا ينسب إليه تعالى أدبا ، وإن كان المرض والشفاء كلاهما من الله ، فلم يقل : أمرضني.

المفردات اللغوية :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركي العرب ومنهم كفار مكة وأمثالهم. ﴿نَبَأَ﴾ خبر مهم. ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾؟ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة. ﴿نَعْبُدُ أَصْناماً﴾ صرحوا بالفعل. ﴿فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ﴾ أي : ندوم مقيمين على عبادتها ، وزادوا هذا الجواب على قولهم: ﴿نَعْبُدُ﴾ تبجحا وافتخارا به ، وإظهارا لما في نفوسهم من الابتهاج. ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ حين تدعون. ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ حين تعبدونهم. ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أي يضرونكم إن لم تعبدوهم. ومجيئه مضارعا مع ﴿إِذْ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضارا لها. ﴿كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مثل فعلنا ، لم يجدوا جوابا إلا التمسك بالتقليد. ﴿وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ التقدم لا يدل على الصحة ، ولا ينقلب به الباطل حقا.

﴿عَدُوٌّ لِي﴾ لا أعبدهم ، والمراد أنهم أعداء لعابديهم ؛ لأنهم يتضررون من جهتهم ، لكنه صوّر الأمر في نفسه تعريضا لهم ، فإنه أنفع في النصح من التصريح ، وإشعارا بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ، ليكون أدعى إلى القبول. وإفراد لفظ العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب أي عدوي ، أجراه على النسب. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ لكن ربّ العالمين فإني أعبده ، استثناء منقطع.

﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى الدين ؛ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد ، هداية مطردة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله ، يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضارّ ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى ٨٧ / ٣] وتبدأ الهداية في الإنسان من وقت هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم ، وتنتهي إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها.

﴿أَطْمَعُ﴾ أرجو. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ الجزاء.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى في أول السورة شدة حزن محمد ﷺ بسبب كفر

قومه ، ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة حصلت لموسى فيكون ذلك تسلية له ، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضا أن حزن إبراهيم كان أشد من حزنه ؛ لأنه يرى أباه وقومه في النار ، وهو لا يتمكن من إنقاذهم ، وكل ذلك إشارة إلى أن معارضة الرسل من أقوامهم أمر قديم ومستمر ، فلا داعي للغم والحزن.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الأول من قصة إبراهيم إمام الحنفاء عليه السلام مع قومه ، موضوعه الإنكار على قومه عبادة الأصنام مع الله عزّ وجلّ ، وتبيان صفات الربّ الذي يجب أن يعبد ، فقال تعالى :

﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ ، إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ**﴾ أي واتل يا محمد على أمتك خبر إبراهيم عليه السلام ، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل على الله ، وعبادته وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من صغره إلى كبره ، ولما شبّ أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وقال لأبيه وقومه : ما الذي تعبدونه؟ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ليلفت نظرهم إلى أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شرع ولا عقل.

فأجابوه مقرين بعبادة الأصنام ، ومظهرين لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بها :

﴿**قالُوا : نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ**﴾ أي قال قوم إبراهيم : نعبد هذه الأصنام ، وندوم مقيمين على عبادتها في الليل والنهار.

فناقشهم في جدوى تلك العبادة متعجبا من فعلهم :

﴿**قالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ**﴾؟ أي قال إبراهيم : هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم ، وهل يجلبون لكم نفعا أو يدفعون

عنكم ضررا؟ إذ ما الفائدة من عبادة لا هدف لها؟ فهل تفكرون قليلا ، وتتأملون كثيرا فيما تفعلون؟ وكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟

﴿قالُوا : بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لم يجدوا جوابا مقنعا يرد حجة إبراهيم إلا التمسك بالتقليد الأعمى للآباء والأجداد ، وليس لهم حجة مقبولة لتسويغ عبادتها وتقديسها. وهذا من أقوى الأدلة على فساد التقليد في العقائد ووجوب الاعتماد على الاستدلال العقلي المقنع ؛ لأن الله أورد ذلك ذما لطريقة الكفار وإنكارا لمنهجهم.

فتقوّى إبراهيم في تقريعهم وتوبيخهم وتحديهم ، فسألهم :

﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ أخبروني عن حال ما تعبدونه ، أنتم وآباؤكم وأجدادكم الغابرون من قديم الزمان إلى الآن ، هل حققت هذه العبادة شيئا ، وهل استحقت تلك الأصنام الجمادات التي لا تسمع ولا تنطق عبادة العابدين؟ فإن كان لهذه الأصنام تأثير ، فلتجلب إليّ الإساءة والأذى ، فإني عدو لها لا أعبدها ، ولا أبالي بها ، ولا أفكر فيها. وهذا استهزاء منه بعبدة الأصنام ، وتحد صارخ لصحة ما يعبدون.

لكن ربّ العالمين الذي خلقني ورزقني ، وهو وليي في الدنيا والآخرة هو الذي أعبده وأنحني إجلالا لعظمته وعزته ، فعبادتي للأصنام عبادة للعدو ، لذا اجتنبتها ، وآثرت عبادة من بيده الخير كله. وهذا نصيحة لنفسه ، فيكون ذلك أدعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه.

وهذا نظير قول نوح عليه‌السلام : ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس ١٠ / ٧١] وقول هود عليه‌السلام : ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ، ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، ما مِنْ دَابَّةٍ

﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها ، إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود ١١ / ٥٤ ـ ٥٦].

ثم أكد إبراهيم أنه لا يعبد إلا المتصف بهذه الأوصاف الخمسة وهي :

١ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي هو الخالق المبدع الموجد الذي خلقني وغيري من المخلوقات ، وهو الذي يهديني دائما لما فيه الخير في الدنيا والآخرة ، كما قال : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ [الأعلى ٨٧ / ٢ ـ ٣] أي الخالق الذي قدر قدرا ، وسوى المخلوق في أحسن تقويم ، وهدى الخلائق إليه ، فكلّ يجري على ما قدر له ، فبالخلق والهداية يحصل جميع المنافع لكل منتفع.

٢ ـ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي هو خالقي ورازقي بما يسّر من الأسباب السماوية والأرضية ، فأنزل الماء ، وأحيي به الأرض ، وأخرج به من الثمرات المختلفة رزقا للعباد ، وأوجد الأنعام وغيرها ، فوفر للإنسان الطعام والشراب وغيرهما من كل ما يتصل بالرزق.

٣ ـ ﴿وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي وإذا طرأ علي مرض ، فهو تعالى الذي ينعم علي بالشفاء منه. ويلاحظ أنه نسب المرض إلى نفسه ولم يقل : أمرضني ، تأدبا مع الله ، وإن كان المرض والشفاء من الله عزوجل جميعا ؛ وكلاهما يحدث بقدر الله وقضائه ، كما قال تعالى آمرا المصلي أن يقول : ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة ١ / ٦] ثم قال : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ..﴾ [الفاتحة ١ / ٧] أسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى ، وحذف فاعل الغضب أدبا وأسند الضلال إلى البشر ، وكما قال فتى موسى : ﴿وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ﴾ [الكهف ١٨ / ٦٣] ، وكما قالت الجن : ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ [الجن ٧٢ / ١٠]. وهنا أضاف إبراهيم المرض إليه ، أي إذا وقعت في مرض ، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غير الله بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه.

٤ ـ ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي وهو الذي يحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ، والمراد منه الإماتة في الدنيا ، والإعادة والبعث في الآخرة ، بدليل عطفه ب ﴿ثُمَّ﴾.

٥ ـ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي وهو الذي أرجو أن يستر ذنبي يوم القيامة ، فإنه لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ، كما قال : ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾؟ [آل عمران ٣ / ١٣٥]. وإنما قال ﴿أَطْمَعُ﴾ مع أنه ﷺ كان قاطعا بذلك ؛ لأنه لا يجب على الله لأحد شيء ، فاستعمال الرجاء والظن للدلالة على أن الثواب ورفع العذاب فضل من الله ونعمة.

وأسند إلى نفسه الخطيئة ، مع أن الأنبياء منزهون عن الخطايا قطعا ، مريدا بذلك تسمية ما صدر عنه من عمل هو خلاف الأولى خطيئة ، استعظاما له. وعلّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا ؛ لأن أثرها يظهر يوم الدين.

وقال : ﴿لِي﴾ في قوله : ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ لبيان أن غفرانه لي ولأجلي ، لا لأجل أمر عائد إليه البتة. والخلاصة : أن هذا من إبراهيم عليه‌السلام إظهار للعبودية ، وإن كان يعلم أنه مغفور له.

جاء في صحيح مسلم عن عائشة : «قلت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

ويوم الدين : هو يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام هنا كان لتنبيه المشركين على فرط جهلهم إذا رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه ، وهو أبوهم ، وليسرّى [١] عن النبي ﷺ مما وقع فيه من همّ وغم وحزن لإعراض قومه عن الإيمان برسالته.

وتتضمن القصة نقاشا حادا بين سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وبين أبيه وقومه في فائدة عبادة الأصنام ، حرصا على عدم إضاعة جهودهم سدى ، فإن العبادة تكون عادة لفائدة ، ويدرك كل عاقل أن هذه الأصنام الجمادات لا تأتي بخير أو رزق ، ولا تملك لأحد خيرا ، كما لا تدفع عنه ضرا إن عصيت ، فإذا لم ينفعوكم أيها الوثنيون ولم يضروا ، فما معنى عبادتكم لها؟

ولما وجدوا هذه الحجة مقنعة وقاطعة في الإفهام وإثبات المراد ، لجؤوا إلى التمسك بالتقليد للآباء والأجداد من غير حجة ولا دليل. وفي هذا دلالة كافية على ذم التقليد وفساده في شأن العقائد ، وأنه لا بد في تكوينه وإثباته من الاعتماد على الدليل المقنع المنطقي.

فأكد إبراهيم الخليل قوله السابق ، وأفهم هؤلاء القوم الجهلة بأن عبادة هذه الأصنام ضرر محض لعابديها ، وأنه لا تنبغي العبادة إلا لله ربّ العالمين من الإنس والجن والملائكة ، فمن عبده انتفع ودفع الضرر عن نفسه في الدنيا والآخرة ، ومن أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى.

ثم إن صفات هذا المعبود بحق تستوجب عبادته والتقرب إليه ، فهو الخالق الهادي المرشد إلى الدين الحق ، وهو الذي يرزق الطعام والشراب وغيرهما من المنافع ، لا غيره ، وهو الشافي المعافي ، وهو المميت والمحيي ، أي الموجد من العدم ،

---

(١) سرّي عنه ، وانسرى عنه الهم : انكشف.

ثم المفني ، ثم الباعث البعث ، وهو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، الفعال لما يشاء.

. ٢ .

دعاء إبراهيم عليه‌السلام دعاء المخلصين الأوّابين

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾

البلاغة :

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ استعارة ، استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن.

المفردات اللغوية :

﴿حُكْماً﴾ فهما وعلما بالخير وعملا به ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهم الأنبياء ، والمراد : وفقني للأعمال التي تجعلني في زمرة الصالحين البعيدين عن صغائر الذنوب وكبائرها. ﴿لِسانَ صِدْقٍ﴾ ثناء حسنا وصيتا طيبا في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين ، بتوفيقي للعمل الصالح ، حتى يقتدي بي الناس. ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

﴿مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة ، أي ممن يعطاها ويتمتعون بها ، كما يتمتع الناس بميراث الدنيا. ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ بأن توفقه للهداية والإيمان وتتوب عليه ، فتغفر له ؛ لأن المغفرة مشروطة بالإسلام ، فهذا دعاء لأبيه بالإسلام. ﴿إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ طريق الحق أي المشركين. وهذا قبل أن يتبين له أنه عدو لله. ﴿وَلا تُخْزِنِي﴾ لا تهنّي ، من الخزي : وهو الهوان ، أو من الخزاية وهي الحياء. ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي الناس ، فالضمير للعباد ؛ لأنهم معلومون أو للضالين. ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي مخلصا سليم القلب من الكفر والنفاق وميل للمعاصي ، وهو قلب المؤمنين.

المناسبة :

بعد أن أثنى إبراهيم عليه‌السلام على ربه وعظم شأنه ، وعدّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، أتبع ذلك بالدعاء بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين ، وهذا على ما هو مطلوب من تقديم الثناء على الدعاء.

التفسير والبيان :

سأل إبراهيم الخليل ربّه أمورا في هذه الدعوات تجعله من الأخيار المصطفين ، للتعليم والاقتداء به ، وتلك الأمور هي :

١ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ أي امنحني يا رب علما وفهما ومعرفة تنير بها قلبي للتعرف على صفاتك ، وإدراك الحق والصواب لأعمل به.

٢ ـ ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي وفقني لطاعتك ، لأنتظم في زمرة الكاملين في الصلاح المنزهين عن الذنوب كلها صغيرها وكبيرها ، واجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم عند الاحتضار : «اللهم في الرفيق الأعلى» قالها ثلاثا. وقال صلى‌الله‌عليه‌وسلم في دعائه : «اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدّلين».

وقد أجاب الله دعاء إبراهيم كما قال : ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٧].

٣ ـ ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي واجعل لي ذكرا جميلا بعدي ، أذكر به في الدنيا ، بتوفيقي للعمل الصالح ، فيقتدى بي في الخير. فأجاب الله دعاءه كما قال : ﴿وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ، سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ ، كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٠٨ ـ ١١٠].

قال مجاهد وقتادة : اللسان الصدق : يعني الثناء الحسن.

وقد اتفقت الملل على محبة إبراهيم عليه السلام وجعله قدوة في الدين.

وبعد أن طلب سعادة الدنيا ، طلب ثواب الآخرة ، فقال :

٤ . ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي واجعلني من أهل الجنة الذين يتمتعون بخيراتها ونعيمها ، كما يتمتع الوارث بإرث غيره في الدنيا.

وبعد أن طلب لنفسه السعادة الدنيوية والأخروية طلبها لأبيه ولي نعمته وسبب وجوده ، فقال :

٥ . ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ كما قال : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤١] أي اغفر له ذنوبه ووفقه للتوبة والإسلام ، فإنه ضالّ عن طريق الهدى والحق ، أي إنه مشرك. وهذا وفاء بما وعده من قبل ، وقبل أن يتبين أنه عدو لله ، كما قال تعالى : ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ، تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة ٩ / ١١٤].

ثم طلب الستر التام في الآخرة فقال :

٦ . ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني بعتاب على ما فرطت ، أو بنقص منزلة عن وارث ، وأجرني من الخزي والهوان يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم. وهذا مبالغة منه صلى الله عليه وسلم في تحري الكمال والسلامة والنجاة ، في يوم شديد الأهوال ، وصفه فقال :

﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي ذلك اليوم الذي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، ولا أولاده ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ، وإنما ينفع يومئذ الإيمان بالله تعالى ،

وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله. فالمراد بالقلب السليم : هو الخالي من العقائد الفاسدة والأخلاق المرذولة والميل إلى المعاصي ، وعلى رأسها الكفر والشرك والنفاق ، وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : القلب السليم : هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

جمع إبراهيم الخليل عليه‌السلام في دعائه هذا خيري الدنيا والآخرة ، فطلب أن يؤتيه الله علما وفهما ومعرفة بالله عزوجل وبحدوده وأحكامه. ثم طلب أن يخلد ذكره الجميل في الدنيا ، ويمنح الثناء الحسن بالتوفيق لصالح العمل ، وقال ابن عباس : هو اجتماع الأمم عليه ، ثم سأل الله أن يكون من أهل الجنة الذين يتمتعون بنعيمها.

روى أشهب عن مالك قال : قال الله عزوجل ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ : لا بأس أن يحبّ الرجل أن يثنى عليه صالحا ، ويرى في عمل الصالحين إذا قصد به وجه الله تعالى ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه ٢٠ / ٣٩] وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٩٦] أي حبا في قلوب عباده ، وثناء حسنا. فنبه تعالى بقوله : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٤] على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل ، فهو الحياة الثانية.

وفي هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن ، قال النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم . فيما يرويه مسلم والبخاري في الأدب وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن أبي هريرة . : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له».

ثم سأل الله تعالى أن يوفق أباه ، ويهديه للإسلام والإيمان ، ويخرجه من الشرك ، لأن أباه وعده في الظاهر أن يؤمن به ، فاستغفر له لهذا ، فلما بأن أنه لا يفي بما قال ، تبرأ منه.

وختم إبراهيم دعاءه بالستر التام والسلامة والنجاة فقال : ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد ، أو لا تعذبني يوم القيامة. ثبت في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة ، عليه الغبرة والقترة» والغبرة هي القترة. وفي البخاري أيضا عن النبي ﷺ قال : «يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا ربّ ، إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون ، فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين».

ووصف إبراهيم يوم القيامة بأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون أحدا ، ولكن ينفع القلب السليم وهو الخالص من الشك والشرك. أما الذنوب فلا يسلم منها أحد ، وهذا رأي أكثر المفسرين.

وخص القلب بالذكر ؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت الجوارح.

ومن المعلوم أن ذكر الله تعالى على الدوام من أهم حالات وأسباب ترويض القلوب على السلامة والخلوص من الأوصاف الذميمة ، والاتصاف بالأوصاف الجميلة ، جاء في الأثر أو الحديث القدسي عن الله تعالى فيما رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري : «من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن ثوبان قال : لما نزلت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية ، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، لو علمنا أيّ المال خير اتخذناه ، فقال رسول الله ﷺ : «أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه».

والخلاصة : أن هذه الأدعية من أبي الأنبياء وإمام الحنفاء تستهدف التوجيه والتعليم والاتباع والالتزام ، فما علينا إلا تردادها والعمل بها.

٣٠ .

أوصاف يوم القيامة وثواب الله وعقابه وندم المشركين على ضلالهم

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (٩٤)
وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٩٧)
إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٩٨) وَما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (١٠٠) وَلا
صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

الإعراب :

﴿أَجْمَعُونَ﴾ إما تأكيد للجنود إن جعل مبتدأ ، وخبره ما بعده ، وإما تأكيد للضمير ﴿هُمْ﴾ وما عطف عليه.

﴿تَاللهِ إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف أي إنه.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً ، فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ : فتح أن لوقوعها بعد لو وإنما فتحت بعد لو لأنها لا يقع بعدها إلا الفعل ، وهو فعل لا يجوز إظهاره ، وتقديره : لو وقع أن لنا كرة. ونكون : منصوب على جواب التمني بالفاء بتقدير «أن» لأن «لو» في معنى التمني.

البلاغة :

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ و ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ﴾ بينهما مقابلة.

﴿لِلْمُتَّقِينَ لِلْغاوِينَ مُبِينٍ الْعالَمِينَ شافِعِينَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سجع ومراعاة للفواصل أواخر الآيات.

﴿تَعْبُدُونَ يَنْتَصِرُونَ الْغاوُونَ أَجْمَعُونَ يَخْتَصِمُونَ الْمُجْرِمُونَ﴾ سجع ومراعاة فواصل أيضا.

المفردات اللغوية :

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قرّبت ليدخلوها بحيث يرونها من الموقف. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت وجعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها. ﴿لِلْغاوِينَ﴾ الكافرين الضالين عن طريق الحق. ﴿أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قيل لهم على سبيل التوبيخ : أين آلهتكم الذين تزعمون أنهم شفعاؤكم من غير الله من الأصنام. ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ﴾ بدفع العذاب عنكم. ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم ؛ لأنهم وآلهتهم يدخلون النار ، كما قال : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ﴾ ألقوا فيها على وجوههم ، الآلهة وعبدتها. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أتباعه ومطيعوه من عصاة الثقلين : الجن والإنس. ﴿مُبِينٍ﴾ بيّن. ﴿قالُوا﴾ أي الغاوون. ﴿وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ﴾ يتخاصمون مع معبوديهم ، على أساس أن الله ينطق الأصنام ، فتخاصم العبدة ، ويؤيده الخطاب في قوله : ﴿إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي نجعلكم مساوين له في استحقاق العبادة. قال البيضاوي : ويجوز أن تكون الضمائر للعبدة ، كما في ﴿قالُوا﴾ والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة ، والمعنى : أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة ، متحسرون عليها. ﴿وَما أَضَلَّنا﴾ عن الهدى. ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ الشياطين أو آباؤنا الذين اقتدينا بهم. ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

﴿صَدِيقٍ﴾ صادق في وده. ﴿حَمِيمٍ﴾ يهمه أمرنا. وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، أو لإطلاق الصديق على الجمع كالعدو ؛ لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل. ﴿كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا وقوله : ﴿فَلَوْ﴾ للتمني ، أقيم مقام «ليت» لتلاقيهما في معنى التقدير ، ونكون : جواب التمني. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً﴾ فيما ذكر من قصة إبراهيم ﴿لَآيَةً﴾ لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر. ﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر قومه ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ به. ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا ، هم أو أحد من ذريتهم.

المناسبة :

بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام بدعوات المخلصين الأوابين ، وختمها بألا يخزيه الله يوم البعث ، وصف يوم القيامة ، وما فيه من ثواب وعقاب ، وندم المشركين وحسرتهم على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمني الكرّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

التفسير والبيان :

وصف إبراهيم عليه السلام يوم القيامة بثلاثة أوصاف هي :

١ ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ﴾ أي إن ذلك اليوم هو اليوم الذي قرّبت وأدنيت فيه الجنة للمتقين السعداء ، ينظرون إليها ، ويدخلون فيها ، تعجيلا للبشارة والمسرّة بما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق ٥٠ / ٣١].

وهو اليوم الذي أظهرت فيه النار وجعلت بارزة مكشوفة للضالين عن الحق الكافرين الأشقياء ، بحيث يرونها ، ويعلمون أنهم مواقعوها ، تعجيلا للغم والحسرة على شقاوتهم في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنْساكُمْ ، كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [الجاثية ٤٥ / ٣٤] وقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك ٦٧ / ٢٧].

ثم يسأل أهل النار تقريعا وتوبيخا ، فيقال لهم :

٢ ـ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللهِ ، هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾؟ أي أين آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد ، هل ينفعونكم بنصرتهم لكم ويمنعونكم من العذاب ، وهل ينفعون أنفسهم

بانتصارهم ودفع العذاب عنهم؟ لا يحصل كلا الأمرين ، فإنهم وآلهتهم وقود النار ، وحصب جهنم ، هم لها واردون ، كما قال :

﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي فدهوروا فيها ، أي الآلهة غير المؤمنة وعبدتهم ، والقادة وأتباعهم يلقون فيها إلقاء مكررا ، بعضهم على بعض ، كما يلقى معهم متّبعو إبليس من عصاة الإنس والجن أجمعين ، أولهم وآخرهم. وتقديم إلقاء الآلهة ليشاهد الغاوون سوء حالهم ، وييأسوا من النجاة.

٣ ـ ﴿قالُوا ـ وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ ـ : تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي قال أهل الغواية ، وهم في حال الغيظ الشديد من المخاصمة والمحاجة بينهم وبين الآلهة المعبودة والشياطين الداعية لتلك العبادة : والله لقد كنا في ضلال عن الحق واضح بيّن حين نجعلكم أيها الأصنام والأحجار والملائكة وبعض البشر متساوين في استحقاق العبادة وإطاعة الأمر مع رب العالمين من الإنس والجن : ﴿إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص ٣٨ / ٦٤]. وهذا خطاب في الحقيقة بدليل قولهم :

﴿وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي والحق أنه ما دعانا إلى ذلك الخطأ العظيم إلا المجرمون من الشياطين والقادة والرؤساء ، كما قال تعالى : ﴿وَقالُوا : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦٧]. وقد أفلسنا اليوم من وعودهم الكاذبة والآمال المعقودة كما قال :

﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي فليس لنا اليوم شفيع يشفع ، ولا صديق ودود قريب يهمه أمرنا ، من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء ؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس يعدونهم بالنجاة والإنقاذ ، كما قال تعالى : ﴿فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ

﴿فَيَشْفَعُوا لَنا ، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٣] وقال سبحانه : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٦٧].

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليت لنا رجعة إلى الدنيا ، فنؤمن بالله ربنا وحده لا شريك له ، ونؤمن برسله الكرام ، ونعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، ولكن ذلك كذب ومراوغة ، كما أخبر تعالى عنهم بخلاف ذلك ، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ٢٨] وقال سبحانه أيضا : ﴿وَلَوْ رَحِمْناهُمْ ، وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ، لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٧٥].

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي في ذلك المذكور من قصة إبراهيم ، ومحاجته لقومه ، وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ، وتغلبه عليهم ، وفي مخاصمة أهل النار ، لعظة وعبرة ، ودلالة واضحة جلية على أن : لا إله إلا الله ، وألا معبود سواه ، ولا رب غيره ، وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين بالله وبرسوله.

وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه وإعراضهم عن دعوته ، مع إقامة الأدلة ، وظهور المعجزات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك الذي أحسن إليهم بإرسالك لهم لهدايتهم ، لقادر على الانتقام منهم ، ورحيم بهم إذ لم يعجل إهلاكهم ، ورحيم بالمؤمنين الطائعين.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات الكريمة تصوير تام شامل لليوم الآخر ، ووصف موجز ليوم القيامة بما فيه من ثواب المتقين وعقاب العصاة الكافرين ، وندم المشركين على ضلالهم في الدنيا.

وهو تصوير محبّب ، ووصف جذاب يأخذ بمجامع القلوب ، فالجنة تقرّب وتدنى للمتقين فتتعلق بها نفوسهم ويأخذهم الفرح والحبور ، وتعمهم الغبطة ، وجهنم تبرز وتكشف للكافرين الذين ضلوا عن الهدى ، وتظهر لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن ، فيبدو منها عنق ، فإذا زفرت زفرة بلغت القلوب منها الحناجر ، كما يستشعر أهل الجنة الفرح ، لعلمهم أنهم يدخلون الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا.

ويقال لأهل جهنم تقريعا وتوبيخا : أين آلهتكم من الأصنام والأنداد التي كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصرونكم وينجونكم من عذاب الله ، وهل ينتصرون لأنفسهم؟!

إنهم يقلبون على رؤوسهم ، ويدهورون في النار ، ويلقى بعضهم على بعض ، الآلهة المعبودة وعابدوها وجنود إبليس أجمعون ، وهم من كان من ذريته ، وكل من دعاه إلى عبادة الأصنام ونحوها فاتّبعه.

حينئذ لا يجد هؤلاء الكفرة مناصا من الإقرار بكفرهم ، ويقول الإنس والشياطين والغاوون والمعبودون المتخاصمون في جهنم : والله إننا كنا في ضلال مبين ، أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة ، إذ اتخذنا مع الله آلهة ، فعبدناها كما يعبد الإله الحق ، ونجعلها مساوية في العبادة لرب العالمين ، وهذه الآلهة لا يستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسهم ، ولقد أضلنا الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام ، أو أسلافنا الذين قلدناهم ، قال أبو العالية وعكرمة : ﴿**الْمُجْرِمُونَ**﴾ : إبليس وابن آدم القاتل : هما أوّل من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي.

فليس لنا شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، ولا صديق مشفق علينا. قال الزمخشري رحمه الله : وجمع الشافع لكثرة الشافعين ، ووحّد

الصديق لقلته ، أي أن الشفعاء يكثرون عادة عند المحنة ، وإن لم يكن هناك سبق معرفة ، وأما الصديق المخلص في وداده فقليل نادر.

ويتمنون الأماني حين لا ينفعهم التمني ، ويقولون : ولو حدث لنا رجوع إلى الدنيا ، لآمنا حتى يكون لنا شفعاء. يقولون ذلك حين تشفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله ، قال النبي ﷺ : «إن الرجل ليقول في الجنة : ما فعل فلان وصديقه في الجحيم؟ فلا يزال يشفع له حتى يشفّعه الله فيه ، فإذا نجا قال المشركون : ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾». وقال الحسن البصري : ما اجتمع ملأ على ذكر الله ، فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض ، وهم عند الله شافعون مشفّعون.

وختمت الآيات ببيان العبرة والعظة ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي إن في المذكور من قصة إبراهيم واختصام أهل النار وحسرتهم على ضلالهم لعبرة وعظة مؤثرة ، ولم يكن أكثر قوم إبراهيم ، بل ولا أكثر الناس بمؤمنين بالله ورسله ، ولكن الله هو المنتقم الجبار الذي ينتقم من المعاندين الكفرة ، الرحيم بالناس إذ لم يعجل لهم الانتقام ، وإنما أمهلهم لعلهم يعودون إلى دائرة الحق والإيمان والتوبة.

القصة الثالثة قصة نوح عليه‌السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسابُهُمْ

إلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

البلاغة :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ في قوله : ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ : مجاز مرسل ، من قبيل إطلاق الكل وإرادة البعض ، فإنه أراد بالمرسلين نوحا ، وذكره بصيغة الجمع تعظيما له ، وتنبيها على أن من كذب رسولا ، فقد كذب جميع المرسلين.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ استعارة تبعية ، استعار المفتاح للحاكم ، والفتح للحكم ؛ لأنه يفتح المنغلق من الأمر ، والمعنى : احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل.

المفردات اللغوية :

﴿قَوْمُ﴾ اسم لا واحد له من لفظه ، كرهط ونفر ، يذكر ويؤنث ، وتذكيره باعتبار لفظه ، وتأنيثه باعتبار معناه ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ المراد به نوح عليه‌السلام ، عبر عنه بصيغة الجمع تعظيما له ، ولأن من كذب رسولا فقد كذب جميع المرسلين ، لاشتراكهم برسالة التوحيد ، أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل. ﴿أَخُوهُمْ﴾ أي أخوة نسب أو جنس لا أخوة دين ؛ لأنه كان منهم. ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ الله ، فتتركوا عبادة غيره. ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم ، وأمين على تبليغ ما أرسلت به.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وإطاعته. ﴿وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغه. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي إلا على الله. ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره للتأكيد. ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أنصدق لقولك. ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ وفي قراءة : وأتباعك. ﴿الْأَرْذَلُونَ﴾ السفلة ، الأقلون جاها ومالا ، كأهل الحرف والمهن الوضيعة من الحاكة والأساكفة ونحوهم ، جمع أرذل ، والرذالة : الخسة والدناءة. وهذا من سخافة عقولهم وقصور نظرهم على المادة وحطام الدنيا ، وإشارة إلى أن اتّباعهم ليس عن نظر وبصيرة ، وإنما هو لتوقع مال ورفعة ، لذلك قال : ﴿وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا علم لي بأنهم عملوه إخلاصا ، أو طمعا في شيء ، وما علي إلا اعتبار الظاهر.

﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله ، فإنه المطلع عليها ، لو تعلمون ذلك ، ولكنكم تجهلون ، فتقولون ما لا تعلمون. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما أنا إلا بيّن الإنذار ، وهذا كالعلة لما سبق ، فما أنا إلا رجل مبعوث لإنذار المكلفين عن الكفر والمعاصي ، سواء كانوا أعزاء أو أذلاء ، فكيف يليق بي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟!

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ﴾ عما تقول لنا. ﴿مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ المقتولين أو المضروبين بالحجارة ، أو من المشتومين. ﴿قالَ : رَبِّ ، إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ قال نوح ذلك ، إظهارا لسبب الدعاء عليهم وهو تكذيب الحق. ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ أي فاحكم بيني وبينهم حكما. ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي نجني من شؤم عملهم. ﴿الْفُلْكِ﴾ يطلق على الواحد والجمع. ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء بالناس والحيوان. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجائهم. ﴿الْباقِينَ﴾ من قومه. ﴿لَآيَةً﴾ عبرة شاعت وتواترت.

المناسبة :

لما قص الله تعالى على نبيه محمد ﷺ قصة موسى وإبراهيم ، أتبعه بذكر قصة أبي البشر الثاني نوح عليه‌السلام ، ثم خبر هود ، وصالح ، ولوط وشعيب فيما يأتي بعد ، والهدف من كل ذلك واحد ، وهو تسلية رسوله فيما يلقاه من قومه ، وبيان لسنة الله في عقاب المكذبين ، فإن أقوام هؤلاء جميعا كذبوا رسلهم ، فعوقبوا ، وقومك يا محمد كمن سبقهم ، فلا تجزع ولا تحزن ولا تغتم. وقد تقدم تفصيل نبأ نوح في سورتي الأعراف وهود.

التفسير والبيان :

هذا قصص نوح عليه‌السلام مع قومه ، فهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد أن عبدت الأصنام والأنداد ، فنهاهم عن ذلك وحذرهم من وبيل عقاب ربهم ، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، فكذبه قومه ، واستمروا على ما هم عليه من الوثنية ، ونزّل الله تكذيبهم له منزلة تكذيب جميع المرسلين ، فقال :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلا تَتَّقُونَ؟﴾ أي كذب قوم نوح رسل الله أي نوحا نفسه فيما جاءهم به من الهداية لتوحيد الله

وإنهاء عبادة الأصنام ، حين قال لهم نوح أخوهم : ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟ ألا تحذرون عقابه على كفركم به؟

وجعل تكذيب نوح تكذيبا للرسل جميعا ؛ لأن من كذب رسولا ، فقد كذب جميع الرسل. وإنما قال : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ لأن القوم مؤنث ، وتصغيرها قويمة. وقال : ﴿أَخُوهُمْ﴾ لأنه كان منهم ، كما تقول العرب : يا أخا بني تميم ، أي يا واحدا منهم.

وبعد أن خوفهم نوح من سوء فعلهم ، وصف نفسه بأمرين :

الأول ـ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي إني رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثني الله به ، أبلغكم رسالات ربي ، دون زيادة ولا نقص.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي خافوا عذاب الله ، وأطيعوني فيما آمركم به من توحيد الله وعبادته وطاعته. وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته ؛ لأن تقوى الله علة لطاعته ، وهي أساس الطاعة ومبعثها ، فلو لا الخوف من الله تعالى ما أطاعه الناس.

الثاني ـ ﴿وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم ، بل أدخر ثواب ذلك عند الله تعالى.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فقد وضح لكم صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به ، وائتمنني عليه. وكرر ذلك للتأكيد عليهم ، وتقريره في نفوسهم ؛ لأن التقوى والطاعة أساس الدين ، لكن جعل علة الأول كونه أمينا فيما بينهم ، وعلة الثاني حسم طمعه عنهم.

ولما لم يجدوا سبيلا للتخلص من حجته وعدم إمكان الطعن بها ، أوردوا شبهة واهية فقالوا : ﴿قالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟﴾ أي إنهم قالوا : لا نؤمن

لك ولا نتبعك ، ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأراذل السفلة في المجتمع ، فإنهم أراذلنا ، وضعاف الناس ، وفقراء القوم ، ونحن السادة أهل الجاه والثروة والنفوذ!!

وهذه شبهة في نهاية السقوط والضعف ، فإن نوحا عليه‌السلام بعث هاديا لجميع الناس ، لا فرق بين غني وفقير ، ووجيه ووضيع ، وحسيب ومغمور ، وسيد ومسود ، ولا يبحث الرسول عادة عن هويات المؤمنين ومنازلهم ، لذا قال :

﴿قالَ : وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي قال نوح : لا علم لي بأعمال هؤلاء وحرفهم ومهنهم ، ولا أنقب عنهم أو أبحث أو أفحص أمورهم الداخلية ، وإنما ليس لي إلا الظاهر ، فأقبل منهم تصديقهم إياي ، وأترك سرائرهم إلى الله عزوجل ، وحسابهم على ربهم ، لا علي ، كما قال :

﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي إن كان لهم عمل شيء ، فما حسابهم علي ، وإنما على ربي ، فالله محاسبهم ومجازيهم عليه ، وما أنا إلا منذر ، لا محاسب ولا مجاز ، لو تشعرون ذلك بأن كنتم ذوي شعور مرهف وحس صادق وعقل واع ، ولكنكم تجهلون ، فتنساقون مع الجهل حيث سيّركم ووجهكم.

والقصد من ذلك تبديد شبهتهم ، وإنكار تسمية المؤمن رذلا ، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا ، فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى.

ثم ردّ على ما فهم من مطلبهم بإبعاد هؤلاء وطردهم من مجلسه ، فقال : ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي ليس من شأني ولا من مبدئي ورسالتي طرد هؤلاء الذين آمنوا بربهم واتبعوني وصدقوني ، إنما بعثت نذيرا ، فمن أطاعني واتبعني وصدقني ، كان مني وأنا منه ، سواء كان شريفا أو وضيعا ، جليلا أو حقيرا ، وإني أخوّف من كذبني ولم يقبل مني ، فمن قبل فهو القريب ، ومن رد فهو البعيد.

فلما أفحمهم بجوابه ، لم يجدوا بدا من اللجوء إلى التهديد :

﴿قالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي قال قوم نوح له : لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك ، لنرجمنك بالحجارة. وهذا تخويف منهم بالقتل بالحجارة ، فعندئذ دعا عليهم بعد اليأس من إيمانهم دعوة استجاب الله منه ، بعد أن أذن له ، فقال :

﴿قالَ : رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ، وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قال نوح : يا رب ، إن قومي كذبوني في دعوتي إياهم إلى الإيمان بك ، فاحكم بيني وبينهم حكما عدلا تنصر به أهل الحق ، وتهلك أهل الباطل والضلال ، ونجني من العذاب مع من آمن برسالتي وصدق بدعوتي ، كما جاء في آية أخرى : ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر ٥٤ / ١٠].

ويلاحظ أنه ليس الغرض من هذا إخبار الله تعالى بالتكذيب ، لعلمه أن الله عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد أني لا أدعوك عليهم لإيذائي ، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك.

والمراد من هذا الحكم في قوله : ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ إنزال العقوبة عليهم ؛ لأنه قال عقبه : ﴿وَنَجِّنِي﴾.

فأجاب الله دعاءه فقال :

﴿فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ﴾ أي أنجينا نوحا ومن آمن بدعوته ، فوحد الله وأطاعه ، وهجر عبادة الأصنام ، وأنقذناهم بسفينة مملوءة بالناس والأمتعة وأجناس الحيوان. ثم أغرقنا بعد إنجائهم قومه الآخرين الذين بقوا على كفرهم ، وخالفوا أمره. روي أن الناجين كانوا ثمانين ، أربعين رجلا وأربعين امرأة.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن في إنجاء المؤمنين

وإغراق الكافرين لعبرة وعظة لكل من صدق أو كذب بالرسل ، وإن من سنتنا دائما إنجاء الرسل وأتباعهم ، وإهلاك الذين كذبوا برسالتهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن ربك الله لهو القوي الغالب المنتقم ممن كفر به وخالف أمره ، الرحيم بمن أطاعه وأناب إليه وتاب ، فلا يعاقبه.

فقه الحياة أو الأحكام :

الوثنية وعبادة الأصنام تقارن عادة وجود الشعوب البدائية ، فهي في الغالب عقيدتهم ، لذا كان نوح عليه‌السلام أول رسول للناس بعد ظهور هذه العقيدة. والبدائية والمادية وسخف العقل وسطحية التفكير أمور متلازمة ، لذا كان الإصرار على عبادة شيء من دون الله هو الظاهرة الشائعة ، وكانت مهمة الأنبياء المتقدمين عسيرة وصعبة.

فهذا نوح عليه‌السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين يدعوهم إلى توحيد الله والتخلي عن عبادة الأصنام ، فكذبوه وآذوه ، بالرغم من أنه أكد لهم أنه رسول أمين صادق فيما بلغهم عن الله تعالى ، وقد عرفوا أمانته وصدقه من قبل ، كمحمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم في قريش ، وبالرغم من تخويفهم من عقاب الله قائلا لهم مرة : ألا تتقون الله في عبادة الأصنام؟ ومرة : فاتقوا الله وأطيعوني أي استتروا بطاعة الله تعالى من عقابه ، وأطيعوني فيما آمركم به من الإيمان ، ولا طمع لي في مالكم ، وما جزائي إلا على رب العالمين.

ولكن تذرعوا بشبهة واهية للبقاء على عنادهم وكفرهم ، ودفعهم الغرور والاستكبار إلى الترفع عن الإيمان بسبب تصديق فئة ضعيفة برسالة نوح ، ليسوا من الوجهاء ولا من الأثرياء ، وإنما من طبقة المهنيين والحرفيين. وهذا قول الكفرة ، فإن تعلم الصناعات مما رغب به الدين ، وليست الحرفة عيبا ، وإنما هي

شرف وعزة ، يستغني بها الإنسان عن الآخرين ، فلا يفهمن أحد خطأ أن الدين ينتقص من قدر هؤلاء ، وإنما الذي انتقصهم هم الأغنياء المترفون.

ويؤكد ذلك جواب نوح عليه‌السلام لهم وهو : ﴿قالَ : وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إنني لم أكلف العلم بأعمالهم ، إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان ، لا بالحرف والصنائع ، وليس للحرفة أو الصنعة تأثير في ميزان الدين ، وكذلك النظر في الدعوة إلى الله إلى الظاهر ، لا إلى الباطن.

ثم أجابهم بجواب آخر : ﴿إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم ، لما عبتموهم بصنائعهم.

وجواب ثالث : ﴿وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم كما تتصورون ، وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء ، كما طلبته قريش. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء ، إنما أنا رسول للناس جميعا ، أبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيرا.

ولما تغلب نوح عليه‌السلام على قومه بالحجة العقلية والمنطق الصريح ، لجؤوا إلى التهديد شأن كل العتاة ، فقالوا : ﴿قالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي لئن لم تنته عن سب آلهتنا وعيب ديننا لنقتلنك بالحجارة ، أو لنسبنك ونشتمنك. قال الثّماليّ : كل «مرجومين» في القرآن فهو القتل إلا في مريم : ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [١٩ / ٤٦].

وبعد أن يئس من إيمانهم ، دعا عليهم بالعذاب ، طالبا حكم الله العدل فيهم ، فأنجاه ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالناس والدواب وغير ذلك ، ثم أغرقهم الله أجمعين.

إن في ذلك لآية وأي آية ، وعبرة وعظة ، وكان أكثرهم كافرين ، والله هو القادر المنتقم من كل مكذّب بالله ورسله ، رحيم بمن آمن وأطاع.

وهاتان الآيتان الواردتان للعبرة والعظة هما اللتان ختمت بهما قصة إبراهيم عليه السلام ؛ لأنهما بيت القصيد من القصة.

القصة الرابعة

قصة هود عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾

الإعراب :

﴿تَعْبَثُونَ﴾ الجملة حال من ضمير : ﴿تَبْنُونَ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿كَذَّبَتْ عادٌ﴾ أنثه باعتبار القبيلة ، وهو في الأصل اسم أبي القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة عادة باسم الأب ، أو ببني فلان. ﴿رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿آيَةً﴾ علامة أو علما بارزا

للمارة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تفعلون ما لا فائدة فيه أصلا ، كاللعب ﴿مَصانِعَ﴾ مجامع الماء ومآخذه ، وقيل : قصورا مشيدة وحصونا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كأنكم تخلدون فيها لا تموتون ، ولعل هنا : للتشبيه ﴿وَإِذا بَطَشْتُمْ﴾ بضرب أو قتل ، والبطش : الأخذ بالعنف ﴿جَبَّارِينَ﴾ متسلطين عاتين بلا رأفة ولا شفقة ، ولا قصد تأديب ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ بترك هذه الأشياء ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه ؛ فإنه أنفع لكم.

﴿أَمَدَّكُمْ﴾ أنعم عليكم أو سخر لكم ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ﴾ كرره للتأكيد والتنبيه على دوام الإمداد ، والوعيد على تركه بالانقطاع ﴿عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة ، فإنه كما قدر على الإنعام ، قدر على الانتقام ﴿سَواءٌ عَلَيْنا﴾ مستو عندنا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ﴾ أصلا ، أي لا نرعوي لوعظك عما نحن عليه. والوعظ : كلام لطيف يلين القلب بذكر الوعد والوعيد.

﴿إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الذي خوفتنا به إلا خلق المتقدمين وكذب الأولين وعادتهم وطبيعتهم ونحن بهم مقتدون ، فلا حساب ولا بعث ، والمراد : عادتهم في اعتقاد ألا بعث ﴿وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ما نحن عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب ﴿فَأَهْلَكْناهُمْ﴾ بسبب التكذيب في الدنيا بريح صرصر.

المناسبة :

هذه قصة أخرى للعظة والعبرة ، هي قصة هود عليه‌السلام الذي دعا قومه إلى توحيد الله وطاعته ، وحذرهم من عقابه ، وهم في الزمان بعد قوم نوح ، كما قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وَزادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف ٧ / ٦٩] وكانوا يسكنون الأحقاف : وهي جبال الرمل قرب حضرموت في بلاد اليمن. وكانوا أولي طول مديد وبأس وشدة ، ورخاء ونعيم ، بسبب كثرة الأرزاق والأموال والأنهار والزروع والثمار ، لكنهم مع ذلك كانوا يعبدون غير الله تعالى ، وكذبوا نبيهم هودا عليه‌السلام ، فأهلكهم.

التفسير والبيان :

﴿كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ : أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ

الْعالَمِينَ﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسالة الرسل المرسلين من عند الله ، حين قال لهم هود عليه السلام : ألا تتقون الله ، وتخافون عذابه ، إني لكم رسول أمين على رسالتي التي هي من عند الله ، فاتقوا الله فيما أمر ونهى ، وأطيعوني فيما آمركم وأنهاكم عنه ، يصلح حالكم ، وتسعدون في دنياكم وأخراكم ، ولا أطلب منكم على تبليغ رسالتي أجرا ولا مالا ، ولا أبتغي بذلك سلطانا ولا جاها ، إن أجري وجزائي إلا على ربي لو علمتم ذلك ، ولكنهم كذبوه وآذوه.

وهذه المقالة بعينها جاءت على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه على وحدة رسالة الأنبياء الداعية إلى توحيد الله وطاعته ، وترك عبادة ما سواه.

ثم تكلم معهم هود عليه السلام على ثلاثة أمور :

١ ـ **﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾** أي أتعمرون في كل مكان مرتفع بنيانا محكما هائلا باهرا ، يكون علامة على القوة والعزة والغنى تفاخرا ، وإنما تفعلون ذلك عبثا لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ، لا للحاجة إليه ، لذا أنكر عليهم ؛ لأنه تضييع للزمان ، وإتعاب الأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

٢ ـ **﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾** أي وتتخذون قصورا مشيدة وحصونا ، لكي تقيموا فيها أبدا ، كأنكم مخلدون في الدنيا ، أو ترجون الخلد في الدنيا ، مع أنكم زائلون عنها ، كما زال من كان قبلكم. وقيل : المصانع : مآخذ الماء.

روى ابن أبي حاتم رحمه الله أن أبا الدرداء رضي الله عنه ، لما رأى ما أحدث المسلمون في غوطة دمشق من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم ، فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ،

ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثّقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمّان خيلا وركابا ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟!

٣ ـ ﴿وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي إنكم مع ذلك السرف والحرص ، تعاملون غيركم معاملة الجبارين ؛ لأنكم قوم قساة غلاظ عتاة متجبرون.

والخلاصة : أن اتخاذ الأبنية العالية يدل على حب العلو ، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء ، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو ، فهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو ، وهذه صفات الإله ، وهي ممتنعة الوصف للعبد ، فدل ذلك على حب الدنيا ، والخروج عن حد العبودية ، والحوم حول ادعاء الربوبية.

وفي هذا تنبيه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وعنوان كل كفر ومعصية ، لذا قال :

﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي فاحذروا عقاب الله ، واعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم ، فذلك أدوم لكم وأنفع ، إذ لا خلود لأحد في هذه الدنيا.

ثم ذكّرهم نعم الله عليهم تفصيلا ، فقال :

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي اتقوا عقاب الله الذي أمدكم بنعم وفيرة ، ورزقكم أنواع الحيوانات المأكولة والأولاد الكثيرة ، والبساتين الغنّاء والأنهار العذبة الفياضة ، فاجعلوا مقابل هذه النعم عبادة الله الذي أنعم بها.

﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخشى عليكم إن كذبتم وخالفتم وأصررتم على الكفر عذاب يوم شديد الأهوال.

وقد دل هذا على أنه دعاهم إلى الإيمان بالله بالحسنى وبالترغيب والترهيب ، والتخويف والبيان ، بما هو النهاية في ذلك ، فكان جوابهم :

﴿قالُوا : سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ﴾ أي يستوي عندنا وعظك لنا وتحذيرك إيانا ، وعدم وعظك أصلا ، فإنا لا نرجع عما نحن عليه ، كقوله تعالى : ﴿وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ ، وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود ١١ / ٥٣]. وقال الله سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٦]. وذريعتهم في عدم إيمانهم هي :

﴿إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي ما جئت به اختلاق الأولين وافتراؤهم وكذبهم ، كما قالوا : ﴿أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو ما هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم ، سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولا ثواب ولا عقاب ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ، وما نحن بمعذّبين أبدا ؛ لأنه ليس الأمر كما تقول.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ﴾ أي فكانت النتيجة أنهم كذبوا هودا عليه‌السلام فيما أتى به ، واستمروا على تكذيبه ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، أي ريح شديدة الهبوب ذات برد شديد جدا ، فكان سبب إهلاكهم من جنس عملهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ ، إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ﴾ [الفجر ٨٩ / ٦ ـ ٧] وهم عاد الأولى ، كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى﴾ [النجم ٥٣ / ٥٠] وهم من نسل إرم بن سام بن نوح ، وذات العماد : الذين كانوا

يسكنون العمد ، وليست إرم بلدا. وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت ٤١ / ١٥]. وقد حصبت الريح كل شيء لهم كما قال تعالى : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٢٥].

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي إن في إهلاك عاد بسبب تكذيبها رسولها لعبرة لكل الأقوام فيما أتيتهم به من رسالة الله ، وما كان أكثر هؤلاء المهلكين بمؤمنين في سابق علمنا ، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بالمؤمنين من عباده إن تابوا وأصلحوا.

فقه الحياة أو الأحكام :

تبين من هذه القصة ما يلي :

١ ـ لقد كان موقف هود عليه‌السلام من قومه موقف الحكيم الحليم المتلطف بهم ، فبالرغم من أنهم وصفوه بالسفاهة والجنون ، ترفّع عن اتهامهم ، واكتفى بالقول : ﴿قالَ : يا قَوْمِ ، لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ ، وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٦٧].

٢ ـ إن أسلوب الداعية يجب أن يكون لطيفا دون تنفير ، فقد سلك هود عليه‌السلام هذا الأسلوب ، فذكّر قومه بالنعم التي أنعم الله بها عليهم ، وحثهم على شكرها ، والإيمان بالله المنعم كفاء ما أنعم ، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر.

٣ ـ إن التجبر أو العتو أو الطغيان لا يأتي بخير ، وكل من ظن أن جبروته يحقق له كل ما يريد فهو غرّ جاهل ، فهؤلاء قبيلة عاد الأولى توافرت لهم القوة البدنية الفائقة ، والطول المديد ، والنعمة السابغة ، من الأموال والبساتين

والأنهار ، والحصون المشيدة والمباني الضخمة والزروع والثمار ، ولكنهم لما طغوا وبغوا ، وعاملوا الناس معاملة الجبابرة ، وأصروا على كفرهم وعنادهم ، عاقبهم الله بما هو أشد من جبروتهم ، وأرسل عليهم ريحا باردة عاتية ، فدمرت كل شيء لهم ؛ إذ أين قوة البشر من قوة الله وقدرته؟!

٤ . إذا استولى الكفر والعناد والكبرياء على قلب الإنسان ، لم يبق أمل في نفوذ هداية الله إليه ، ولم يعد يحسّ فيه بتقوى الله ، ولا يقدّر وجوب طاعته : ﴿قالُوا : سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ﴾.

٥ . يعتمد عبدة الأوثان في اعتقادهم وعبادتهم على ما توارثوه عن الأسلاف ، ويسيطر الفكر المادي على أذهانهم ، فينظرون إلى الحياة نظرة المتمتع المترفه فيها ، ثم يرتحل عنها : حياة ثم موت ، ولا بعث.

٦ . يرى المتأمل كيف أهلك الله من كذّب رسوله ، فليحذر الناس في كل زمان ومكان من عصيان الرسل وتكذيبهم ، ولكن مع الأسف لا يتعظ أكثر الناس بهذا ، ويبقون في كفرهم وعدم إيمانهم ، ويهملون النظر إلى قدرة الله القادر على الانتقام من كل أحد.

القصة الخامسة قصة صالح عليه‌السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (١٤٩)

فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)﴾

الإعراب :

﴿فارِهِينَ﴾ حال من واو ﴿تَنْحِتُونَ﴾.

﴿هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ شِرْبٌ﴾ مرفوع بالظرف ، على مذهب سيبويه والأخفش ؛ لأنه قد جرى وصفا على النكرة ، والظرف إذا وقع وصفا ارتفع به ما بعده ، كالفعل.

البلاغة :

﴿وَأَطِيعُونِ﴾ استعار الطاعة التي هي انقياد الآمر لامتثال الأمر.

﴿يُفْسِدُونَ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿الْمُرْسَلِينَ تَتَّقُونَ أَمِينٌ أَطِيعُونِ الْعالَمِينَ عُيُونٍ ...﴾ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وكذلك ﴿هَضِيمٌ مَعْلُومٍ عَظِيمٍ الرَّحِيمُ﴾.

﴿إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ مبالغة ؛ لأن المسحّر مبالغة عن المسحور.

المفردات اللغوية :

﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما أجري ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ إما إنكار لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم ، وإما تذكير بالنعمة في تخلية الله إياهم ﴿فِي ما هاهُنا﴾ من الخيرات والنعيم ﴿طَلْعُها﴾ أول ما يطلع من ثمر النخل ، وما يأتي بعده يسمى خلالا ، ثم بلحا ، ثم بسرا ، ثم رطبا ، ثم تمرا ﴿هَضِيمٌ﴾ نضيج لطيف

لين ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ النحت : النّجر والبري والتسوية ﴿فارِهِينَ﴾ بطرين ، من الفره : وهو شدة الفرح ، أو حاذقين بنحتها من الفراهة : وهي النشاط ، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب ، وقرئ : فرهين ، أي بطرين وهو أبلغ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمرتكم به ﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ العاصين ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾ بطاعة الله ، وأتى به لبيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح. ﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾ المغلوب على عقولهم بكثرة السحر ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك الرسالة ﴿شِرْبٌ﴾ نصيب من الماء ﴿عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظم اليوم لعظم ما يحل فيه ، وهو أبلغ من تعظيم العذاب ﴿فَعَقَرُوها﴾ رموها بسهم ثم قتلوها ، وأسند العقر إلى كلهم ؛ لأن عاقرها إنما عقر برضاهم ، ولذلك عذبوا جميعا ﴿نادِمِينَ﴾ على عقرها خوفا من حلول العذاب ، لا توبة من ذنوبهم ، أو عند حلول العذاب ، ولذلك لم ينفعهم ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ﴾ الموعود به ، فهلكوا.

﴿وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال البيضاوي : في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم ، لما أخذوا بالعذاب ، وإن قريشا إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم.

المناسبة :

لما قص الله على رسوله قصة هود عليه‌السلام وعاد ، أتبعه بقصة صالح عليه‌السلام وثمود ، وقد كانوا عربا مثل عاد ، يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى والشام أي على طريق المدينة ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، كانت قريش في رحلة الصيف يمرون عليها ، وهم ذاهبون إلى الشام ، ومرّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم بهم حين أراد غزو الشام ، فوصل إلى تبوك ليتأهب لذلك. وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه‌السلام .

دعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلّغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذّبوه وخالفوه ، فأخذهم عذاب الزلزلة ، فزلزلت بهم الأرض ، ولم تبق منهم أحدا ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٥].

التفسير والبيان :

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ. وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ قد عرفنا أن هذه المقالة مشابهة لما سبقها من مقالة نوح وهود عليهما‌السلام .

والمعنى : أن قبيلة ثمود كذبت برسالة نبيهم صالح عليه‌السلام حين قال لهم : ألا تتقون عقاب الله ، فتؤمنوا به وتوحدوه وتعبدوه ، وتطيعوني فيما بلغتكم من الرسالة ، فإني رسول من عند الله تعالى ، أمين على رسالته التي أرسلها معي إليكم ، ولا أطلب على نصحي وتبليغي عوضا ولا جزاء ، فما جزائي إلا على الله الذي أرسلني ، وهو يتولاني في الدنيا والآخرة.

ثم وعظهم ، وحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، وذكّرهم بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الطيبات ، وفجّر لهم العيون والأنهار ، وأنبت لهم الزروع والثمرات ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، فقال مخاطبا لهم بأمور ثلاثة :

١ ـ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ﴾؟ أي أتظنون أنكم في الدنيا مخلّدون في النعيم ، وأنكم تتركون في دياركم آمنين ، متمتعين في الجنات والعيون ، والنخيل ذات الرطب الهضيم اللين اللطيف ، والزروع والثمار ، وتطمعون في ذلك ، وتظنون ألا دار للجزاء على الأعمال؟ لا يعقل أن تبقوا على الشرك والكفر ، وأنتم ترفلون في هذه النعم ، وتتمتعون بهذه الخيرات.

وقوله : ﴿فِي ما هاهُنا آمِنِينَ﴾ أي في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ، ثم فصّله وفسره بقوله : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ إلخ ، فهو تفصيل بعد إجمال.

٢ ـ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي وتتخذون بيوتا في الجبال حاذقين في نحتها وبنائها ، بطرين فرحين أشرين بها ، متنافسين في عمارتها ، من غير حاجة إلى السكنى فيها. فاتقوا الله حق التقوى ، وأقبلوا على ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم.

ويلاحظ أن الغالب على قوم هود الذين تقدم وصفهم هو اللذات المعنوية وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر ، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية المادية ، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة.

٣ ـ ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ أي ولا تطيعوا أمر الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي وارتكاب الخطايا والترف والمجون ، وهم كبراؤهم ورؤساؤهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق ، وهم الرهط التسعة في أرض ثمود المشار إليهم في آية أخرى : ﴿وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ، يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٤٩]. وإنما قال ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾ بعد قوله ﴿يُفْسِدُونَ﴾ لبيان أن فسادهم خالص ، ليس معه شيء من الصلاح ، على عكس حال بعض المفسدين المخلوطة أعمالهم ببعض الصلاح.

فأجابوا نبيهم صالحا عليه‌السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عزوجل بقولهم : ﴿قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي قال قومه : ثمود ، الذي يغلب على الظن أنك أصبحت من المغلوب على عقولهم بكثرة السحر ، وصرت من المسحورين ، أي إنك في قولك هذا مسحور لا عقل لك ، فلا يسمع لرأيك ولا لنصحك.

﴿ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إنك بشر مثلنا ، فكيف أوحي إليك دوننا ، وتكون نبيا لنا؟ كما قالوا في آية أخرى :

﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ، سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر ٥٤ / ٢٥ ـ ٢٦]. وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين ، لكانوا من جنس الملائكة.

ثم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وهو أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء (حامل لعشرة أشهر) صفتها كذا وكذا ، فما كان منه إلا أن أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق : لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك ، فقام نبي الله صالح عليه‌السلام ، فصلى ، ثم دعا الله عزوجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء ، على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم ، وكفر أكثرهم. [1]

﴿قالَ : هذِهِ ناقَةٌ ، لَها شِرْبٌ ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي إن النبي صالح عليه‌السلام قال مجيبا طلبهم إرسال آية تكون دليلا على صدقه : الدليل هو ناقة الله هذه ، فهي الآية والمعجزة الدالة على صدقي ، ترد ماءكم يوما ، ويوما تردونه أنتم.

﴿وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي وإياكم أن تصيبوها بأذى من ضرب أو قتل أو غير ذلك ، فيصيبكم عذاب شديد. وقد عظم اليوم لحلول العذاب فيه ، ووصف اليوم بالعظم أبلغ من وصف العذاب ؛ لأن الوقت إذا عظم بسبب العذاب ، كان موقعه من العظم أشد.

﴿فَعَقَرُوها ، فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ﴾ أي ذبحوا الناقة ، ثم ندموا على فعلهم عند معاينة العذاب ، أي حين علموا أن العذاب نازل بهم ، فنالهم

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٤٤ ، تفسير القرطبي : ١٣ / ١٣٠ ، وهذا مرويّ عن ابن عباس ، وربما كان الأمر محتاجا إلى رواية موثقة ثابتة السند ليجب علينا الاعتقاد بذلك.

عذاب الله وهو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديدا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

والذي حدث أن الناقة مكثت لديهم حينا من الزمان ، ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها ، يحلبون منها ما يكفيهم شربا وريا ، فلما طال عليهم الأمد ، وحضر أشقاهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها. روي أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب ، فرماها بسهم ، فأصاب رجلها ، فسقطت ، ثم ضربها قدار.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي إن في ذلك المذكور من قصة صالح عليه السلام ، وتكذيب قومه ثمود لرسالته ، واعتدائهم على معجزة الناقة لآية وعبرة وعظة ، وأي آية أعظم من هذا؟ إنهم كذبوا رسولهم فلم يؤمنوا به ، واغتروا بما لهم ومتعتهم الدنيوية ، واعتدوا على الناقة ، فنزل بهم العذاب ، ولم يكن أكثرهم مؤمنين بالله ورسله ، وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأنابوا إليه. وهذه الخاتمة بذاتها هي خاتمة قصة نوح وهود ؛ لأن القصد منها واحد ، وهو العظة والاعتبار بحال المكذبين.

يقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمان مائة رجل وامرأة.

فقه الحياة أو الأحكام :

كانت قبيلة ثمود تسكن في الحجر [1] وهي ذوات نخل وزروع ومياه ، ومبان جبلية شاهقة فخمة ، وكانوا معمّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم ، إلا أنهم اغتروا بمالهم وجاههم ، فكذبوا رسولهم صالحا عليه السلام ، فقرعهم ووبخهم ، وقال : أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت؟.

---

(١) الحجر : واد بين المدينة والشام.

وأمرهم بتقوى الله عَزَّجَلَّ وهي امتثال أمره واجتناب نهيه ، وحذرهم من إطاعة أمر كبرائهم ورؤسائهم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فاتهموه بأنه مسحور لا عقل له ، ونفوا عنه الرسالة ؛ لأنه بشر مثلهم فكيف يوحى إليه دونهم ، ويكون نبيا غيرهم؟ ثم طالبوه بالإتيان بمعجزة حسية تدل على صدقه ، فأيده الله بالناقة العظيمة التي لا مثيل لها ، فكانت تشرب ماء نهير صغير كله في يوم ، ثم تدرّ لهم الحليب ، فيحلبون منها ما شاؤوا في اليوم التالي. ولكن أبطرتهم النعمة ، وأساؤوا إلى أنفسهم ، وتواطؤوا على عقرها ، حبّا في الإساءة ذاتها ، فعقرها رجل منهم اسمه «قدار» ثم ندموا على عقرها لما أيقنوا بالعذاب ، ولكن لم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب ، كما قال تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ...﴾ [النساء ٤ / ١٨] فأهلكهم الله بالزلزلة والصيحة بسوء فعلهم وقبح كفرهم.

القصة السادسة

قصة لوط عليه‌السلام مع قومه

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (١٦٦) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْناهُ

وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

الإعراب :

﴿نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ على حذف مضاف ، أي عقوبة ما يعملون من الفاحشة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ.

﴿قالَ مِنَ الْقالِينَ﴾ جناس ناقص ، الأول من القول ، والثاني من القلى مصدر قلى : أبغض بغضا شديدا.

المفردات اللغوية :

﴿أَخُوهُمْ﴾ الذي يعايشهم في السكن والبلد ، لا في الدين والنسب ؛ لأنه ابن أخي إبراهيم من أرض بابل ﴿الذُّكْرانَ﴾ الذكور ﴿مِنَ الْعالَمِينَ﴾ من الناس ﴿لَكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ أي أقبالهن ﴿عادُونَ﴾ متجاوزون الحدود الشرعية والعقلية والفطرية السليمة من الحلال إلى الحرام ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ﴾ عن إنكارك علينا ﴿مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ المطرودين المنفيين من بلدنا ﴿الْقالِينَ﴾ المبغضين لفعلكم غاية البغض أو أشد البغض ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من عذاب أو عقوبة أو شؤم عملهم.

﴿وَأَهْلَهُ﴾ أي أهل بيته والمتبعين له على دينه ، أخرجه الله من بينهم وقت حلول العذاب بهم ﴿إِلَّا عَجُوزاً﴾ هي امرأة لوط ﴿فِي الْغابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ، أصابها حجر في الطريق فأهلكها ؛ لأنها كانت مائلة إلى القوم ، راضية بفعلهم ، وقيل : كانت فيمن بقي في القرية ، فإنها لم تخرج مع لوط ﴿دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أهلكناهم أشد إهلاك ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ قيل : أمطر الله عليهم حجارة ، فأهلكهم ﴿فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مطرهم ، واللام فيه للجنس ، حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل (ساء) والمخصوص بالذم محذوف ، وهو مطرهم.

المناسبة :

هذه قصة أخرى كسابقاتها للعبرة والعظة ، هي قصة لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، بعثه الله تعالى إلى أمة عظيمة في عهد إبراهيم ، تسكن من قطاع الأردن سدوم وأعمالها التي أهلكها الله وهي عمورة وثلاثة مدن أخرى ، وجعل مكانها بلاد الغور المتاخمة لجبال بيت المقدس ، والمحاذية لبلاد وجبال الكرك والشوبك ، والمجاورة للبحر الميت «بحيرة لوط» فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل وحده ، لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما ابتدعوه من الفواحش ، مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، من إتيان الذكور دون الإناث.

التفسير والبيان :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلا تَتَّقُونَ؟ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي إن قوم لوط كذبوا نبيهم المرسل إليهم ؛ ومن كذّب رسولا فقد كذب جميع المرسلين ، حين قال لهم لوط عليه السلام : ألا تتقون عذاب الله بترك معاصيه ، فإني رسول لكم مؤتمن على تبليغ رسالته ، فاتقوا الله بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، وأطيعوني فيما آمركم به من عبادة الله وحده ، وإتيان النساء بالزواج وما أنهاكم عنه من ارتكاب الفواحش ، ولا أطلب منكم أجرا أو جزاء على تبليغ رسالتي ، فما جزائي إلا على الله رب الإنس والجن وجميع العوالم في الأرض والسماء.

ثم وبخهم وقرعهم وأنكر عليهم ظاهرة الفحش الشنيعة قائلا : ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ ، وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ﴾ أي كيف تقدمون على شيء شاذ جدا ، أترتكبون هذه المعصية الشنيعة؟ وهو إتيان

الذكور من الناس ، وهو كناية عن وطء الرجال ، وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء ، وسماه الله تعالى فاحشة ، فقال : ﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٨٠] وتتركون إتيان نسائكم اللاتي جعلهن الله للاستمتاع الطبيعي بهن ، كما قال تعالى : ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٢٢].

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ﴾ أي لكن أنتم قوم متجاوزون الحد في الظلم وفي جميع المعاصي ، ومنها هذه الفعلة الشنيعة.

وقوله : ﴿بَلْ﴾ إضراب ، بمعنى الانتقال من شيء إلى شيء ، لا أنه إبطال لما سبق من الإنكار عليهم وتقبيح أفعالهم. والمراد : بل أنتم أحق بأن توصفوا بالعدوان ، حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة.

ولما نهاهم عن هذا الفعل القبيح توعدوه وهددوه :

﴿قالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي قال قوم لوط له : لئن لم تنته عن دعواك النبوة ، وعن الإنكار علينا فيما نأتيه من الذكور ، وهو ما جئتنا به ، لنطردنك وننفينك من هذه البلدة التي نشأت فيها ، ونبعدنك من بيننا ، كما أبعدنا من نهانا قبلك ، كما قال تعالى : ﴿فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٥٦].

فأجابهم بأن إبعاده لا يمنعه من الإنكار عليهم والتبرؤ منهم لما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه ، وأنهم مستمرون على ضلالتهم ، فقال :

﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ﴾ أي إني من المبغضين بغضا شديدا لعملكم ، فلا أرضاه ولا أحبه ، وإني بريء منكم ، وإن هددتموني وأوعدتموني بالطرد. وكونه بعض القالين يدل على أنه يبغض هذا الفعل ناس غيره ، هو بعضهم ، وقوله : ﴿مِنَ الْقالِينَ﴾ أبلغ من أن يقول : إني لعملكم قال.

وفيه تنبيه على أن هذا الفعل موجب للبغض ، حتى يبغضه الناس.

ثم دعا الله بإنجائه من سوء فعلهم قائلا :

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي يا ربّ ، خلّصني من عقوبة ما يعملون من المعاصي ، ونجني من شؤم أعمالهم.

والخلاصة : أنهم لما توعدوه بالإخراج ، أخبرهم ببغض عملهم ، ثم دعا ربّه بالنجاة من سوء فعلهم. فأجاب الله دعاءه :

﴿فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ أي فنجيناه وأهل بيته ومن آمن به جميعا ليلا من عقوبة عملهم ومعاصيهم ، إلا امرأة عجوزا هي امرأته ، وكانت عجوز سوء لم تؤمن بدين لوط ، بقيت مع القوم ولم تخرج ، فهلكت ، كما قال سبحانه : ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ﴾ [هود ١١ / ٨١] لأنها كانت راضية بسوء أفعالهم ، وتنقل إليهم الأخبار.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً ، فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي ثم أهلكنا القوم الآخرين الباقين الذين انغمسوا في المنكرات ، وكفروا بالله الذي خلقهم ، ولم يؤمنوا برسله ، وأنزلنا عليهم العذاب الذي عمّ جميعهم ، وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل منضود ، فبئس هذا المطر مطر المهلكين المنذرين بالهلاك. قال قتادة : أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم. وقال مقاتل : خسف الله بقوم لوط ، وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية ، ولم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط. وقال وهب بن منبّه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار ، أي فجر الله فيها البراكين النارية. و ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾ لم يرد بهم قوما بأعيانهم ، إنما هو للجنس ، والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم.

والخلاصة : أن عقابهم كان زلزالا شديدا جعل بلادهم عاليها سافلها ، وكان

مصحوبا بكبريت ونار وحجارة من السماء ، فأحرقت قراهم ، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود ١١ / ٨٢] فالعقوبة : هي الزلزال والبركان.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وهذه هي العبرة والخاتمة التي ختمت بها القصة ، كما ختمت بها قصص الأنبياء المتقدمين ، والمعنى : إن في تلك القصة لعبرة وعظة لكل متأمل ، حيث أهلك الله العصاة الموغلين في المعصية ، وهم اللوطيون ، ونجى المؤمنين الصالحين الذين أنكروا تلك الفاحشة ، وكانت امرأة لوط من الهالكين لتواطؤها مع قومها ، ومحبتها فعلهم ، ولم تنفعها صلتها بالنبي لوط عليه‌السلام ؛ لأن لكل امرئ ما اكتسب من الإثم ، وما كان أكثر هؤلاء القوم بمؤمنين ، بل كانوا وإن ربك لهو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين التائبين.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الكفر بالله تعالى ورسله ، والشذوذ الجنسي (اللواط) وترك الاستمتاع الطبيعي الحلال من طريق الزواج بالنساء ، مدعاة للانتقام الإلهي ، والعقاب الشديد في الدنيا والآخرة.

ومهمة النبي لوط عليه‌السلام كانت صعبة جدا في علاج هذا الأمر المتأصل المستعصي في قومه ، فأنكر عليهم أشد الإنكار ، ووبّخهم أشد التوبيخ ، ووصفهم بأنهم قوم موغلون في العدوان وتجاوز حدود الله ، وأعلن بغضه الشديد لعملهم ، بالرغم من تهديدهم له بالطرد والإبعاد من بلدهم.

ولما يئس لوط عليه‌السلام من إيمان هؤلاء القوم بالله ، والتطهر من فعل الفاحشة الشنيعة ، دعا ربه بأن ينجيه وأهله من عذاب عملهم ، وألا يصيبه من عذابهم ، وهذا يتضمن الدعاء عليهم ، ولا يدعو النبي على قومه إلا بإذن من ربه.

فأجاب الله دعاءه ، ونجاه وأهل بيته ومن آمن معه أجمعين من العقاب الأليم الذي أنزله بهم ، إلا امرأته العجوز بقيت في عذاب الله تعالى.

وكان العقاب الدنيوي هو الإهلاك بالخسف والحصب ، أي بالزلزال والبركان ، فأمطر الله عليهم الحجارة ، بأن خسف جبريل عليه السلام بقريتهم وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة.

إن في ذلك لآية وأي آية ، والعاقل من اتعظ بغيره ، ولم يكن من قوم لوط مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه ، والله قادر على الانتقام من أعدائه ، وهو في الوقت نفسه رحيم بأوليائه المؤمنين.

القصة السابعة

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

﴿كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ

يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾

الإعراب :

﴿الْأَيْكَةِ﴾ معرّف بالألف واللام ، ومجرور بالإضافة ، يقرأ بالهمزة وبتخفيفها ، وهو الوجه ويقرأ بلام أصلية مفردة «ليكة» بالنصب : اسم بلد ، على أنه ممنوع من الصرف للتعريف (العلمية) والتأنيث ، ووزنه «فعلة». والواقع أن أصل : «ليكة» : الأيكة ، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام تخفيفا ثم حذفت ، فاستغني عن همزة الوصل ، وصارت الكلمة «ليكة». وكتبت هنا وفي سورة «ص» بغير ألف اتباعا للفظ.

البلاغة :

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ إطناب ؛ لأن وفاء الكيل نهي عن الخسران.

المفردات اللغوية :

﴿الْأَيْكَةِ﴾ غيضة شجر كثير ناعم ملتف ، قرب مدين ، بعث الله إلى أهلها شعيبا عليه‌السلام ، كما بعث إلى مدين ، ولم يكن منهم نسبا ، وكان أجنبيا منهم ، ولذلك قال : ﴿إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل «أخوهم». جاء في الحديث : «إن شعيبا أخا مدين أرسل إليهم ، وإلى أصحاب الأيكة». ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه ﴿مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف. ﴿بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الميزان السوي أو العدل ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم من حقهم شيئا ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تفسدوا أشد الإفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق ، يقال : عثا في الأرض : أفسد فيها ، و ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لمعنى عاملها ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ أي ذوي الجبلة ، أي الخلقة والطبيعة ، يقال : جبل فلان على كذا ، أي خلق ، والمراد : أنهم كانوا على خلقة عظيمة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ من تقدمهم من الخلائق ﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾ المغلوبين على عقولهم بكثرة السحر.

﴿وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للرسالة ، مبالغة في تكذيبه ، أي المسحور البشر ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها

محذوف ، أي إنه ﴿لَمِنَ الْكاذِبِينَ﴾ في دعواك ﴿كِسَفاً﴾ جمع كسفة أي قطعة (وزنا ومعنى) والمراد قطع عذاب. ﴿الظُّلَّةِ﴾ السحابة التي أظلتهم بعد حر شديد أصابهم ، فاجتمعوا تحتها ، ثم أمطرتهم نارا فاحترقوا جميعا.

﴿إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هي مقالة الأنبياء السابقين نفسها.

المناسبة :

هذا آخر القصص السبع المذكورة في هذه السورة باختصار ، تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من إعراض قومه ، فيغتم ويحزن ، وتهديدا للمكذبين به ، وإعلاما باطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به ، واقتراحهم له استهزاء وعدم مبالاة به.

وهي قصة شعيب عليه‌السلام مع قومه أهل مدين : ﴿وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ ومع أهل الأيكة ، وهم قوم كانوا أصحاب غيضة وشجر وزرع وثمر ، بعثه الله إليهم ، لإصلاح الوضع الاجتماعي المتردي فيهم ، وهو بخس الكيل والميزان وتطفيفه ، والإفساد الشديد في الأرض ، فنصحهم بإيفاء الكيل والميزان ، وألا يعثوا في الأرض مفسدين ، فكذبوه ، فأهلكهم الله بعذاب يوم الظلة.

التفسير والبيان :

﴿كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي كذب أصحاب الغيضة وهي الشجر الكثير الملتفّ ، وكانت قرب مدين ، وقال ابن كثير : «أصحاب الأيكة : هم أصحاب مدين على الصحيح» [(١)]. كذبوا رسولهم الذي بعث إليهم ، وهو شعيب عليه‌السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٤٥.

كذبوه حين قال لهم شعيب : ألا تتقون عذاب الله؟! بالإيمان به وبرسوله وبالامتناع عن معاصيه. ولم يقل «أخوهم شعيب» لأنه كما يرى الزمخشري والبيضاوي والرازي لم يكن منهم نسبا. ورأى ابن كثير أنه تعالى قطع نسب الأخوة بينه وبينهم ، للمعنى الذي نسب إليهم وهو عبادة الأيكة وهي شجرة ، وإن كان أخاهم نسبا.

وحثهم بإخلاص على اتباع رسالته مطمئنا لهم بصراحة أنه رسول إليهم مرسل من عند الله ، أمين على تبليغ الرسالة بكاملها ، فاتقوا الله وخافوه بامتثال أمره واجتناب نهيه ، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وما أطلب منكم أجرا وجزاء ماديا أو معنويا كجاه أو سلطان أو رياسة على تبليغي الرسالة ، فما جزائي إلا على الله الذي أرسلني إليكم.

نصحهم بهذه النصائح الأساسية في رسالته ، ثم أمرهم بأشياء قائلا :

١ ـ إيفاء الكيل والميزان : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي إذا بعتم فأتموا الكيل والميزان ، ولا تكونوا ممن ينتقص الناس حقوقهم ، وإذا اشتريتم فلا تزيدوا في الوزن والكيل طمعا بأموال الناس ، كما لو بعتم ، أي أن الواجب يقتضي المساواة في الأخذ والعطاء ، فخذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي وزنوا بالميزان العادل السوي ، ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١ ـ ٤] فهذا نهي عن التطفيف في الكيل والوزن ، يشمل المساواة في الأخذ والعطاء والبيع والشراء.

ثم نهاهم عن الظلم والبخس نهيا عاما في كل حق فقال :

٢ ـ عدم إنقاص الحقوق : ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ أي ولا تنقصوهم أموالهم أو حقوقهم في أي شيء مكيل أو موزون ، مذروع أو معدود ، فشمل كل المقادير ، وأوجب العدل في المقاييس عامة ، كيلا أو وزنا أو مساحة أو قدرا ، كذلك شمل حقوقهم الأدبية والمعنوية كالحفاظ على الكرامة والعرض ، قال الرازي : وهذا عام في كل حق يثبت لأحد ألا يهضم ، وفي كل ملك ألا يغصب مالكه ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفا شرعيا. ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض بجميع أنواعه فقال :

٣ ـ عدم الإفساد : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تفسدوا أشد الإفساد في الأرض كقطع الطريق والغارة والنهب والسلب والقتل وإهلاك الزرع وغير ذلك من أنواع الفساد التي كانوا يفعلونها.

٤ ـ تقوى الله : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وخافوا بأس الله الذي تفضل عليكم بخلقكم وخلق من تقدمهم من ذوي الخلقة المتقدمين ، من آبائهم الذين انحدروا منهم وكانوا في الظاهر سبب وجودهم وخلقهم ، ومنهم أصحاب البأس والقوة والمال كقوم هود وقوم صالح. وهذا كما قال موسى عليه‌السلام سابقا : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٢٦].

فأجابوه بالطعن في رسالته من ناحيتين ، ثم بالاستخفاف بالوعيد والتهديد. أما الطعن فهو :

١ ـ ﴿إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ أي ما أنت إلا رجل مسحور مغلوب على عقله ، فلا يسمع لقولك ، ولا يؤبه لنصحك. وهذا مثلما أجابت به ثمود رسولها ، تشابهت قلوبهم ، واتفقت منازع الكفر فيهم.

ثم قالوا له : إنك مثلنا بشر ، فما الذي فضّلك علينا ، وجعلك نبيا ورسولا دوننا؟!. وأتوا بالواو في قولهم ﴿وَما﴾ للتعبير عن قصدهم معنيين كلاهما مناف

للرسالة في تقديرهم : السحر والبشرية. وإذا تركت الواو فلم يقصدوا إلا معنى واحدا ، وهو كونه مسحرا ، ثم قرروا كونه بشرا مثلهم.

٢ ـ ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ﴾ أي ويغلب على ظننا أنك ممن تعمد الكذب فيما يقول ، ولست ممن أرسلك الله إلينا.

وأما الاستخفاف بالتهديد فهو :

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي إن كنت صادقا في تهديدك ووعيدك بأننا سنعذب ، فأنزل علينا قطعا من السحاب فيها نوازل العذاب. وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والعناد واستبعادهم وقوع العذاب. وبعبارة أخرى : إن كنت صادقا أنك نبي ، فادع الله أن يسقط علينا كسفا من السماء. والسماء : السحاب أو المظلة.

وهذا شبيه بما قالت قريش للنبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى : ﴿وَقالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى أن قالوا : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء : ١٧ / ٩٠ ـ ٩٢] وقوله سبحانه : ﴿وَإِذْ قالُوا : اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

وهم بهذا ظنوا أنه إذا لم يقع العذاب ظهر كذبه ، فأجابهم شعيب عليه‌السلام : ﴿قالَ : رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ أي قال شعيب : الله ربي أعلم بعملكم ، فيجازيكم عليه ، إما عاجلا وإما آجلا ، وأما أنا فلا قدرة لي على إنزال العذاب ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به ، وهو غير ظالم لكم.

وهذا دليل على أنه لم يدع عليهم ، بل فوض الأمر في التعذيب إلى الله تعالى ، فلما استمروا في التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظّلّة ، فقال تعالى :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي فلما أصروا على التكذيب واستمروا عليه ، جوزوا بعذاب الظلة وهو أنهم أصيبوا بحر عظيم ، أخذ بأنفاسهم ، لا ينفعهم ظل ولا ماء ، فاضطروا إلى الخروج إلى البرية ، فأظلتهم سحابة ، وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا ، فاحترقوا جميعا. وهذا كما حكى الله تعالى بقوله : ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا : سَحابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور ٥٢ / ٤٤].

إن ذلك العذاب عذاب شديد الهول ، عظيم الوقع ، أدى إلى الإفناء :

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي في تلك القصة البليغة لعبرة وعظة يا أهل مكة وغيركم من الكفار ، تلك العبرة الدالة بوضوح على صدق الرسل ، ومجيء العذاب بتوقيت الله ، وما كان أكثر قوم شعيب بمؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي وإن الله ربك يا محمد لهو القادر على الانتقام من الكافرين ، الرحيم بعبادة المؤمنين.

وهذه هي الخاتمة بذاتها التي ختمت بها القصص السبع المذكورة في هذه السورة للدلالة على وجوب استنباط العظة والعبرة من كل قصة ، وكلها دليل قاطع على أن القرآن كلام الله الذي يخبر وحده عن الغيب : ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ [يوسف ١٢ / ١١١].

فقه الحياة أو الأحكام :

تكرر في المناسبة والتفسير بيان الهدف العام من هذه القصة وغيرها من القصص السابقة ، وكان مجموعها في هذه السورة سبعا ، فإن الله تعالى أنزل في قرآنه هذه القصص تسلية لرسوله محمد ﷺ ، وإزالة للحزن عن قلبه ، بسبب صدود الناس عن دعوته ، وهي تسرية دائمة لكل داعية مخلص ، حتى لا ييأس

ولا يعجز ، ولا يلين ولا يقف عن السير في دعوته ، فيستمر ثابت الخطا ، ماضي العزم ، رافع الرأس معتزا بما يقوم به.

والخلاصة : أن السبب في تشابه بداية هذه القصص وآخرها : هو التأكيد وتقرير المعاني في النفوس وتثبيتها في الصدور.

وفهم من هذه القصص أن الله هو الذي أنزل العذاب على المكذبين لرسله ، وأنه إنما أنزله عليهم جزاء وفاقا على كفرهم ، لا ظلما ولا تشفيا ولا ثارا ، وإنما لإرساء معالم الحق ، وتوطيد صرح العدل بين الخلائق.

ويلاحظ أن جميع الأنبياء متفقون على أصول الرسالات من الدعوة إلى توحيد الله ، واحترام الفضائل ومحاربة الرذائل ، ثم يقوم كل واحد منهم بمعالجة الظواهر المرضية ، والأوضاع الشاذة عند قومه ، فهذا هود عليه‌السلام ينكر على قومه العبث بالبناء ، والطمع في الدنيا كأنهم مخلدون ، والبطش بطش الجبارين وغير ذلك من النزعات المعنوية المغالية ؛ وهذا صالح عليه‌السلام ينكر على قومه إقامة البيوت في الجبال بطرين أشرين مستكبرين ، حريصين على الملذات الحسية المادية ؛ وهذا لوط عليه‌السلام يستنكر الفاحشة الشنيعة وهي إتيان الذكور في أدبارهم ، وترك إتيان النساء الأزواج في أقبالهن ؛ وهذا شعيب ينكر على قومه الظلم الاجتماعي بسرقة أموال الناس وإهدار حقوقهم بتطفيف الكيل والميزان ، فيأمرهم بإيفاء الكيل والوزن كاملا غير زائد ولا ناقص ، وبألا يبخسوا الناس أشياءهم ، وألا يعثوا في الأرض فسادا ، وأن يتقوا الله الذي خلقهم وخلق آباءهم العظام الأولين. ومن أنعم بهذه النعم كان هو المستحق للعبادة ، لكنهم قوم ظالمون كافرون بالقيم والأخلاق الاجتماعية ، مستصغرون وعيد الرسل ، مستخفون بنصحهم ووعظهم.

وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحدا على صيغة واحدة : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى ، والطاعة والإخلاص في العبادة ،

والامتناع عن أخذ الأجر على تبليغ الرسالة.

واتفق هؤلاء الرسل على الترفع عن مقابلة إساءة أقوامهم لهم واتهاماتهم الباطلة ، والصبر على الدعوة ، وتفويض الأمر الحازم الحاسم بإنزال العذاب وغيره إلى الله عزّوجلّ ، ليبقوا في مرتبة البشرية التي ظنها الكفرة نقصا ، وهي في الحقيقة عنوان العبودية لله عزّوجلّ .

وأما صفة عذاب قوم شعيب وإهلاكهم ، فإن الله أبانها في ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ؛ لأنهم قالوا : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾ [٨٨] فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة.

وفي سورة هود قال : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [٦٧] ولأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم : ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [٨٧] قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الآية.

وهاهنا قالوا : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ الآية على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه : ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قال عبد الله بن عمر رضي‌الله‌عنه : إن الله سلّط عليهم الحر سبعة أيام ، حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة ، فانطلق إليها أحدهم ، فاستظل بها ، فأصاب تحتها بردا وراحة ، فأعلم بذلك قومه ، فأتوها جميعا ، فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم نارا [١].

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٤٦.

إنزال القرآن من عند الله لإنذار المشركين وبشارة المؤمنين

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (٢٠٩) وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (٢١٠) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

الإعراب :

﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ﴾ متعلق بنزل ، ويجوز أن يتعلق بالمنذرين ، أي لتكون من المنذرين بلغة العرب.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ اسم يكن ، و ﴿آيَةً﴾ خبر مقدم ، و ﴿لَهُمْ﴾ متعلق بحال ، والتقدير : أولم يكن لهم علم بني إسرائيل آية لهم. و ﴿يَكُنْ﴾ يقرأ بالياء والتاء. وعلى قراءة التاء تكون : آية خبر : تكن ، والتاء لتأنيث القصة ، و ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ في موضع رفع مبتدأ ، و ﴿لَهُمْ﴾ خبر مقدم ، والتقدير : أولم تكن القصة علم بني إسرائيل آية لهم.

﴿الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجمي ، وهو من لا يتكلم بالعربية ، أصله : أعجمين ، فاستثقلوا

اجتماع الأمثال ، فحذفوا الياء الثانية من ياءي النسب ، ثم حذفوا الياء الأولى لالتقاء الساكنين ، مثل حذفهم ياءي النسب في «الأشعرين ومقتدين والياسين».

﴿ما أَغْنى عَنْهُمْ ما﴾ إما استفهامية في موضع نصب ب ﴿أَغْنى﴾ وإما نافية ، و ﴿ما﴾ «الثانية» في موضع رفع ب ﴿أَغْنى﴾.

﴿ذِكْرى﴾ إما منصوب على المصدر ، أي ذكّرنا ذكرى ، وإما منصوب على الحال ، وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : إنذارنا ذكرى.

البلاغة :

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ التأكيد بإن واللام لدفع شبهة المتشككين في صحة نزول القرآن.

﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتبكيت.

﴿يَعْلَمَهُ عُلَماءُ﴾ جناس اشتقاق.

﴿وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ مجاز مرسل ، أي من أهل قرية ، من إطلاق المحل وإرادة الحال.

المفردات اللغوية :

﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ هو جبريل عليه‌السلام ، فإنه أمين على وحي الله تعالى ﴿عَلى قَلْبِكَ﴾ على روحك ؛ لأنه مركز الإدراك والتكليف دون الجسد ﴿مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ واضح المعنى ، لئلا يقولوا : ما نصنع بما لا نفهمه؟ وقوله : ﴿مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ معناه من الذين أنذروا بلغة العرب ، وهم خمسة : هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، إذا تعلق قوله ﴿بِلِسانٍ﴾ بالمنذرين. وأما إذا تعلق بنزل فمعناه نزله باللسان العربي لينذر به ؛ لأنه لو نزله باللسان الأعجمي لقالوا له : ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به ، فتنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك ؛ لأنك تفهمه ويفهمه قومك.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن المنزل على محمد ﴿لَفِي زُبُرِ﴾ كتب جمع زبور ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ أي أولم يكن لكفار مكة دليلا وبرهانا على صحة القرآن ، أو نبوة محمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «أن يعلمه علماء بني إسرائيل» أن يعرفه هؤلاء العلماء ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن آمنوا ، فإنهم يخبرون بذلك ، بما هو مذكور في كتبهم.

﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ قرأه محمد عليه‌السلام على كفار مكة ﴿ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ما صدقوا به

أنفة من اتباعه ، ولفرط عنادهم واستكبارهم ﴿كَذلِكَ سَلَكْناهُ﴾ أدخلناه ، أي مثل إدخالنا التكذيب به أدخلنا التكذيب به في قلوب المجرمين أي كفار مكة بقراءة النبي ﷺ ، وضمير أدخلناه عائد للكفر المدلول عليه بقوله : ﴿ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وهو يدل على أن الكفر بخلق الله تعالى ، وقيل : يعود الضمير للقرآن ، أي أدخلناه في قلوبهم ، فعرفوا معانيه وإعجازه ، ثم لم يؤمنوا به عنادا. ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان.

﴿بَغْتَةً﴾ فجأة في الدنيا والآخرة ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ﴿مُنْظَرُونَ﴾ مؤخرون لنؤمن به ، ويقولون ذلك تحسرا وتأسفا ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ فيقولون : ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢] ، ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ [الأعراف ٧ / ٧٠ وهود ١١ / ٣٢ والأحقاف ٤٦ / ٢٢] ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أخبرني ﴿ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿ما أَغْنى عَنْهُمْ ما﴾ استفهامية بمعنى أي شيء ، أو نافية ، أي لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب أو تخفيفه.

﴿لَها مُنْذِرُونَ﴾ رسل تنذر أهلها إلزاما للحجة ﴿ذِكْرى﴾ تذكرة وعظة لهم ﴿وَما كُنَّا ظالِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم. وهو رد لقول المشركين ﴿وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بالقرآن ﴿الشَّياطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما تلقي الشياطين على الكهنة ﴿وَما يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أي ما يتيسر ولا يتسنى ولا يصح لهم أن يتنزلوا به ﴿وَما يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي ما يقدرون على ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾ أي لممنوعون بالشهب ؛ لأن نفوسهم خبيثة شريرة بالذات لا تقبل ذلك.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٠٥)

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ ...﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال : «رئي النبي ﷺ ، كأنه متحير ، فسألوه عن ذلك ، فقال : ولم ، ورأيت عدوي يكون من أمتي بعد؟ فنزلت : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ ، ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ فطابت نفسه».

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصص الأنبياء تسلية لرسوله ، ووعدا له بالفوز

والغلبة ، وإنذارا للمشركين من تكذيبه ، حتى لا يهلكوا كما أهلك المكذبون السابقون ، أردفه ببيان ما يدل على نبوته ﷺ من تنزيل القرآن المعجز على قلب نبيه ﷺ. كذلك لتتناسب خاتمة السورة مع فاتحتها التي افتتحت بالحديث عن إعراض المشركين عما يأتيهم من الذّكر : ﴿وما يَأْتيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ، فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ [٥ ـ ٦].

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن خواص الكتاب الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ بأنه وحي من عند الله ، بلسان عربي ، وللدلالة على نبوته ﷺ ، وذلك من وجهين :

الدليل الأول :

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي إن القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة : ﴿وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ﴾ هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ؛ لأنه لفصاحته كان معجزا ، فكان تنزيله من ربّ العالمين ، كما أن فيه إخبارا عن القصص الماضية من غير تعليم ، وذلك لا يكون إلا بوحي من الله تعالى. نزل به جبريل الأمين على الوحي والرسالة ، ذو المكانة عند الله ، المطاع في الملأ الأعلى ، على قلبك أي على روحك المدركة الواعية ، وفهمك إياه ، سالما من الدنس والزيادة والنقص ، لتنذر به قومك والعالم كله بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له بالجنة والنعيم المقيم في الآخرة ، وكان إنزاله باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ، ليكون بيّنا واضحا قاطعا للعذر ، مقيما للحجة ، دليلا على الحق ، هاديا إلى الرشاد ، مصلحا أحوال العباد.

وقوله ﴿عَلى قَلْبِكَ﴾ دليل على أن القرآن محفوظ ، وأن الرسول ﷺ متمكن منه ، وثابت في وعيه ؛ لأن القلب موضع التمييز ، ومركز الحواس الروحية ، ومحل الإدراك والوعي ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق ٥٠ / ٣٧] ، وقال ﷺ فيما أخرجه الصحيحان : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب». وندد تعالى بأن قلوب الكفار مغلقة ، فقال : ﴿أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ [محمد ٤٧ / ٢٤] ، وقال : ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٦].

وقوله : ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ توبيخ للمشركين في مكة وتقريع لهم وتحريض على الإيمان به ، فإنهم كذبوه لا لعسر فهمه ، فهو بلغتهم ، وإنما بسبب العناد والاستكبار والأنفة.

وقوله : ﴿مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ يدخل تحت الإنذار الدعاء إلى كل واجب من علم وعمل ، والمنع من كل قبيح ؛ لأنه في كلا الحالين يوجد الخوف من العقاب.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب المتقدمين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، عملا بالميثاق الذي أخذ به عليهم ، وعبر عنه آخرهم وهو عيسى مبشرا بأحمد : ﴿وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يا بَنِي إِسْرائِيلَ ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف ٦١ / ٦] والزبر هنا : هي الكتب ، وهي جمع زبور ، ومنها زبور داود أي كتابه. وكذلك جميع الكتب السابقة المنزلة على الأنبياء بشرت بالنبي ﷺ وبأنه سينزل عليه قرآن يشهد بصدقها ، ويهيمن عليها : ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ ، وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٨٩]. وقال سبحانه أيضا : ﴿وَأَنْزَلْنا

إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة ٥ / ٤٨].

والخلاصة : إن هذه الآيات تتضمن أدلة ثلاثة على أن القرآن من عند الله : وهي كونه منزلا على قلب النبي الأمي الذي لم يسبق له علم بشيء منه ، والذي وعاه وحفظه وأنذر به ، وكونه بلسان عربي مبين تحدى به العرب على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، بل بسورة منه ، فعجزوا ، مما يدل على أنه من عند الله ، لا من عند محمد ، وكونه منوها به ومبشرا به في الكتب السماوية السابقة. وإذا ثبت كون القرآن من عند الله ، ثبتت نبوة النبي المصطفى ﷺ.

الدليل الثاني على نبوته ﷺ وصدقه :

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾؟ أي أوليس يكفيهم شاهد على صدقه أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها من التوراة والإنجيل ، وبيان صفة النبي ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي ، وكان مشركو قريش يذهبون إليهم ويسألونهم عن ذلك ويتعرفون منهم هذا الخبر. ذكر الثعلبي عن ابن عباس : أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي ﷺ ، فقالوا : هذا أوانه ، وذكروا نعته. (١)

وقال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ..﴾ الآية [الأعراف ٧ / ٥٧].

وهذا يدل دلالة واضحة على نبوته ﷺ ؛ لأن تطابق الكتب الإلهية على إيراد نعته ووصفه يدل قطعا على نبوته.

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ٤١.

وبعد أن بيّن الله تعالى بالدليلين المذكورين نبوة محمد ﷺ وصدق لهجته ، بيّن بعدئذ أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين ، فقال :

﴿وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ولو فرضنا أننا أنزلنا هذا القرآن على بعض الأعاجم ، وهم الذين لا ينطقون باللغة العربية ، فضلا عن أن يقدروا على نظم مثله ، فقرأه عليهم فصيحا معجزا متحدى به ، لكفروا به أيضا ، كما جاء في آية أخرى : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٤] ، وذلك بحجة عدم فهمهم له. أما العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وإعجازه ، فلا عذر لهم في عدم الإيمان به.

وعلى هذا ، الأمر سيّان ، فسواء أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين ، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وإعجازه ، أو أنزلناه على أعجمي لا يحسن العربية لكفروا به.

وهذا دليل ملموس على تعنت كفار قريش وعنادهم وشدة كفرهم ، مع أنهم عرفوا الحق ، وأدركوا سرّ فصاحة القرآن وبلاغته ، ولكنهم تجاهلوه عصبية وأنفة واستكبارا. وفيه أيضا تسلية لرسول الله ﷺ وتخفيف لأحزانه لإعراض قومه عن الإيمان برسالته.

ثم أكد الله تعالى هذا الموقف المتعنت فقال :

﴿كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي أدخلناه ومكنّاه ، والمعنى : مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجمي على العرب ، أدخلنا التكذيب به في قلوب المجرمين كفار قريش. والمقصود أنه مهما فعلنا من إنزال القرآن على عربي أو أعجمي ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الجحود والإنكار ، فإن الكفر به والتكذيب له متمكن في قلوبهم ، فلا ينفعهم في اقتلاع الكفر من

نفوسهم أي وسيلة علاج أو إصلاح ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ ، فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ، لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام ٦ / ٧].

وهذا أيضا مما يفيد تسلية الرسول ﷺ ؛ لأنه إذا عرف هذا الرسول إصرارهم على الكفر ، وأنه تمّ القضاء به لسبق علم الله بموقفهم المتصلب الذي لا يتغير ، حصل له اليأس من إيمانهم والاطمئنان على سلامة موقفه منهم ، وأنه لا ضير عليه في ذلك.

وزاد في التأكيد والتوضيح والبيان فقال :

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ أي إنهم يظلون كافرين ، غير مؤمنين بالحق ، جاحدين له في قلوبهم ، لا يزالون على التكذيب به ، حتى يعاينوا العذاب الشديد الألم.

ثم أخبر الله تعالى عما هو أشد من العذاب وهو مجيئه فجأة ، فقال :

﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي إن هذا العذاب يأتي أولئك المكذبين بالقرآن فجأة ، دون أن يشعروا بمجيئه ، وحينئذ يتحسرون ، كما قال تعالى :

﴿فَيَقُولُوا : هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾؟ مؤخرون ، أي إنهم يتمنون حينئذ تأخير العذاب قليلا حينما يشاهدونه ، ليتداركوا ما فاتهم ، ويعملوا في زعمهم بطاعة الله تعالى ، ولكن لا ينفعهم الندم ولن يؤجلوا ؛ لأنهم يعلمون ألا ملجأ في الآخرة ، وإنما يذكرون ذلك استرواحا.

ومع هذا البيان والإنذار تغلب عليهم الحماقة والجهل ، فيطلبون تعجيل العذاب ، فقال : ﴿أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ أي كيف يطلبون تعجيل

العذاب ، بقولهم : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٨٧] ، وقولهم : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا﴾ [الأعراف ٧ / ٧٠] ، وهم عند نزول العذاب يطلبون التأجيل والتأخير ، فهم قوم متناقضون.

وهذا إنكار عليهم وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول ﷺ تكذيبا واستبعادا : ﴿ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٩].

ثم بيّن الله تعالى أن استعجال العذاب على وجه التكذيب إنما يحدث منهم ليتمتعوا في الدنيا ، فقال :

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ ، ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أي لو فرض أيها المخاطب أننا لو أطلنا في عيشهم ليتمتعوا من نعيم الدنيا طوال سنين ، ثم جاءهم العذاب الموعود به فجأة ، فلا يجدي أي شيء عنهم ولا ما كانوا فيه من النعيم ، ولا يخفف من عذابهم ، ولا يدفعه عنهم ؛ لأن مدة التمتع في الدنيا مهما طالت متناهية قليلة ، ومدة العذاب في الآخرة غير متناهية ، كما قال تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات ٧٩ / ٤٦] ، وقال سبحانه : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة ٢ / ٩٦] ، وقال عزّوجلّ : ﴿وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى﴾ [الليل ٩٢ / ١١].

عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن البصري في الطواف بالكعبة ، فقال له : عظني ، فلم يزد على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت [1].

وفي الحديث الصحيح : «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط؟ هل رأيت نعيما قط؟ فيقول : لا والله يا ربّ ، ويؤتى

---

(١) تفسير الرازي : ٢٤ / ١٧١.

بأشد الناس بؤسا كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ، فيقول : لا والله يا ربّ» أي كأن شيئا لم يكن.

ثم أخبر الله تعالى عن قانون عدله التام الدائم في خلقه ، وهو أنه لا يعذب قوما إلا بعد إنذار ، ولا يهلك أمة إلا بعد إعذار وبيان الحجة ، وبعثة الرسل ، فقال :

﴿وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ ، ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ﴾ أي وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد إرسالنا إليهم رسلا ينذرونهم من عذابنا على كفرهم ، ويبشرونهم بالنعيم إن آمنوا وأطاعوا ، وذلك تذكرة لهم وتنبيه إلى ما يجب عليهم ، ولم نكن في أي حال ظالمين لهم في عقابهم ، وإنما أصروا على الكفر والجحود وعبادة غيرنا.

وهذا المبدأ شهير مكرر في القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٥] ، وقوله سبحانه : ﴿وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٩].

ثم ردّ الله تعالى على المشركين الذين كانوا يقولون : إن محمدا كاهن ، وإن ما أنزل عليه من القرآن مثلما تلقي الشياطين على الكهنة ، فقال :

﴿وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ، وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي إن القرآن العظيم لم تلق به الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة ، ولا يتيسر لهم ولا يسهل ولا يتمكنون من ذلك ، فهم عن سمع الملائكة التي تنزل بالوحي مرجومون بالشهب ، معزولون عن استماع كلام أهل السماء.

فهذا الإنزال يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه [١] :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٤٩.

أحدها :

أنه ليس هو من بغيتهم ولا من مطلبهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وفي القرآن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو هدى ونور وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، وتغاير شديد.

الثاني :

أنّه لو انبغى لهم لما استطاعوا تحمله ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢١].

الثالث :

أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله ، وتأديته لما وصلوا إليه ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا ، في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لئلا يشتبه الأمر.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ القرآن الكريم : كلام الله القديم المنزل بواسطة جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ باللسان العربي المبين ، والذي أعلنت عن نزوله كتب الأنبياء المتقدمين. نزل به جبريل عليه‌السلام إلى النبي ﷺ ، فتلاه عليه ، ووعاه قلبه منه ، ورسخ في عقله رسوخا كالنقش في الحجر ، قال تعالى : ﴿قُلْ : مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ، فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ ..﴾ [البقرة ٢ / ٩٧] ، وقال سبحانه : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ﴾ [القيامة ٧٥ / ١٦ ـ ١٩].

ونزوله بلغة العرب لئلا يقولوا : لسنا نفهم ما تقول. وبشّرت بنزوله كتب الأنبياء المتقدمين ، كما بشّرت ببعثة محمد ﷺ .

٢ ـ أثبتت الآيات نبوة النبي محمد ﷺ ، لأنه مع كونه أميّا بهر العالم ببلاغة القرآن وفصاحته ، وإخباره عن المغيبات ، وإثرائه الحياة بأنظمة سديدة رصينة لا تقبل الطعن ولا النقد ، وهذا العطاء الإلهي دليل قاطع على النبوة. كما أن من الأدلة على النبوة علم أهل الكتاب بأوصاف النبي ﷺ ونعوته ، سواء من أسلموا أو لم يسلموا.

وإنما صحت شهادة أهل الكتاب وصارت حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون إليهم في شؤون الدين ، يسألونهم عن مدى تطابق القرآن مع ما أخبرت به كتبهم الدينية.

٣ ـ إن مهمة النبي ﷺ وغيره من الأنبياء هي الإنذار ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ويدخل في الإنذار الدعوة إلى كل واجب من علم وعمل ، والمنع من كل قبيح.

٤ ـ إن كفر المشركين من أهل مكة بالقرآن مجرد عناد واستكبار ، دون دليل ولا برهان ، وإنما على العكس علموا بأنه الحق ثم جحدوه ، وكان تحدي القرآن لهم بالإتيان بمثل سورة منه حجة عليهم ، فهو منزل بلغتهم ، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله ، وانضم إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به ، فلم يؤمنوا به وجحدوه عنادا وأنفة ومكابرة ، وسموه ـ زورا وبهتانا ـ شعرا تارة ، وسحرا أخرى.

ولو نزل هذا القرآن على رجل ليس بعربي اللسان (أعجمي) فقرأه على كفار قريش بغير لغة العرب ، لما آمنوا ولقالوا : لا نفقه ما نسمع. فهذا إلزام

لهم ، وإنكار عليهم ، وفضح لأحوالهم ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم فهم أولى الناس بالإيمان به.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الموقف المتعنت بقوله تعالى : ﴿كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي إن الذي منعهم من الإيمان ، وإعلان الكفر بالقرآن والتكذيب به هو الإصرار على ما هم عليه والحفاظ على رياساتهم ومصالحهم المادية ، حتى أصبح ذلك مدخلا سالكا في قلوبهم ، خلقا غير قابل للتغيير والتبديل ، بمنزلة أمر جبلوا عليه وفطروا ، كما يقال : فلان مجبول على الشّح ، والمراد تمكن الشّح فيه.

ولا يتصور إيمانهم بالقرآن والنبي ﷺ إلا حين مشاهدة العذاب المؤلم ومعاينته ، ومجيئه فجأة دون أن يشعروا به ، وهو إما عذاب الدنيا ، وإما عذاب الساعة (القيامة) وحينئذ يقولون : هل نحن مؤخرون وممهلون ، إنهم يطلبون الرجعة إلى الدنيا فلا يجابون إليها.

ومعنى التعقيب في قوله تعالى : ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، ... فَيَقُولُوا﴾ كما ذكر الزمخشري : ليس ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال التأخير فيه في الوجود ، وإنما المعنى ترتبها في الشدة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب ، فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم فجأة ، فما هو أشد منه ، وهو سؤالهم التأخير. ومثال ذلك : أن تقول لمن تعظه : إن أسأت مقتك الصالحون ، فمقتك الله ، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب : أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، إنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشد من مقتهم ، وهو مقت الله [1].

٥ ـ كان جزاء هذا الموقف المتعنت لكفار قريش تبكيتهم بالإنكار عليهم

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤٣٧

والتهكم على أمر آخر ، وهو : كيف يستعجل العذاب المعرّضون للعذاب؟ ثم يشنع القرآن عليهم ويوبخهم على حبهم إطالة الاستمتاع بالدنيا ، فذلك العذاب المنتظر والهلاك كائن لا محالة ، ولا يغني عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه.

عن الزهري : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح ، أمسك بلحيته ، ثم قرأ : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ ، ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

٦ ـ اقتضت عدالة الله ورحمته ألا يهلك قوما أو يعذب أهل قرية إلا بعد إرسال الرسل المنذرين لهم بأس الله وعذابه ، فإذا جاء العذاب أو العقاب ، لم يكن الله ظالما في تعذيبهم ، حيث قدم الحجة عليهم وأعذر إليهم.

٧ ـ القرآن ـ كما تقدم ـ نزل به الروح الأمين من عند الله تعالى ، ولم تنزل به الشياطين ، فإنه لا يتيسر لهم إنزاله ، ولا يستطيعون تحمله وتأديته ، ولا يتمكنون من اختلاسه واستراقه ؛ لأنهم معزولون عن سمع ملائكة السماء برمي الشهب عليهم فتحرقهم.

٨ ـ محل العقل : ورد في الآية أن القرآن منزل على قلب النبي ﷺ فهل المراد بالقلب العضو المعروف في الجانب الأيسر من الإنسان أم العقل الكائن في الدماغ؟ المعروف لدى علماء الطب والتشريح المعاصر أن محل العقل الدماغ. أما العلماء القدماء فانقسموا فريقين : فريق يرى أن محل العقل القلب ، وفريق آخر يرى أن محل العقل الدماغ [1].

واستدل الفريق الأول بالأدلة التالية :

الأول ـ قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ

---

(١) تفسير الرازي : ٢٤ / ١٦٧.

بِها﴾؟ [الحج ٢٢ / ٤٦] ، وقوله : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ [الأعراف ٧ / ١٧٩] ، وقوله : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ، وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ٣٧] أي عقل ، أطلق عليه اسم القلب ؛ لأنه محله.

الثاني ـ أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب ، وقال : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٠] ﴿خَتَمَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة ٢ / ٧] ﴿قُلُوبُنا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء ٤ / ١٥٥] ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة ٩ / ٦٤] ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح ٤٨ / ١١] ﴿كَلَّا ، بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين ٨٣ / ١٤] ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ [محمد ٤٧ / ٢٤] ، ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٦] دلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب ، فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب.

الثالث ـ إذا أمعن الإنسان في الفكر وغيره أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك ، مما يدل على أن موضع العقل هو القلب ، فوجب أن يكون المكلف هو القلب ؛ لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم.

الرابع ـ أن القلب أول الأعضاء تكونا ، وآخرها موتا.

واحتج الفريق الثاني القائل بأن العقل في الدماغ بما يأتي :

الأول ـ أن الحواس التي هي آلات الإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب ، أي إن الدماغ محل الإحساس.

الثاني ـ أن الأعصاب آلات الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب ، أي إن الدماغ مركز التنبيه العصبي.

الثالث ـ أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل ، مثل الجنون والنزف الدماغي.

الرابع ـ جرى العرف على أن من أريد وصفه بقلة العقل ، قيل : إنه خفيف الدماغ ، خفيف الرأس.

الخامس ـ أن العقل أشرف أجزاء الإنسان ، فيكون مكانه أشرف ، والأعلى هو الأشرف ، وذلك في الدماغ ، لا القلب.

ورأيي هو ترجيح الرأي الثاني ؛ لأن العلم الحديث أجري مئات التجارب على الدماغ وما فيه من مخ ومخيخ ، فوجد أنه محل العقل والإحساس والتنبيه والذاكرة وغير ذلك من وظائف الدماغ ، فدل على أنه هو محل العقل. أما الآيات القرآنية المتقدمة التي يفهم منها كون العقل في القلب ، فذلك من قبيل الإطلاق العرفي السائد في الكلام ، والذي يراد به العقل ، فيقال : لا قلب عنده ، أي لا عقل.

أما القيم الأدبية أو الأخلاقية : فمحلها القلب باعتباره المعبر عن النفس الإنسانية التي لا حياة فيها إلا بالقلب.

ثم إن المعاني المتقدمة التي تختص بالقلوب ، ويراد بها المعاني العقلية كالنية والمعلومات والمعارف ، قد تنسب إلى الصدر تارة ، وإلى الفؤاد أخرى. أما الصدر : فلقوله تعالى : ﴿وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات ١٠٠ / ١٠] ، وقوله : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٤] ، وقوله : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك ٦٧ / ١٣] ، ﴿إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ [آل عمران ٣ / ٢٩].

وأما الفؤاد فقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ﴾ [الأنعام ٦ / ١١٠].

آداب الداعية وواجباته

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾

البلاغة :

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ بأسلوب التهييج والإلهاب ، لما عرف عنه من زيادة إخلاص وتقوى.

﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استعارة مكنية ، حذف منها المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، شبّه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الهبوط ، فأطلق على المشبه اسم الخفض.

المفردات اللغوية :

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ إن فعلت شيئا مما دعوك إليه ، وهذا تهييج للنبي ﷺ وإلهاب لزيادة الإخلاص ، وتحذير لسائر المكلفين. ﴿عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ هم بنو هاشم وبنو المطلب ، وقد أنذرهم جهارا ، كما روى البخاري ومسلم ، وبدأ بالأقرب منهم فالأقرب ؛ لأن الاهتمام بشأنهم أهم ، روى أحمد ومسلم وغيرهما أنه ﷺ : «لما نزلت هذه الآية ، صعد الصفا ، وناداهم فخذا فخذا ، حتى اجتمعوا إليه ، فقال : لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا ، أكنتم مصدّقي؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ﴾ ألن جانبك. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ، و ﴿لِمَنِ﴾ : بيانية أو للتبيين. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك أي عشيرتك. ﴿بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة غير الله ، أي مما تعملونه أو من أعمالكم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي فوض إلى الله جميع أمورك ، فهو الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد (صلاة الليل). ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ تغير أحوالك في أركان الصلاة ، قائما وقاعدا وراكعا وساجدا. ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ المصلين. وإنما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحال نبيه التي بها يستأهل ولايته ، بعد أن وصف تعالى نفسه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه ، تحقيقا للتوكل ، وتطمينا لقلبه عليه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن جريج قال : لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ بدأ بأهل بيته وفصيلته ، فشقّ ذلك على المسلمين فأنزل الله : ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

المناسبة :

بعد أن بالغ الله تعالى في تسلية رسوله أولا بقصص الأنبياء وما تبعها ، ثم أقام الحجة على نبوته ثانيا ، ثم أجاب عن سؤال المنكرين ، أمره بعد ذلك بما يتعلق بالتبليغ والرسالة ، فرتب له طريق الإنذار بدءا بالأقرب فالأقرب. والرفق بالمؤمنين ، ثم ختم وصاياه له بالتوكل عليه تعالى وحده.

سيرته ﷺ في التبليغ :

وردت أحاديث كثيرة توضح كيفية قيامه ﷺ بإبلاغ رسالته والدعوة إلى ربّه ، منها : ما رواه أحمد ومسلم عن عائشة قالت : «لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا ، سلوني من مالي ما شئتم».

ومنها : ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عزوجل : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى

النبي ﷺ الصفا ، فصعد عليه ، ثم نادى : «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : «يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني؟» قالوا : نعم ، قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب : تبّا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ ، وَتَبَ﴾ [المسد ١١١ / ١].

ومنها : ما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشا ، فعمّ وخصّ ، فقال : «يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار ، فإني والله ، لا أملك لكم من الله شيئا ، ألا إن لكم رحما ، وسأبلّها ببلالها» يريد : أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا.

التفسير والبيان :

تضمنت هذه الآيات أوامر أربعة للنبي ﷺ تتعلق بتبليغ رسالته وهي :

١ ـ ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ أي اعبد الله وحده لا شريك له ، واحذر أن تدعو أو تعبد معه إلها غيره ، فإن العبادة لا تكون إلا لله وحده بإخلاص ، والشرك رأس المعاصي.

وهذا حثّ للرسول ﷺ على زيادة الإخلاص في العبادة ، فالله يعلم أنه لا يكون ذلك منه ، ثم إنه بدأ بالأمر به ؛ لأنه قائد الأمة ، فكان ذلك في الحقيقة

توجيها وخطابا لغيره من الناس ؛ لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر ، وإن كان المقصود بذلك هم الأتباع.

والخلاصة : أنه بدأ بالرسول ﷺ فتوعده إن دعا مع الله إلها آخر ، ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، فقال :

٢ ـ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أي خوف أقاربك في العشيرة بأس الله وعذابه لمن أشرك به سواه.

وهذا جزء من مهمته بإنذار البشر كافة من عذاب الله ، كما قال تعالى : ﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ ، مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ [الأنعام ٦ / ٩٢] ، ﴿وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها ، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى ٤٢ / ٧] ، ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١].

ويأتي التبشير عادة مع الإنذار ، كما ذكر في آيات كثيرة ، منها : ﴿فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٩٧] ، ومنها : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِراجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٤٥ ـ ٤٦].

وروى مسلم عن النبي ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

ثم أمره ربه بالرفق بالمؤمنين ، فقال :

٣ ـ ﴿وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألن جانبك وارفق بأتباعك الذين آمنوا بك وصدقوك ، فذلك أطيب لقلوبهم.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ ، فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي فإن عصاك أحد ممن

أنذرتهم من عشيرتك وغيرهم ، فقل : إني بريء من أعمالكم التي ستجازون عليها يوم القيامة.

٤ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي وفوض جميع أمورك إلى الله القوي القاهر الغالب القادر على الانتقام من أعدائه ، الرحيم بأوليائه ، الذي يراك حين تقوم للصلاة بالناس ، ويرى أحوالك متقلبا من قائم إلى قاعد ، وراكع إلى ساجد ، فيما بين المصلين. وعبّر عنهم بالساجدين ؛ لأن العبد أقرب ما يكون من ربّه ، وهو ساجد.

والمقصود أن الله مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك ، ومعتن بك في جميع أحوالك التي منها الصلاة وما فيها من قيام وركوع وسجود ، كما قال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ [الطور ٥٢ / ٤٨].

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إن ربك هو السميع لأقوال عباده ، العليم بأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم ونواياهم ، كما قال تعالى : ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس ١٠ / ٦١].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ المساواة أمام التكاليف الشرعية دون استثناء أحد : فإذا أمر رسول الله ﷺ وهو القائد والقدوة بإخلاص العبادة لله تعالى ، وبالبدء بإنذار أقاربه ، كان غيرهم مطالبا بجميع التكاليف الشرعية بالأولى ، وكان الإنذار لمن عداهم أشد تأثيرا وأجدى نفعا ، وهو دليل على إلغاء جميع الامتيازات لأحد في الإسلام ، فلا يعفى شخص وإن كان حاكما ولا حاشيته من الالتزام بتطبيق شرع الله ودينه.

٢ ـ دلت الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ والأحاديث المتقدمة على أن القرب في الأنساب لا ينفع ، مع إهمال الأسباب والتفاني في الأعمال الصالحة. ودلت أيضا على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله ﷺ في الحديث المتقدم : «إن لكم رحما سأبلّها ببلالها» وقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٨].

٣ ـ إن الإحسان إلى الأتباع من حسن السياسة ، ومما يحقق فوائد جمّة ، لذا أمر الرسول ﷺ بالتواضع وإلانة الجانب لأتباعه المؤمنين برسالته ، المستقيمين على منهج الحق وتقوى الله. فإن عصوا وخالفوا أمره ، فإنه ﷺ بريء من معصيتهم إياه ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عَزَّوَجَلَّ ، باعتبار أنه ﷺ لا يأمر إلا بما يرضي ربه ، ومن تبرأ منه رسول الله ﷺ فقد تبرأ الله منه.

٤ ـ التوكل على الله من أصول الإيمان وخصائصه في الإسلام ، وقد أمر الله نبيه بتفويض أمره إلى ربه العزيز الذي لا يغالب ، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه.

٥ ـ إن الله تعالى عاصم نبيه من كل سوء ، حافظه من كل مكروه ، ناصره على أعدائه ، معتن بأمره كله ، يعلم بكل أنشطته وأعماله ، فهو يراه حين يقوم إلى الصلاة ، ويراه قائما وراكعا وساجدا ؛ لأنه سبحانه السميع لأقوال عباده جميعا ، العليم بجميع حركاتهم وسكناتهم.

٦ ـ قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي تنقله وسلالته في أصلاب الآباء : آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيا.

وقد استدل الشيعة بهذه الآية على أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين ، كما استدلوا على ذلك بالخبر التالي في قوله ﷺ : «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات».

الرد على افتراء المشركين بأن النبي كاهن أو شاعر

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾

الإعراب :

﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ أَيَ﴾ منصوب على المصدر ب ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ وتقديره : أي انقلاب ينقلبون. ولا يجوز نصبه ب ﴿سَيَعْلَمُ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام ، وإنما يعمل فيه ما بعده.

البلاغة :

﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كلاهما صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعيل ، أي كثير الكذب كثير الفجور.

﴿يَقُولُونَ﴾ و ﴿يَفْعَلُونَ﴾ و ﴿انْتَصَرُوا﴾ و ﴿ظُلِمُوا﴾ بين كلّ طباق.

﴿فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه حال الشعراء بإفراطهم في المديح والهجاء واسترسال الخيال بالتائه في الصحراء الذي هام على وجهه ، فهو لا يدري أين يسير.

﴿مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ جناس اشتقاق.

﴿يَهِيمُونَ﴾ ، ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ ، ﴿يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ سجع لمراعاة الفواصل وخواتيم الآيات.

المفردات اللغوية :

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿تَنَزَّلُ﴾ أي تتنزل ، ثم حذفت إحدى التاءين من الأصل. ﴿أَفَّاكٍ﴾ كذاب. ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر ، مثل مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة ، وهما صيغة مبالغة ، أي كثير الإفك والكذب ، كثير الذنوب والفجور. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي

الأفاكون من الشياطين يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما أكثره كذب وزور من الظنون والأمارات. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ﴾ فسره بعضهم بالكل ؛ لقوله تعالى : ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قال البيضاوي : والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم ، على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل : تعود الضمائر للشياطين ، أي يلقون ما سمعوه من الملائكة إلى الكهنة ، ويضمون إلى المسموع كذبا كثيرا ، وكان هذا قبل أن حجبت الشياطين عن السماء.

﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ﴾ أي الضالون المائلون عن منهج الاستقامة ، فهم مذمومون ، وهذا للمقارنة بينهم وبين المؤمنين ، فالشعراء يتبعهم الضالون في شعرهم ، فيقولون به ، ويروونه عنهم ، أما أتباع محمد ﷺ فليسوا كذلك. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم. ﴿فِي كُلِّ وادٍ﴾ من أودية الكلام وفنونه ، والوادي : الشّعب. ﴿يَهِيمُونَ﴾ يمضون أو يسيرون حائرين ، فيجاوزون الحد مدحا وهجاء ؛ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها ، وأغلب كلماتهم في الباطل. ﴿يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ أي يكذبون فيقولون : فعلنا وهم لم يفعلوا.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أي من الشعراء. ﴿وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ لم يشغلهم الشعر عن الذكر. ﴿وَانْتَصَرُوا﴾ بهجوهم الكفار. ﴿مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ بهجو الكفار لهم مع جملة المؤمنين ، فليسوا بمذمومين ، لقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء ٤ / ١٤٨] وقوله سبحانه : ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٤]. ﴿مُنْقَلَبٍ﴾ مرجع. ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ يرجعون بعد الموت ، وهو تهديد شديد ؛ لأن قوله : ﴿سَيَعْلَمُ﴾ وعيد بليغ ، وقوله : ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على الإطلاق والتعميم ، وقوله : ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ فيه إبهام وتهويل.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٢٤) وما بعدها : ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ﴾ : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ ، أحدهما من الأنصار ، والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه ، وهم السفهاء ، فأنزل الله : ﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ﴾ الآيات.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال : لما نزلت ﴿وَالشُّعَراءُ﴾ إلى قوله :

﴿ما لا يَفْعَلُونَ﴾ قال عبد الله بن رواحة : قد علم الله أني منهم ، فأنزل الله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلخ السورة.

وأخرج ابن جرير والحاكم عن أبي حسن البرّاد قال : لما نزلت ﴿وَالشُّعَراءُ﴾ الآية ، جاء عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : يا رسول الله ، والله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أنا شعراء ، هلكنا ، فأنزل الله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية ، فدعاهم رسول الله ﷺ ، فتلاها عليهم.

المناسبة :

هذا عود على بدء ، فبعد أن أبان الله تعالى استحالة تنزل الشياطين بالقرآن (الآية ٢١٠ وما بعدها) وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين ، أردف ذلك بأن الشياطين تتنزل على كل كذاب فاجر ، لا على الرسول الصادق الأمين ، فهو ليس من فئة الكهنة الذين يستمعون إلى الشياطين ، كما أنه ليس من فئة الشعراء الغارقين في الخيال ، الهائمين في كل واد من فنون القول والكلام ، من غير ترجمة للحقيقة ، ولا صدق في القلب ، وقناعة في العقل ، والرسول ﷺ لا ينطق إلا بالحق ولا يتكلم إلا بالصدق.

ولما كان إعجاز القرآن من جهة المعنى واللفظ ، وقد قدح المشركون في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين ، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء ، فإنه تعالى ردّ على القسمين ، وبيّن منافاة القرآن لهما ، ومخالفة حال الرسول ﷺ لحال أصحابهما ، فهو ليس بكاهن ولا بشاعر.

التفسير والبيان :

هذه الآيات تتضمن نفي فريتين عن القرآن وعن الرسول ﷺ ، وهما

الكهانة والشعر ، فليس القرآن الكريم من جنس ما تتلقاه الكهنة عن الشياطين ، وليس هو من الشعر في شيء ، كما أن رسول الله ﷺ ليس كاهنا ولا شاعرا.

أما الفرية الأولى فوصفها تعالى ثم ردّ عليها فقال :

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ﴾؟ أي هل أخبركم خبرا حقيقيا ، نافعا لكم في قاموس المعرفة والعلم ، على من تنزل عليه الشياطين من الكهان ونحوهم من الكذبة الفسقة؟

وكان للكهانة تأثير كبير عند العرب في الجاهلية ، ولكهانهم مركز مهم ، لقطع النزاع ، وفض المشكلات من الأمور ، مثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ، وفاطمة الخثعمية.

وهذه الآيات رد على من زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئيّ من الجن ، أي مسّ ، وبيان قاطع بأن ما جاء به هذا الرسول ﷺ إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم ، أمين عظيم ، وأنه ليس من قبل الشياطين ، والجواب من وجهين :

١ ـ ﴿تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي إن الشياطين تنزل على كل كذوب ، فاجر فاسق في أفعاله ، من الكهنة المتنبئة ، مثل شقّ بن رهم ، وسطيح بن ربيعة ، ومسيلمة وطليحة ، ومن الكفار الذين يدعون إلى طاعة الشيطان ، ومحمد ﷺ كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه. وأما الكهنة فالغالب عليهم الكذب ، ومحمد ﷺ فيما أخبر عنه من المغيبات لم يظهر عليه إلا الصدق.

٢ ـ ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ ، وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ﴾ أي يصغي الكهنة الأفاكون سمعهم إلى الشياطين ، فيلقون وحيهم الزائف إليهم ، ويتلقفون منهم ما أكثره كذب

وزور من الظنون والأمارات ، فأكثر الشياطين كاذبون فيما يوحون به إليهم ، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا ، كما أن أكثر الأفاكين كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يوحوا به إليهم ، فيكون أكثر ما يحكمون به باطلا وزورا.

وقيل : يعود الضمير إلى الشياطين ، أي يلقون إلى أوليائهم الكهنة المسموع من الملائكة ، مما يختطفونه من بعض الكلمات ، مما اطلعوا عليه من المغيبات ، قبل أن يحجبوا بالرجم ، ويبعدوا عن التقاط الكلام من الملأ الأعلى ، ثم يوحون به إلى أوليائهم ، ويضمون إلى المسموع كذبا كثيرا.

والخلاصة : أن الواقع خير شاهد ، يوضح كالشمس الفرق بين النبي ﷺ والكهنة ، فكل ما أخبر به النبي عن ربه كان صادقا مطابقا للواقع ؛ ولم يعرف عنه في سيرته الطويلة المدى إلا الصدق ، وأكثر ما يخبر به الكهنة كذب يتنافى مع الواقع ، ولم يعرف عن الكهنة إلا الكذب ، لذا مجّهم التاريخ ، ورفضهم العقل ، ولم يعد يصدق أباطيلهم وترهاتهم إلا السّذّج البسطاء من الأولاد والنساء وبعض الكبار السطحيين.

وبعد أن بيّن الله تعالى الفرق بين محمد ﷺ وبين الكهنة ، بين الفرق بينه ﷺ وبين الشعراء ، ردا على الكفار القائلين : لم لا يجوز أن يقال : إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد ، كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ، جريا على ما هو المعتاد بأن لكل كاهن وشاعر شيطانا ، فقال :

﴿وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ﴾ أي أن الشعراء يتبعهم الضالون ، ضلّال الإنس والجن ، المنحرفون عن جادة الحق والاستقامة ، أما أتباع محمد ﷺ فهم المهتدون المستقيمون القائمون على منهج الحق والإيمان بالله وعبادته والاستقامة على أمره. ثم بيّن الله تعالى تلك الغواية بأمرين :

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي ألم تعلم أن الشعراء يخوضون في كل

فن من الكلام ، ويتناقضون مع أنفسهم ، فقد يمدحون الشيء بعد أن ذموه ، وبالعكس ، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس ، وذلك يدل على أنهم لا يقصدون إظهار الحق ، ولا إعلان الصدق ، فهم قوم خياليون عاطفيون ، أما محمد ﷺ فلا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالصدق ، ويدعو إلى طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى ، والترغيب في الآخرة ، والإعراض عن الدنيا غير المفيدة.

٢ . ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ﴾ أي أن أكثر قولهم الكذب ، فإنهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر عنهم ، وهذا أيضا من علامات الغواة ، فإنهم يرغّبون في الجود ويرغبون عنه ، وينفّرون عن البخل ويصرّون عليه ، ويقدحون في الأعراض لأدنى سبب ، ولا يرتكبون إلا الفواحش ، أما النبي محمد ﷺ فعلى خلاف ذلك ، لا يأمر بالشيء إلا وقد فعله ، ولا ينهى عن الشيء إلا وقد اجتنبه ، يأمره ربه بإخلاص العبادة له أولا : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ ولا يستثني قرابته من شيء من التكاليف الشرعية أو المدنية أو السياسية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. فمنهج الشعراء مخالف لحال النبوة ، فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون ، ودعوة الأنبياء واحدة ، وهي الدعاء إلى توحيد الله وعبادته والترغيب في الآخرة والصدق [١].

ثم استثنى الله تعالى من الشعراء من اتصف بصفات أربع هي الإيمان ، والعمل الصالح ، وذكر الله وتوحيده ، ونصرة الحق وأهله ، فقال :

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ أي إلا الذين صدقوا بالله ورسوله ، وعملوا الأعمال الصالحة ، وذكروا الله كثيرا في كلامهم أو شعرهم ، ودافعوا عن النبي ودينه وقاوموا الشرك وأهله ، مثل حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ،

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ٤٩.

وكعب بن زهير الذين ردوا على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين. ومثلهم بعدئذ البوصيري ﷺ وأحمد شوقي في مدائحه النبوية ونحوهم.

وقيل : المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير ؛ لأنهم كانوا يهجون قريشا ، وعن كعب بن مالك «أن رسول الله ﷺ قال له : اهجهم ، فو الذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل» وكان يقول لحسان بن ثابت : «قل وروح القدس معك».

ثم ختم الله تعالى السورة بالتهديد الشديد والوعيد الأكيد ، فقال : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ أي إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات ، والتأمل في هذه البينات الفارقة بين نبوة النبي وكهانة الكهان وشعر الشعراء ، سيعلمون أي مرجع يرجعون إليه بعد الموت ؛ لأن مصيرهم إلى النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب ، وهو شر مرجع.

ذكر الجمهور أن المراد من الآية الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء. قال الرازي : والأول ـ أي هذا الرأي ـ أقرب إلى نظم السورة من أولها إلى آخرها. ثم قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، كما قال ابن أبي حاتم ، ومن الوقائع الشهيرة في الاستشهاد بهذه الآية ما قالته عائشة : «كتب أبي في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما وصّى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ، ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾».

قال القرطبي : والفرق بين المنقلب والمرجع : أن المنقلب : الانتقال إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع : هو العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا ، ذكره الماوردي.

فقه الحياة أو الأحكام :

حسمت الآيات الفرق بين النبوة وبين الكهانة والشعر ، فالنبوة حق وصدق ، والنبي موحى إليه من عند ربه ، والقرآن كلام الله الذي نزل به جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ .

ولا يمكن للشياطين أن تتنزل بالقرآن ولا تستطيعه ولا تنسجم معه ، فهو يدعو إلى الإيمان والهداية والحق والاستقامة ، أما الشياطين فتدعو إلى الكفر والضلال والباطل والفساد والانحراف.

والشياطين تتنزل على كل أفّاك (كذوب) أثيم (فاجر في أفعاله) والكهنة يصغون السمع إلى الشياطين ، وأكثر الكهنة والشياطين كاذبون في أخبارهم وأقوالهم. أما الأنبياء فينزل جبريل الأمين عليهم بالوحي الصادق الذي لا مرية فيه بكونه من رب العالمين.

والشعراء الماجنون يتّبعهم ضلال الجن والإنس الزائغون عن الحق ، وهذا دليل على أن الشعراء أيضا غاوون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ، ما كان أتباعهم غواة. أما النبي فيتبعه صلحاء الجن والإنس ؛ لأنه يدعو إلى الخير والصلاح والبر والتقوى.

والدليل على غواية أغلب الشعراء أمران : أنهم في كل لغو يخوضون ، ولا يتبعون سنن الحق ؛ لأن من اتّبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبّت ، ولم يكن هائما على وجهه ، لا يبالي بما قال ؛ وأن أكثرهم يكذبون ، فيدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه.

لكن هناك أيضا شعراء صالحون هم المتصفون بالأوصاف الأربعة التالية : وهي الإيمان بالله الحق وبنبيه المرسل ، والقيام بالعمل الصالح الذي يرضي الله ،

وذكر الله كثيرا في كلامهم ، والانتصار من الظالم بعد ظلمه ، والانتصار يكون بالحق وحده وبما حدّه الله ﷿ ، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل. ثم حذر القرآن وهدد من انتصر بظلم ، فإنه سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله ﷿ ، فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصرة.

موقف الإسلام من الشعر :

ورد عن النبي ﷺ أحاديث في الشعر ، منها ما أقره ، ومنها ما ذمّه ، فمن الأحاديث التي ذمّت الشعر : ما روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه (١) خير من أن يمتلئ شعرا».

ومن الأحاديث التي مدحت الشعر ما رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «إن من البيان سحرا ، وإن من الشعر حكما».

ويمكن التوفيق بين الحديثين بحمل الأول على الشعر المذموم الرديء المردود ، كالشعر الذي يتكلم في الغزل الخليع ، ويشبّب بالنساء والغلمان ، والذي يدعو إلى الفجور والفسق ، وإن كان فنا رائعا في الأدب. ومنه شعر الشاعر الذي يتخذ الشعر طريقا للتكسب ، فيفرط في المدح إذا أعطي ، وفي الهجو والذم إذا منع ، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم. ومثل هذا ، كلّ ما يكتسبه بالشعر حرام ، وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ، ولا يحل إعطاؤه شيئا ؛ لأن ذلك عون على المعصية ، فإن لم يجد من ذلك بدا أعطاه للضرورة بنية وقاية العرض ، فما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة.

---

(١) ورى القيح جوفه يريه وريا : أكله. والقبح : المدّة يخالطها دم.

ومنه شعر الهجاء الذي لم يقصد به هجو الكفار ونصرة الإسلام والمسلمين ، فإن كان انتصارا لمن هجا المسلمين ، وشبب بأعراضهم جاز ، وكان مستحسنا ؛ لقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء ٤ / ١٤٨].

ويحمل الحديث الآخر على الشعر الممدوح الحسن المقبول الذي قصد به إظهار الحق ، وإيراد الحكمة ، وتعليم الجاهل ، ونصرة المظلوم والحق ، والدفاع عن الوطن ، والذود عنه بجيد الكلام ، ونحو ذلك من كل ما فيه نفع ، وتربية للنفوس ، وتهذيب للعقول ، وتوحيد الصفوف.

وهذا التوفيق بين الحديثين ما هو إلا نوع من وسطية الإسلام المعروفة ، والاعتدال في الأشياء كلها ؛ روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام». (١)

وردد هذا المعنى كبار الأئمة وعلماء اللغة والأدب ، فقال الإمام الشافعي رضي الله عنه : الشعر نوع من الكلام : حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته ، وإنما يكره لمضمونه ، وقد كان عند العرب عظيم الأثر والموقع.

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النّهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثّل به أو سمعه ، فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء ، لا يحل سماعه ولا قوله. والخلاصة : إن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ومنه ما يكره أو يحرم.

---

(١) رواه البخاري في الأدب والطبراني في الأوسط عن عبد الله بن عمرو ، وأبو يعلى عن عائشة ، وهو حسن.

ومن الأمثال الرائدة والنماذج الطيبة للشعر الذي أقره النبي ﷺ ما يأتي :

١ ـ روي مسلم من حديث عمرو بن الشّريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ يوما ، فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصّلت شيء؟ قلت : نعم ، قال : هيه ، فأنشدته بيتا ، فقال : هيه ، ثم أنشدته بيتا فقال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت.

قال القرطبي : وهذا دليل على جواز حفظ الأشعار المتضمنة للحكمة والمعاني المستحسنة شرعا وطبعا وعقلا ، أي والداعية إلى فضائل الأخلاق. وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية ؛ لأنه كان حكيما ؛ ألا ترى قوله ﷺ : «وكاد أمية بن أبي الصّلت أن يسلم».

٢ ـ فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه ، فذلك مندوب إليه ، وكذلك مدح رسول الله ﷺ ، فقد مدحه العباس ، فقال له : «لا يفضض الله فاك» ومنه الدفاع عن النبي ﷺ ، فقد أقر حسّان بن ثابت على ذلك ، ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك» أو «قل وروح القدس معك». وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ : قد أنزل الله في الشعراء ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النّبل» أو «اهجهم ، فو الذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من رشق النّبل».

٣ ـ روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول : «أصدق كلمة ـ أو أشعر كلمة ـ قالتها العرب قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

أما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم : فهو المتكلم بالباطل ، حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحّهم على حاتم ، وأن يبهتوا البريء ،

ويفسقوا التقيّ ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء ، رغبة في تسلية النفس وتحسين القول ، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحة بعنوان (باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر).

لكن قد يكون الشعر حراما كما بينا في أغراضه وفي أمثلة الشعر المذموم ، وقد يكون كفرا كهجو النبي ﷺ ، سواء كان قليلا أو كثيرا. وأما هجو غير النبي ﷺ من المسلمين فهو محرم قليله وكثيره.

قال ابن العربي : أما الاستعارات والتشبيهات فمأذون فيها ، وإن استغرقت الحدّ ، وتجاوزت المعتاد. ثم قال : وبالجملة ، فلا ينبغي أن يكون الغالب على العبد الشعر حتى يستغرق قوله وزمانه ، فذلك مذموم شرعا [١].

وقد أنهى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مشكلة تكسب الشعراء بشعرهم ، فلم يعطهم العطايا المعتادة ، وكشف حقائقهم ، وساسهم بمنطق الشرع وعدله ، فأعطى الفرزدق أربعة آلاف درهم ، لئلا يعرض لأحد من أهل المدينة بمدح ولا هجاء ، ومنح الأحوص أحد شعراء المدينة مائة دينار ، على أن يكف عن هجاء أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان ، وعاقب الشاعر جرير بالرغم من مدحه ، مع عمرو بن لجأ التيمي ، لما تهاجيا وتقاذفا ، وغضب على شاعر الخلاعة والعزل والتشبيب بالنساء عمر بن أبي ربيعة ، ونفاه إلى دهلك ، لكثرة تعرضه لنساء الأشراف وبناتهم [٢].

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٤٣٤ وما بعدها.

(٢) الخليفة الراشد العادل عمر بن عبد العزيز للمؤلف ٦٢ وما بعدها ، المرجع السابق : ٣ / ١٤٣٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النمل

مكية ، وهي ثلاث وتسعون آية.

تسميتها :

سميت سورة النمل لإيراد قصة وادي النمل فيها ، ونصيحة نملة منها بقية النمل بدخول جحورهن ، حتى لا يتعرضن للدهس من قبل جند سليمان عليه السلام دون قصد ، ففهم سليمان الذي علمه الله منطق الطير والدواب كلامها ، وتبسم ضاحكا من قولها ، ودعا ربه أن يلهمه شكره على ما أنعم به عليه.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه :

١ . أنها كالتتمة لها في بيان بقية قصص الأنبياء ، وهي قصة داود وسليمان عليهما السلام .

٢ . أن فيها تفصيلا لما أجمل في سورة الشعراء من القصص النبوي ، وهي قصة موسى في الآيات [٧ . ١٤] وقصة صالح في الآيات [٤٥ . ٥٣] ولوط في الآيات [٥٤ . ٥٨].

٣ . نزلت هذه السور الثلاث (الشعراء ، والنمل ، والقصص) متتالية على هذا الترتيب ، وذلك كاف في ترتيبها في المصحف على هذا النحو. روي عن

ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب نزول السور : أن الشعراء ، ثم طس ، ثم القصص. كما يوجد تشابه بينها في البداية والافتتاح (طسم ، الشعراء ، طس ، النمل ، طسم ، القصص) ولعل التشابه بين الأولى والثالثة ، والاختلاف الجزئي في الثانية دليل على تأكيد المقصود بهذه الحروف المقطعة وهو تحدي العرب بالقرآن الذي تكوّن من حروف لغتهم المتركبة في جمل ، بزيادة أحيانا ونقص أحيانا من تلك الحروف.

٤ . كذلك وجد التشابه الموضوعي بينهما في وصف القرآن وتنزيله من عند الله ؛ لأنه قال في بداية الشعراء : ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ﴾ وقال هنا : ﴿تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ وقال في أواخر الشعراء : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ﴾ وقال هنا : ﴿تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ﴾ أي الذي هو تنزيل رب العالمين.

٥ . تلتقي السورتان في بيان وحدة القصد من القصص القرآني ، وهو تسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من أذى قومه ، وإعراضهم عنه.

مشتملاتها :

هذه السورة المكية تتفق مع أغراض السور المكية في بيان أصول العقيدة : وهي التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، وإثبات كون القرآن الكريم منزلا من عند الله العزيز الحكيم.

وإسهاما في توضيح تلك الأغراض أبانت السورة معجزة النبي محمد ﷺ الخالدة ، وهي تنزيل القرآن المجيد هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين ، ثم سردت وقائع مثيرة من قصص الأنبياء : موسى ، وداود ، وسليمان ، وصالح ، ولوط ، عليهم‌السلام ، تبين مدى ما تعرّض له موسى وصالح ولوط من أذى أقوامهم ، وتكذيبهم برسالاتهم ، وإنزال العقاب الأليم بهم ، وتنبّه إلى ما أنعم الله به على

داود وسليمان من النعم العظمى ، بهبة النبوة والملك والسلطان ، وتسخير الجن والإنس والطير ، وإذعان الملكة بلقيس لدعوة سليمان.

وفي هذا حكمة بالغة لأصحاب السلطة هي اتخاذ السلطان والنفوذ سبيلا للدعوة إلى الله جل جلاله.

وتلا ذلك بيان الأدلة والبراهين على وجود الله وتوحيده من خلق الكون : سمائه وأرضه ، بره وبحره ، وإلهام الإنسان الإفادة من كنوز الأرض ، والهداية في ظلمات البر والبحر ، وإمداده بالأرزاق الوفيرة ، ومفاجأته بأهوال يوم القيامة ومغيبات الأحداث ، وسعة علم الله ، وتعاقب الليل والنهار.

وأنكرت السورة بعدئذ على المشركين تكذيبهم بالبعث والحشر والنشور ، وألزمت بني إسرائيل بالاحتكام إلى القرآن في خلافاتهم وخصوماتهم ، وتحدثت عن أشراط الساعة ، كخروج دابة الأرض ، وحشر فوج من كل أمة ، وتسيير الجبال ، ثم ذكّرت بالنفخ في الصور لجمع الناس ومجيئهم داخرين صاغرين لله تعالى.

وختمت السورة بتصنيف الناس إلى سعداء أبرار ، وأشقياء فجار ، وجزاء كلّ بما يستحق خيرا أو شرا ، وإعلام المشركين بوجوب عبادة الله وحده ، والتخلي عن عبادة الأصنام والأوثان ، والالتزام بمنهج القرآن ودستوره في الحياة ؛ لأنه نور وهداية ، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها ، وتعريفهم بآيات الله العظمى في وقت لا ينفعهم فيه شيء غير الإيمان بالله وحده ، وتعرضهم للجزاء الحتمي عن جميع أعمالهم.

والخلاصة : أن ما ذكر في هذه السورة يدعو إلى المبادرة إلى الإيمان بالله تعالى ربا وإلها لا شريك له ، والتصديق بالبعث طريقا لإنصاف الخلائق ، واتخاذ القرآن نبراسا ودستورا للحياة الإنسانية.

رسالة القرآن

﴿طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (١) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾

الإعراب :

﴿هُدىً ..﴾ إما منصوب على الحال من الكتاب ، أي تلك آيات القرآن هاديا ، ﴿وَبُشْرى﴾ عطف عليه ، أي مبشرا ؛ وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو هدى ، أو خبر بعد خبر ، فإن قوله تعالى : ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ ، و ﴿آياتُ الْقُرْآنِ﴾ خبره ، و ﴿هُدىً﴾ خبر بعد خبر.

﴿فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ فِي الْآخِرَةِ﴾ تبيين ، وليس بمتعلق بالأخسرين ، فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة.

البلاغة :

﴿تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ﴾ إشارة بالبعيد بدلا عن القريب ، لبيان رفعة القرآن وعلو شأنه.

﴿وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ التنكير للتفخيم والتعظيم ، أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

﴿هُدىً وَبُشْرى﴾ التعبير بالمصدر بدلا عن اسم الفاعل للمبالغة ، أي هاديا ومبشرا.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ بينهما مقابلة ، وتكرار الضمير فيهما لإفادة الحصر والاختصاص.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ التأكيد بإن واللام للرد على المتشككين في القرآن.

المفردات اللغوية :

﴿طس﴾ تقرأ : طا ، سين ، وهذه الحروف المقطعة التي ابتدئ بها في كثير من السور القرآنية للتنبيه ، أريد بها تحدي العرب للإتيان بمثل القرآن ، ما دام مكونا من حروف لغتهم التي بها ينطقون ويخطبون وينظمون الشعر.

﴿تِلْكَ آياتُ﴾ أي هذه الآيات ، أو أي السورة ﴿آياتُ الْقُرْآنِ﴾ أي آيات من القرآن ، والإضافة للتفخيم لها والتعظيم ؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم. ﴿وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ مظهر للحق من الباطل ، والمراد بالكتاب : إما اللوح ، وإبانته : أنه قد خط فيه كل ما هو كائن ، فهو يبينه للناظرين ، وإما القرآن ذاته ، وإبانته : أنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم والشرائع ، وإعجازه ظاهر مكشوف ، وإذا أريد بالكتاب هنا القرآن ، فيكون ذلك عطفا لإحدى الصفتين على الأخرى ، بزيادة صفة ، ولتغايرهما في المدلول عليه بالصفة ، من حيث إن مدلول ﴿الْقُرْآنِ﴾ الاجتماع ، ومدلول ﴿كِتابٍ﴾ الكتابة. وتنكير ﴿كِتابٍ﴾ للتفخيم والتعظيم.

﴿هُدىً﴾ أي هو هاد من الضلالة. ﴿وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مبشرا للمصدقين بالجنة ، أو هما حالان من الآيات ، والعامل فيهما معنى الإشارة. ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ يأتون بها تامة على وجهها المطلوب. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ يعطون الزكاة المفروضة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يصدقون ويعلمون بوجود الآخرة بالاستدلال ، والواو : للحال ، أو للعطف ، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته ، وأنهم الأوحدون فيه. ويصح أن تكون جملة اعتراضية ، كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة ، لأن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والتوثق من المحاسبة.

﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ﴾ القبيحة ، بأن جعلها مشتهاة للطبع ، محبوبة للنفس. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتحيرون فيها لقبحها وعدم إدراكهم ما يتبعها من ضر أو نفع. ﴿سُوءُ الْعَذابِ﴾ أشده في الدنيا ، كالقتل والأسر يوم بدر. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أشد الناس خسرانا ؛ لفوات المثوبة ، واستحقاق العقوبة في النار المؤبدة عليهم.

﴿وَإِنَّكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ . ﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ لتؤتاه ، ويلقى عليك بشدة. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند أحكم الحكماء وأعلم العلماء. والجمع بين الصفتين ، مع أن العلم داخل في الحكمة ، لعموم العلم ، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل ، وللدلالة على أن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ، ومنها ما ليس كذلك كالقصص والإخبار عن المغيبات.

التفسير والبيان :

﴿طس﴾ حروف مقطعة في أوائل السور ، للتنبيه على إعجاز القرآن ، كما بينا.

﴿تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ﴾ أي هذه الآيات المنزلة عليك أيها النبي في هذه السورة هي آيات القرآن المجموع في النهاية ، وآيات الكتاب المسطور في السطور ، الواضح البيّن ، الذي سيبقى إلى يوم القيامة ، ويسهل العمل به لوضوحه وبيانه المشرق ، ويستفيد منه من تأمل فيه ، واستعذب حلاوة كلام الله ، وفكّر في عظمته وفضل الله تعالى في إنزاله وبيانه ، فهو ليس من كلام البشر ، بل ولا يستطيع أحد الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه.

وعطف الكتاب على القرآن من عطف إحدى الصفتين على الأخرى ، كما بينا في المفردات ، كما تقول : هذا فعل السخي والجواد والكريم. ويلاحظ أن هاتين الصفتين مرة يذكران بالتعريف ، ومرة بالتنكير ، والمعنى واحد ، وأن القرآن له صفتان : قرآن وكتاب ؛ لأنه يظهر بالقراءة والكتابة.

﴿هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إن القرآن هاد للناس من الضلالة ، ومبشر المؤمنين الطائعين بالجنة وبرحمة الله تعالى.

ومعنى كون القرآن هدى للمؤمنين : أنه يزيدهم هدى على هداهم ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٤] وأنه يهديهم إلى الجنة ، كما قال تعالى : ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً﴾ [النساء ٤ / ١٧٥].

والتخصيص بالمؤمنين للدلالة على أن الهداية والبشارة إنما يحصلان لمن آمن به ، واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه. ثم ذكر تعالى مظاهر الإيمان فقال :

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي إن المؤمنين المنتفعين بالقرآن هداية وبشارة هم الذين يؤدون الصلاة كاملة

الأركان ، تامة الشروط ، مستحضرا فيها المصلي عظمة ربه ، خاشعا في تلاوته ومناجاته وأذكاره وتسبيحاته ، ويعطون الزكاة المفروضة المطهرة لأموالهم وأنفسهم من الدنس والشبهات ، ويوقنون بالدار الآخرة ، والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها ، والجنة والنار ، فيستعدون للأنسب الأفضل لهم ، ويطيعون ربهم فيما أمر به ، وينأون عما نهي عنه وزجر.

ثم قارن الله تعالى حال هؤلاء بحال من لا يؤمن بالآخرة ، فذكر منكري البعث بعد ذكر المؤمنين الموقنين بالبعث فقال :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ ، فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي إن الذين يكذبون بالآخرة ويستبعدون وقوعها بعد الموت ، حسّنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم ، فهم يتيهون ويترددون في ضلالهم ، جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام ٦ / ١١٠].

﴿أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي أولئك جزاؤهم العذاب السيء في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فمثل قتلهم وأسرهم يوم بدر ، وأما في الآخرة فلهم عذاب النار ، بل هم في الآخرة أشد الناس خسرانا ، لا يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر ؛ لأن عذابهم فيها دائم لا ينقطع.

وبعد وصف حال المؤمنين بالقرآن والمكذبين به ، ذكر الله تعالى حال المنزل عليه فقال :

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي وإنك أيها الرسول لتأخذ القرآن وتعطاه وتتعلمه من عند حكيم في أمره ونهيه وتدبير خلقه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها وبأحوال خلقه وما فيه خيرهم ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام ٦ / ١١٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من هذه الآيات ما يلي :

١ ـ آيات هذه السورة آيات القرآن ، وآيات كتاب مبين ، وهما صفتان : صفة بأنه قرآن مقروء مجموع مصون ، وصفة بأنه كتاب مكتوب ، فهو يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة. وذكر القرآن بلفظ المعرفة ، وذكر كتاب بلفظ النكرة ، وهما في معنى المعرفة ، كما تقول : فلان رجل عاقل ، وفلان الرجل العاقل. وذلك بدليل ورودهما في سورة الحجر بالعكس : ﴿الر ، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فورد الكتاب بلفظ المعرفة ، والقرآن بلفظ النكرة ؛ لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة ، وأن يجعل صفة.

ووصف القرآن أو الكتاب بصفة «المبين» لأنه تعالى بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده.

٢ ـ وكذلك آيات هذا الكتاب أو القرآن هادية ومبشرة للمؤمنين بالجنة ، أولئك المؤمنون المتصفون بأنهم يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصدقون بالآخرة صدقا لا شك فيه ولا تردد.

٣ ـ أما الذين لا يصدقون بالبعث فهم في حيرة وضلالة ، يترددون في مهاوي الضلال ، لذا عاقبهم الله جزاء كفرهم بتزيين أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة ، قال الزجّاج : «جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه» وهم يترددون في أعمالهم الخبيثة وفي ضلالتهم.

ولهم عدا هذا العقاب المعنوي عقاب مادي سيء في الدنيا والآخرة وهو جهنم ، وبما أنهم خسروا الآخرة بكفرهم ، فهم أخسر كل خاسر.

٤ ـ إن تنزيل القرآن على النبي ﷺ وتعليمه إياه وتلقينه به من عند الله العلي الحكيم بتدبير خلقه ، العليم بأحوالهم وبما يصلحهم. وهذه الآية الأخيرة تمهيد لسياق القصص التالية عن الأنبياء عليهم السلام .

القصة الأولى

قصة موسى عليه السلام بالوادي المقدس

﴿إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٨) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿بِشِهابٍ قَبَسٍ قَبَسٍ﴾ بالتنوين : بدل مجرور من شهاب. ومن قرأ بغير تنوين أضاف كلمة ﴿بِشِهابِ﴾ إلى ﴿قَبَسٍ﴾ إضافة النوع إلى جنسه ، مثل : ثوب خزّ.

﴿تَصْطَلُونَ﴾ أصلها «تصتليون» فأبدل من التاء طاء ، لتوافق الطاء في الإطباق ، ونقلت

الضمة من الياء إلى اللام ، فبقيت الياء ساكنة ، وواو الجمع ساكنة ، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة ، أي أنه بورك ، وهو في موضع رفع ب ﴿نُودِيَ﴾. و ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ ، أي من في طلب النار ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

﴿أَنَا اللهُ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر.

﴿تَهْتَزُّ ، كَأَنَّها جَانٌّ تَهْتَزُّ﴾ جملة فعلية حال من هاء ﴿رَآها﴾. و ﴿كَأَنَّها جَانٌّ﴾ حال أيضا ، أي فلما رآها مهتزة مشبهة جانا ، و ﴿مُدْبِراً﴾ حال منصوب أيضا.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ مَنْ﴾ في موضع نصب ، لأنه استثناء منقطع.

﴿تَخْرُجْ بَيْضاءَ بَيْضاءَ﴾ حال من ضمير ﴿تَخْرُجْ﴾. و ﴿إِلى فِرْعَوْنَ﴾ حال من مرسلا المحذوف المنصوب على الحال ، لدلالة الحال عليه ، أي مرسلا إلى فرعون.

﴿مُبْصِرَةً﴾ حال من الآيات ، أي مبينة.

البلاغة :

﴿وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ﴾ إيجاز بالحذف ، حذفت جملة : فألقاها ، فانقلبت حية ، لدلالة السياق عليه.

﴿حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ و ﴿وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بين كل منهما طباق.

﴿آياتُنا مُبْصِرَةً﴾ استعارة ، استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان ؛ لأن الإبصار يكون بالعينين.

﴿كَأَنَّها جَانٌّ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، ذكرت أداة الشبه ، وحذف وجه الشبه ، فصار مرسلا مجملا.

المفردات اللغوية :

﴿إِذْ قالَ﴾ أي اذكر حين قال موسى. ﴿لِأَهْلِهِ﴾ كنى عن زوجته بالأهل عند مسيرته من مدين إلى مصر. ﴿آنَسْتُ﴾ أبصرت من بعيد. ﴿بِخَبَرٍ﴾ عن حال الطريق ؛ لأنه قد ضله. وجمع الضمير في قوله : ﴿سَآتِيكُمْ﴾ و ﴿آتِيكُمْ﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ مراعاة لكلمة ﴿لِأَهْلِهِ﴾. وأتى بالسين في قوله : ﴿سَآتِيكُمْ﴾ للدلالة على بعد المسافة ، أو الوعد بالإتيان وإن أبطأ. وأتى بأو دون الواو اعتمادا أو رجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معا ، لم يعدم واحدة منهما : إما هداية الطريق ،

وإما اقتباس النار ، ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده ، وقد ظفر بكلتا حاجتيه وهما عز الدنيا وعز الآخرة.

﴿بِشِهابٍ﴾ شعلة نار. ﴿قَبَسٍ﴾ قطعة من النار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها. ﴿تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون من البرد ، وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ معناه رجاء أن تستدفئوا. ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ أي نودي بأن بارك الله ، فأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة ، أو مفسرة ، لأن النداء فيه معنى القول ﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها﴾ أي بورك من في مكان النار وهو موسى والبقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى : ﴿نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٠]. ﴿وَمَنْ حَوْلَها﴾ المكان الذي حولها ، والمعنى : بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ، قال البيضاوي : والظاهر أنه عام في كل من في تلك البقعة وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات ؛ لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا ، وخصوصا تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى. ﴿وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ من جملة ما نودي ، ومعناه : تنزيه الله من السوء. ﴿يا مُوسى إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن والأمر.

﴿تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب. ﴿كَأَنَّها جَانٌّ﴾ حية خفيفة سريعة. ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ هرب. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع على عقبه. ﴿لا تَخَفْ﴾ من غيري ثقة بي ، أو مطلقا ، لقوله : ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ لا يخاف عندي الرسل من حية وغيرها ، حين يوحى إليهم من فرط الاستغراق. ﴿إِلَّا﴾ لكن فهو استثناء منقطع. ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ نفسه. ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أتى حسنا بعد سوء وبدل ذنبه بالتوبة ، أي تاب. ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أستر عليه وأغفر له وأرحمه بقبول التوبة. والمراد من الاستثناء التعريض بموسى حينما وكز القبطي.

﴿فِي جَيْبِكَ﴾ طوق قميصك. ﴿تَخْرُجْ﴾ خلاف لونها من الأدمة أي الجلد. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير برص ونحوه من الآفات ، لها شعاع يغشي البصر. ﴿فِي تِسْعِ آياتٍ﴾ أي تلك آية من تسع آيات أي معجزات دالة على صدقك ، أو في جملتها ، والتسع : هي فلق البحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، وجدب واديهم ، ونقصان مزارعهم. ومن عد العصا واليد من التسع جعل الأخيرين واحدا ، ولم يعد الفلق منها ؛ لأنه لم يبعث به إلى فرعون وقومه.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة واضحة مضيئة. ﴿مُبِينٌ﴾ بيّن ظاهر. ﴿وَجَحَدُوا بِها﴾ لم يقروا. ﴿اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ تيقنوا أنها من عند الله والاستيقان أبلغ من الإيقان. ﴿ظُلْماً﴾ لأنفسهم. ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعا وتكبرا عن الإيمان بما جاء به موسى. ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد. ﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة. قال الزمخشري : وأي ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينات واضحة جاءت من عند الله ، ثم كابر بتسميتها سحرا بينا مكشوفا لا شبهة فيه.

المناسبة :

بعد أن أخبر الله تعالى أن القرآن المجيد متلقى من عند الله الحكيم العليم ، أمر النبي ﷺ بتلاوة بعض ما تلقاه ، تقريرا له ، وهو ما أورده من بعض القصص للعظة والذكرى.

التفسير والبيان :

ابتدأ الله تعالى بالتذكير بقصة موسى كيف اصطفاه الله وكلّمه وناجاه ، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدوا بها وكفروا ، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال :

﴿إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ : إِنِّي آنَسْتُ ناراً ، سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي اذكر أيها الرسول حين سار موسى بأهله (زوجته) من مدين إلى مصر ، فضل الطريق في ليل مظلم ، فرأى من بعيد نارا تتأجج وتضطرم ، فقال لأهله مستبشرا بمعرفة الطريق والاصطلاء بالنار : إني أبصرت نارا ، سآتيكم منها بخبر عن الطريق ، أو آتيكم منها بشعلة نار ، تستدفئون بها في هذه الليلة الباردة.

وكان الأمر كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم هو النبوة ، واقتبس منها نورا عظيما لا نارا هو نور الرسالة ، كما قال :

﴿فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها ، وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي فلما وصلها ، ورأى منظرها هائلا حيث تضطرم النار في شجرة خضراء ، فلا تزداد النار إلا توقدا ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضارة ، ثم رفع رأسه ، فإذا نورها متصل بعنان السماء ، ولم تكن نارا ، وإنما كانت نورا ، هو نور رب العالمين ، كما قال ابن عباس ، فوقف موسى متعجبا مما رأى ، فنودي أن

بورك من في مكان النار ، ومن حول مكانها ، أي تبارك من في النور ، والمكان : هو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى : ﴿نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ﴾ [القصص ٢٨ / ٣٠] وما حولها : أرض الشام ذات البركات والخيرات ؛ لكونها مهبط الأنبياء ، ومبعث الرسالات.

وقيل : من في النور هو الله سبحانه ، ومن حولها : الملائكة ، والأولى ما ذكرناه.

وسبب المباركة : حدوث هذا الأمر العظيم فيها ، وهو تكليم الله موسى عليه‌السلام ، وجعله رسولا ، وإظهار المعجزات على يده.

ولما كان هذا الحال قد يوهم بالتجسيم والمادية نزه الله تعالى نفسه عما لا يليق بذاته وحكمته ، فقال : ﴿وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي تنزه الله الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات ، والأحد الفرد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقد عرف موسى أن ذلك النداء من الله تعالى ؛ لأن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق ، فصار ذلك كالمعجز الدال على صدور الكلام من الله سبحانه.

ومما يدل على صحة هذا التعليل المروي عن ابن عباس : ما أخرجه مسلم في صحيحة وابن ماجه في سننه ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم : «إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، حجابه النور ، لو كشفها [١] لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شيء

---

(١) لعل تأنيث الضمير بتأويل النور بالأنوار ، وهذه رواية ابن ماجه ، ورواية مسلم : «لو كشفه».

أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها ، وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

ثم صرح الله تعالى بإظهار كلامه فقال :

﴿يا مُوسى ، إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي يا موسى ، إن الذي يخاطبك ويناجيك هو الله ربّك الذي عزّ كل شيء وقهره وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله.

ثم أراه قدرته وأيده بالمعجزات ، فقال تعالى :

المعجزة الأولى :

﴿وَأَلْقِ عَصاكَ ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ ، وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي أمره الله بإلقاء عصاه من يده على الأرض ، فلما ألقاها ، انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة ، في غاية الكبر وسرعة الحركة معا ، فلما رآها هكذا ، ولّى هاربا خوفا منها ، ولم يرجع على عقبيه ، ولم يلتفت وراءه من شدة خوفه.

فهدّأ الحق تعالى نفسه ، وأزال عنه الرعب ، فقال :

﴿يا مُوسى ، لا تَخَفْ ، إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي لا تخف يا موسى مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسولا ، وأجعلك نبيا وجيها ، ولا يخاف عندي الرسل والأنبياء إذا أمرتهم بإظهار المعجزة.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ، فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا استثناء عظيم ، وبشارة عظيمة للبشر في هذا الكلام الرباني المباشر مع موسى ، أي لكن من ظلم نفسه أو غيره أو كان على عمل سيء ، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب إلى ربه ، فإن الله يقبل توبته ؛ لأنه بدل بتوبته عملا حسنا بعد سوء ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾ [طه ٢٠ / ٨٢] وقال

سبحانه : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ ، يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء ٤ / ١١٠].

المعجزة الثانية :

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك [١] فإذا أدخلتها وأخرجتها ، خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف ، من غير آفة بها كبرص وغيره.

ويلاحظ أن المعجزة الأولى كانت بتغيير ما في يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير يده نفسها وجعلها ذات أوصاف نورانية.

﴿فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان أو الآيتان في جملة أو من تسع آيات أخرى أؤيدك بهن ، وأجعلها برهانا لك ، مرسلا بها إلى فرعون وقومه ، كما قال : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠١].

﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ﴾ أي لأنهم كانوا قوما عصاة خارجين عن دائرة الحق ، بتأليه فرعون. وهذا تعليل لما سبق من تأييده بالمعجزات.

ثم كان اللقاء مع فرعون وقومه ، فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي فلما جاءت فرعون وقومه آياتنا التسع بينة واضحة ظاهرة دالة على صدق موسى وأخيه هارون ، أنكروها وقالوا : هذا سحر واضح ظاهر ، وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين. وعبّر بقوله : ﴿مُبْصِرَةً﴾ للدلالة على أنها لفرط وضوحها

---

(١) هو الفتحة التي يدخل منها الرأس ثم يتدلى الثوب إلى الصدر والجسد.

كأنها تبصر نفسها. ونظرا لهذا الوضوح فيها صدقوا بها في قلوبهم ، وكذبوا بها في الظاهر بألسنتهم فقال تعالى :

﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾ أي وأنكروها وكذبوا بها في ظاهر الأمر مكابرة بالألسنة وعنادا ، وتيقنوا وعلموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ظلما من أنفسهم واستكبارا عن اتباع الحق ، كما جاء في آية أخرى : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٤٦].

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر أيها الرسول وكل سامع كيف كان عاقبة أمر فرعون وقومه في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفي هذا تحذير لمكذبي الرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشرية.

والمعنى : فاحذروا أيها المكذّبون لمحمد ﷺ ، الجاحدون لما جاء به من عند ربه أن يصيبكم مثل ما أصاب أولئك بطريق الأولى والأخرى ، لأن النبوات ختمت برسالته ، ولأن القرآن المنزل عليه مصدّق لما بين يديه وما تقدمه من الكتب السابقة ومهيمن عليها ، ولبشارات الأنبياء به وأخذ المواثيق له ، ولتأييده بأدلة دالة على صدق نبوته أكثر من موسى عليه‌السلام وغيره من الأنبياء والرسل ، وعلى رأسها معجزة القرآن المجيد ، كما أخبر تعالى في مطلع هذه السورة : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام :

تكررت قصة موسى عليه‌السلام في القرآن الكريم في سور عديدة ، لما تضمنت من العظة والعبرة التي تتجلى في قهر الله أكبر قوة عاتية بشرية وتحطيم جبروت سلطة ظالمة غاشمة ، على يد رجل أعزل من السلاح هو وأخوه هارون إلا أنهما قويان بقوة الله ، وقوة الإيمان ، وعظمة النبوة.

وهي أول قصة حكاها القرآن في هذه السورة على أثر قوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي خذ يا محمد من آثار حكمة الله وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله : «إني آنست نارا ...».

مشى موسى عليه السلام هو وزوجته من مدين إلى مصر ، وشأنه ككل بشر عادي ، يحار في الصحراء ، ومفارق الطرق ، وفي الليالي الظلماء الباردة العاصفة ، فضل الطريق ، وأحس هو وزوجته بالحاجة إلى الدفء ، كما يحس المسافر العادي بالحاجة إلى النار أثناء البرد.

واستدرجه ربّه فيما يناسب ظرفه والمناخ الذي يكتنفه ، فرأى نارا من بعيد ، فبشّر أهله بما رأى ، وأنه سيأتي بشعلة نار منها ، ويهتدي بأهل النار إلى الطريق ، إذ النار لا توقد وحدها من دون شخص يوقدها.

ولكنه فوجئ بنقيض مقصوده ، لما جاء المكان الذي ظن أنه نار ، وهي نور ، وذلك أنه لما رأى موسى النار وقف قريبا منها ، فوجدها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الاخضرار ، يقال لها العلّيق ، لا تزداد النار إلا عظما وتضرّما ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسنا ، وأراد أن يقتطع منها غصنا ملتهبا ، فلم يتمكن ، حتى تبين أنها مباركة ، ثم نودي : ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي ناداه الله مباركا مكان النار ، ومن حولها : الملائكة والبقعة وموسى. وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ؛ قال : ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود ١١ / ٧٣].

والخلاصة : إن هذه النار التي رآها موسى فيض من نور الله ، تمهيدا لتكليم الله موسى وتحيته وجعله نبيا رسولا ، وتنزيها وتقديسا لله رب العالمين ، علما بأن هذا الكلام الأخير من قول الله تعالى تعليما لنا ، وقيل : إن موسى عليه السلام قال حين فرغ من سماع النداء : استعانة بالله تعالى وتنزيها له.

وكانت فاتحة خطاب الله لموسى إظهار عظمة الله وعزته وحكمته البالغة : ﴿إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي إنني أنا الله الغالب القاهر الذي ليس كمثله شيء ، الحكيم في أمره وفعله.

ثم جعل له تسع آيات دليلا وبرهانا على نبوته ، وأهمها وأبرزها : العصا واليد ، فكان إذا ألقى عصاه من يده ، صارت حية تهتز كأنها جانّ ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم ، وقيل : إنها كبيرة ضخمة ذات حركة سريعة. وإذ أدخل يده في جيب ثم أخرجها أصبحت ذات مصدر إشعاع ونور كالقمر.

ومن الطبيعي أن يخاف موسى عليه‌السلام لأول مرة من الحية المضطربة المتحركة التي يخشى الإنسان من لدغها بالفطرة ، ففرّ هاربا منها ، ولم يرجع ولم يلتفت إلى ما وراءه ، فطمأنه ربه العلي العظيم قائلا : ﴿إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ وهذا خبر بالرسالة والنبوة.

ثم استثنى استثناء منقطعا من خلاف جنس المستثنى منه فقال : ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي لكن لا يخاف من ظلم وعصى وأساء ، ثم تاب وأناب لربه ، فالله غفور لمن تاب ، رحيم بمن أناب. وهذا تثبيت لموسى بأنه ليس من شأنه الخوف ، وتطمين له بأن ربّه غفر له بعد أن تاب من حادث قتل القبطي وهو شاب حدث قبل النبوة. أما بعد النبوة فالأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر.

ثم أخبره ربه بأنه مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه الفاسقين ، أي الخارجين عن طاعة الله ، فأظهر موسى عليه‌السلام لهم معجزاته الباهرة الدالة على صدقه دلالة واضحة بيّنة ، فجروا على عادتهم في التكذيب ، وأنكروها وعاندوها في الظاهر ، ولكنهم تيقنوا من صدقها في الباطن أو في القلب ، وأنها من عند الله ، وأنها ليست سحرا ، غير أنهم تجاهلوا ذلك ، وجحدوا بها جحودا ظلما وعلوا واستكبارا كشأن كل العتاة المتكبرين.

ثم أوجز الله تعالى العبرة من هذه القصة بتلك العبارة التي ختمت بها فقال : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان مصير أو آخر أمر الكافرين الظالمين ، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه ، ولينظر أيضا كل عاقل ، وليعتبر بالنتائج الحادثة بأسباب تؤدي إليها في سنة الله ونظامه.

القصة الثانية

قصة داود وسليمان عليهما السلام

ـ ١ ـ

نعم الله الجليلة عليهما

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾

الإعراب :

﴿قالَتْ نَمْلَةٌ : يا أَيُّهَا النَّمْلُ ، ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ﴾ خاطبهم مخاطبة من يعقل لما وصفهم بصفات من يعقل.

﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ لا﴾ الناهية ، ولهذا دخلت النون المشددة في ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ جملة حالية.

البلاغة :

﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فيه حسن الاعتذار والالتفات.

﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ، ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فيه نداء ، وتنبيه ، وأمر بالدخول ، وبيان الملجأ والمأمن ، والتحذير ، وتخصيص سليمان ، ثم التعميم ، والاعتذار الحسن.

المفردات اللغوية :

﴿عِلْماً﴾ هو علم الشرائع والأحكام والقضاء بين الناس ومنطق الطير وغير ذلك. ﴿وَقالا﴾ شكرا لله ، وعطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة ، كأنه قال : ففعلا شكرا له ما فعلا ، وقالا : الحمد لله ﴿الَّذِي فَضَّلَنا ..﴾ بالنبوة والعلم وتسخير الجن والإنس والشياطين على من لم يؤت علما. وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله ، حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ، ولم يعتبروا ما دونه من الملك. وفيه أيضا تحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾ النبوة والعلم أو الملك دون باقي أولاده الذين كانوا تسعة عشر ﴿عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي علمنا فهم ما يريده كل طائر إذا صوّت ، والمنطق والنطق : الصوت المعبر عما في النفس. ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تؤتاه الأنبياء والملوك ، وفيه التحدث بنعمة الله ، ودعوة الناس إلى التصديق بالمعجزة التي هي علم الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه. ﴿إِنَّ هذا﴾ المؤتى. ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ البيّن الظاهر. ﴿يُوزَعُونَ﴾ يكفّون ، ويجمعون بأن يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم من الوزع : الكف والمنع. ﴿وَحُشِرَ﴾ جمع. ﴿وادِ النَّمْلِ﴾ واد في بلاد الشام كثير النمل ، وقيل : في بلاد اليمن. ﴿قالَتْ نَمْلَةٌ﴾ هي ملكة النمل ، وقد رأت جند سليمان. ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أصله : لا يحتطمنكم ، وهو نهي لهم عن الحطم أي عن التوقف بحيث يحطمونها

ويكسرونها ، وهو مثل قولهم : لا أرينك هاهنا. ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم يحطمونكم ، إذ لو شعروا لم يفعلوا ، كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقد نزل النمل منزلة العقلاء ، في الخطاب بخطابهم.

﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان. ﴿ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها﴾ تعجبا من تحذيرها واهتدائها إلى مصالحها أو سرورا بما خصه الله به من إدراك همسها وفهم غرضها. ﴿أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني. ﴿وَعَلى والِدَيَ﴾ أدرج في دعائه ذكر والديه تكثيرا للنعمة أو تعميما لها ، فإن النعمة عليهما نعمة عليه ، والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ﴾ تماما للشكر واستدامة للنعمة. ﴿فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي أدخلني في عدادهم الجنة ، وهم الأنبياء والأولياء.

المناسبة :

هذه قصة ثانية بعد قصة موسى عليه‌السلام تبين آثار حكمة الله ، وتعليمه ، وإنزال القرآن ، وأنه من حكيم عليم ، ففيها يخبر الله تعالى عما أنعم به على داود وسليمان من النعم الجليلة والصفات الجميلة ، وما جمع لهما من سعادة الدنيا والآخرة بإيتاء النبوة والملك معا.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً ، وَقالا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولقد أعطينا كلا من داود وابنه سليمان طائفة من العلم هو علم الشرائع والأحكام والقضاء بين الناس ، وعلمنا داود صنعة دروع الحرب ، وعلمنا سليمان منطق الطير ، فشكرا الله تعالى على نعمه ، وقالا : الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من العباد المؤمنين بهذه العلوم والمعارف الجامعة لخيري الدنيا والآخرة ، ولم يؤتهم مثلنا.

وهذا دليل على فضل العلم الذي لم يكن الملك إلا دونه ، وعلى رفع مرتبة العلم والعلماء ، كما قال سبحانه : ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا

﴿الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١١] وهو حث للعالم على شكر النعمة وعلى التواضع ، فلم يفضلا أنفسهما على الكل ، وإنما على الكثير ، وتذكير بأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل على الكثير أناس مثله. وأشرف مراتب العلم : العلم بالله وبصفاته. روي ابن أبي حاتم أن عمر بن عبد العزيز رحمه‌الله كتب : إن الله لم ينعم على عبده نعمة ، فيحمد الله عليها ، إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً ، وَقالا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما‌السلام .

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾ أي خلف سليمان أباه داود بعد موته في ميراث النبوة والعلم والملك ، وليس المراد وراثة المال ، لأنه خصص بهذا الإرث عن بقية أولاد داود الكثر ، ولأن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وسلم في قوله فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة : نحن معاشر الأنبياء «لا نورث ، ما تركنا صدقة».

وكان داود أكثر تعبدا من سليمان ، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة الله ، وكان أعظم ملكا من أبيه ، فقد أعطي ما أعطي داود ، وزيد له تسخير الريح والشياطين ، ومعرفة لغة الطيور ، كما أخبر تعالى معددا بعض نعم الله عليه :

١ ـ تعليمه منطق الطير :

﴿وَقالَ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ، عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي قال سليمان متحدثا بنعمة الله عليه أن ربه علّمه لغة الطير والحيوان إذا صوّت ، فأستطيع التمييز بين مقاصده من نوع تصويته. وربما فهم بعض الناس الذين يقدمون خدمات للحيوان بعض أصوات الحيوانات ، كالخيول والبغال والحمير والأبقار والإبل والقطط ، فيدركون رغبتها في الأكل أو الشرب ، ويفهمون تألمها عند المرض أو

الضرب. وأدرك أناس في العصر الحديث كثيرا من لغات الطيور حال الحزن أو الفرح أو الحاجة إلى الطعام والشراب والاستغاثة وغير ذلك بالتجربة والملاحظة وتشابه النغمات في حال واحدة ، كما حاولوا معرفة لغات الحشرات كالنمل والنحل.

قال البيضاوي : ولعل سليمان عليه السلام كان إذا سمع صوت حيوان ، علم بقوّته الحدسية التخيل الذي صوّته ، والغرض الذي توخاه به ، ومن ذلك ما حكي : أنه مرّ ببلبل يصوّت ويرقص ، فقال سليمان : إنه يقول : «إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء» وصاحت فاختة [١] ، فقال : إنها تقول : «ليت الخلق لم يخلقوا» فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال ، وصياح الفاختة عن مقاساة شدة وتألم قلب.

﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطينا خيرا كثيرا من كل شيء في الدين والدنيا من ملك وثروة. وهذا الأسلوب كما ذكر الزمخشري يراد به كثرة ما أوتي كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شيء ، تريد كثرة قصّاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه ، ومثله قوله تعالى في مقال الهدهد عن بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٧ / ٢٣].

والضمير في ﴿عُلِّمْنا﴾ ، ﴿وَأُوتِينا﴾ لسليمان ولأبيه ، أو له وحده ، على عادة الملوك ، لمراعاة قواعد السياسة.

﴿إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي إن هذا المؤتى من الخيرات والنعم من النبوة والملك والحكم ، لهو الفضل الإلهي الظاهر البيّن الذي لا يخفى على أحد ، وهو فضل الله علينا. وهو قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة ، كما قال

---

(١) نوع من الحمام البري ، جمع فواخيت.

رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر» أي أقول هذا القول شكرا ، ولا أقوله فخرا.

٢ . جنود سليمان :

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، أي ركب فيهم في أبّهة وعظمة ، تليه الإنس ، ثم الجن ، ثم الطير ، فإن كان حرّ أظلته منه بأجنحتها ، فهم يجمعون بترتيب ونظام ، بأن يوقف أوائلهم لتلحقهم أواخرهم ، ويردّ أو يكفّ أولهم على آخرهم ، لئلا يتقدم أحد عن منزلته ومرتبته ، وليكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد. وهذا يدل على مسيرته في جيش عظيم منظم له عرفاء ، ليس جيشا من الناس فقط ، وإنما معه الجن ، والطير.

قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة (عرفاء) ، يردون أولاها على أخراها ، لئلا يتقدموا في المسير ، كما يفعل الملوك اليوم. وعلى هذا فكلمة ﴿يُوزَعُونَ﴾ من الوزع وهو الكف والمنع ، قال عثمان بن عفان : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن أي من الناس. وقال الحسن البصري : لا بد للناس من وازع ، أي سلطان يكفّ ويمنع.

وهذا دليل على أن سليمان عليه‌السلام جمع بين النبوة والسلطات كلها ، والملك الذي لم يتوافر لأحد بعده ، فضلا من الله واستجابة لدعائه : ﴿قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ ، وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص ٣٨ / ٣٥ . ٣٧]. وقال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ ، يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ ، وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٢ . ١٣].

وبه يتبين أن الله تعالى سخر لسليمان الإنس ، فكان له عساكر كثيرون منهم ، والجن لصناعة المباني الضخمة والأواني الواسعة والقدور السابغة ، والطير ، كما سيأتي في قصة الهدهد.

٣ . قصة النملة :

﴿حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ : يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي حتى إذا قدم سليمان ومن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ، وهي ـ كما يقال ولم يثبت ـ واد بالشام أو بغيره كثير النمل ، نادت نملة هي ملكة النمل ، كما فهم سليمان : يا أيها النمل ، ادخلوا بيوتكم ، حتى لا يكسرنكم سليمان وجنوده ، دون أن يشعروا بذلك.

وقوله : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ كما جاء في الكشاف : يحتمل أن يكون جوابا للأمر ، أي ادخلوا لا يحطمنكم ، مثل : اجتهد لا ترسب ، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر ، أي في معنى : لا تكونوا حيث أنتم ، فيحطمكم ، على طريقة : لا أرينك هاهنا.

﴿فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها ، وَقالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي فتبسم شارعا في الضحك بعد أن فهم قولها ، تعجبا من تحذيرها ، أو سرورا بما خصه الله به من فهم غرضها ، وقال : ربّ ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك ، وأن أعمل عملا تحبه وترضاه قياما بواجب الشكر على النعمة ، واجعلني إذا توفيتني في الجنة في زمرة الصالحين من الأنبياء والأولياء الصلحاء. وإنما أدرج ذكر والديه ؛ لأن النعمة على الولد نعمة على الوالدين ، خصوصا نعمة الدين ، فإن الولد إذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته ، وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له.

وهذا دليل على أن نعمة العلم وحدها كافية في وجوب الشكر ، مستحقة للحمد والثناء على المتفضل المنعم بها. وفيه الدليل على البر بالوالدين والدعاء لهما بعد موتهما.

ومن وقائع فهم سليمان كلام النمل : ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال : «خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي ، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها ، رافعة قوائمها إلى السماء ، وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ، ولا غنى بنا عن سقياك ، وإلا تسقنا تهلكنا ، فقال سليمان : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن نعمة العلم من أجل النعم وأشرفها وأرفعها رتبة ، وإن من أوتي العلم فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١١].

٢ ـ كان إرث سليمان من والده داود عليهما السلام هو النبوة والملك ، وليس وراثة مال ، وإلا لكان جميع أولاد داود التسعة عشر فيه سواء. والمقصود أنه صار إليه ذلك بعد موت أبيه ، فسمي ميراثا تجوزا ، كما قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن أبي الدرداء مرفوعا : «العلماء ورثة الأنبياء» أي ورثتهم في العلم والحكمة وفهم أمور الدين والدنيا على حقيقتها. ودليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم : إنا معشر الأنبياء «لا نورث».

٣ ـ تقتضي نعمة العلم وغيره شكر المنعم وحمده على فضله وإحسانه ، كما فعل داود وسليمان عليهما السلام ، ودل قولهما على تواضع العلماء والاعتقاد بأنه وإن فضلا على كثير ، فقد فضل عليه أناس مثلهما ، وهذا مشابه لقول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفقه من عمر.

٤ ـ عدد الله في القصة نعما ثلاثا على سليمان عليه السلام : هي تعليمه منطق الطير وإيتاؤه الخير الكثير ، وتسخير الجن والإنس والطير ، وفهمه خطاب النملة. وأصوات الطيور والبهائم هو منطقها ، وفي مناطقها معاني التسبيح وغير ذلك ، كما أخبر تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ١٧ / ٤٤].

٥ ـ بدأ سليمان عليه السلام في تعداد هذه النعم قائلا : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا تشهير لنعمة الله ، وتنويه بها ، واعتراف بمكانها ، ودعوة الناس إلى التصديق برسالته بذكر المعجزة وهي علم منطق الطير وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور.

٦ ـ اشتمل دعاء سليمان عليه السلام على طلب الإلهام من الله شكر ما أنعم به عليه ، وعلى توفيقه لزيادة العمل الصالح والتقوى ، فهو عليه السلام بعد أن سأل ربه شيئا خاصا وهو شكر النعمة ، سأل شيئا عاما وهو أن يعمل عملا يرضاه الله تعالى.

٧ ـ دل قوله : ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ على جواز اتخاذ الإمام والحكام وزعة (أي عرفاء يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم.

هذا .. وقد علّق ابن العربي على قول عثمان : «ما يزع الناس السلطان أكثر مما يزعهم القرآن» فقال :

وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن. وهذا جهل بالله وحكمه وحكمته ووضعه لخلقه ، فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافّة قائمة لقوام الخلق ، لا زيادة عليها ولا نقصان معها ، ولا يصلح سواها ، ولكن الظلمة خاسوا بها ،

وقصّروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية منها ، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها.

ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النية ، لاستقامت الأمور ، وصلح الجمهور [١].

٨ ـ ما حكاه تعالى من قول النملة : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ حسن اعتذار ، وبيان عدل سليمان ورأفته وتدينه وفضله وفضل جنوده ، فهم لا يحطمون نملة أو لا يدوسون على نملة فما فوقها إلا خطأ غير مقصود لا يشعرون به. وقد قيل : إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها ، ولذلك أكد التبسم بقوله ﴿ضاحِكاً﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا ، وتبسم الضحك إنما هو عن سرور ، وسرور النبي بأمر الآخرة والدين ، لا بأمر الدنيا.

٩ ـ أفهم الله تعالى النملة هذا الكلام لتكون معجزة لسليمان عليه‌السلام .

١٠ ـ أودع الله في كل حيوان غرائز معينة ، يهتدي بها إلى ما ينفعه ، ويمتنع بها عما يضره. ومن درس طبائع الحيوانات وعرف خصائصها ، أدرك فيها عجائب مثيرة ، وإلهامات غريبة ، وذلك يدعو إلى الإيمان بالله الخالق الموجد الملهم ، وسبحانه أبدع كل شيء ، وأحسن كل شيء خلقه. وقد أجاب موسى عليه‌السلام فرعون حينما قال له ولأخيه هارون : ﴿قالَ : فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى؟ قالَ : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدى﴾ [طه ٢٠ / ٤٩ ـ ٥٠].

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٤٣٨.

-٢٠-

قصة الهدهد مع سليمان عليه‌السلام

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (٢٥) اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾

الإعراب :

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً﴾ : إما منصوب على المصدر ، بجعل العذاب الذي هو اسم قائما مقام «تعذيب» ويجوز إقامة الأسماء مقام المصادر ، كقولهم : سلمت عليه سلاما ، وكلمته كلاما ، وإما منصوب على المفعول بتقدير حذف حرف الجر ، أي لأعذبنه بعذاب.

وليست اللام في ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾ لام القسم ؛ لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد ، ولكن لما جاء في أثر قوله ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ أجراه مجراه.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ غَيْرَ﴾ إما صفة مصدر محذوف ، أي فمكث مكثا غير بعيد ، أو وصف لظرف محذوف ، أي فمكث وقتا غير بعيد.

﴿مِنْ سَبَإٍ﴾ اسم مصروف للحي أو للأب ، ومن قرأ بترك الصرف جعله اسما لقبيلة أو بلدة ، فلم يصرف للتعريف والتأنيث. والصحيح أن ﴿سَبَإٍ﴾ اسم رجل ، كما في كتاب الترمذي.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا أَلَّا﴾ بالتشديد ، أصلها «أن لا» وأن : في موضع نصب ، لتعلقه ب ﴿يَهْتَدُونَ﴾ و (لا) : زائدة. ومن قرأ بالتخفيف ، جعل ﴿أَلَّا﴾ للتنبيه ، وجعل (يا) حرف نداء ، والمنادي محذوف ، وتقديره : يا هؤلاء اسجدوا ، فحذف المنادي لدلالة حرف النداء عليه.

البلاغة :

﴿أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ فيها مراعاة فواصل الآيات. ﴿ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ تعجب.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ التأكيد المكرر للدلالة على العزم المشدد على الفعل.

﴿أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ جناس ناقص.

﴿تُخْفُونَ تُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ طباق بالمعنى ، وهو أبلغ من المطابقة باللفظ ؛ لأن الجملة الثانية اسمية ، وهي تفيد الثبوت.

المفردات اللغوية :

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ بحث عنه ، والتفقد : طلب ما فقد ، والطير : اسم جنس لكل طائر ﴿ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ﴾ تعجب من عدم رؤيته الهدهد ، ظنا منه أنه حاضر محجوب عنه لساتر أو غيره. وأم منقطعة للإضراب ، أي فلما لاح له أنه غائب ، أضرب عن ذلك وقال : بل أهو غائب ، كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً﴾ أي تعذيبا شديدا كنتف ريشه وإلقائه في الشمس ، فلا يمتنع من هوام الأرض لعجزه عن الطيران ، أو كجعله في قفص ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ بقطع حلقومه ، ليعتبر به غيره ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ ببرهان بين ظاهر أو بحجة بينة على عذره.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي ظل الهدهد غائبا زمانا يسيرا ثم عاد ، والمراد الدلالة على سرعة رجوعه خوفا منه ﴿أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ اطلعت على ما لم تطلع عليه ، والإحاطة : العلم بالشيء من جميع جهاته ، أي اطلع على حال سبأ. وفي هذا الخطاب تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط به ، للدلالة على محدودية العلم عند سليمان ﴿مِنْ سَبَإٍ﴾ اسم مدينة في اليمن ، والمراد أهلها ، سميت باسم جد لهم وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة باليمن ، فمن جعله اسما للقبيلة منعه من الصرف ، ومن جعله اسما للحي أو الأب الأكبر ، جعله مصروفا ، ثم سميت مدينة مأرب بسبإ ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث مراحل ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ خبر مهم محقق.

﴿امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ اسمها بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان ، وضمير ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ لسبأ أو لأهلها ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد كثرة ما أوتيت مما يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدّة ﴿وَلَها عَرْشٌ﴾ هو سرير الملك ﴿عَظِيمٌ﴾ عظمه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي كأنهم كانوا يعبدونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ أي عبادة الشمس وغيرها من مقابيح أفعالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحق والصواب ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ إليه. ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي : أن يسجدوا له ، فزيدت (لا) وأدغم فيها نون «أن» كما في آية ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٩] أي ليعلم ﴿الْخَبْءَ﴾ المخبوء من كل شيء كالمطر والنبات وغيره من المغيبات ، و ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ يظهره ، وهو يشمل إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات وإنشاء الأشياء وإبداعها ﴿وَيَعْلَمُ﴾ ما يخفون في قلوبهم ﴿وَما تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم.

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ هو استئناف جملة ثناء ، مشتمل على عرش الرحمن ، في مقابلة عرش بلقيس ، وبينهما بون عظيم ﴿قالَ : سَنَنْظُرُ﴾ أي قال سليمان للهدهد : سنتعرف ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ أي من هذا النوع ، والتغيير من الجملة الفعلية إلى الاسمية للمبالغة ، فالجملة الاسمية أبلغ من : «أم كذبت فيه» ولمراعاة الفواصل.

﴿اذْهَبْ بِكِتابِي هذا﴾ صورة الكتاب : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ انصرف أو تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ﴿فَانْظُرْ﴾ تأمل وفكّر ﴿ما ذا يَرْجِعُونَ﴾ ما يردّون من الجواب وما ذا يقول بعضهم لبعض.

المناسبة :

بعد بيان تسخير الجن والإنس والطير لسليمان عليه السلام ، أبان الله تعالى هنا أن سليمان تفقد طير الهدهد ، فلم يجده ، ثم حضر فأخبره عن مملكة بلقيس ، وعن عبادتهم الشمس.

التفسير والبيان :

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ، فَقالَ : ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ، أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ﴾ أي بحث سليمان عن الهدهد بين جنوده ، وكان له علم بمنطق الطير ، وكانت الطيور مسخرة له كالريح وغيرها ، فقال متعجبا : كيف لا أرى الهدهد؟ علما بأنه لم يأذن له بالغياب ، بل هو من الغائبين دون أن أعلم بغيبته. وفي العبارة قلب ، أي ما للهدهد لا أراه؟! وهو كقولك : ما لي أراك كئيبا؟ أي مالك؟.

وذكر المفسرون أن سبب بحثه عنه أنه كان يدل على مكان وجود الماء تحت الأرض ، بنقره فيها ، فيستخرج منها من طريق الجن أو الشياطين ، كما كان يرشد سليمان وجنوده إلى الحد الفاصل بين قريب الماء وبعيده أثناء السير بفلاة من الأرض.

وحين تثبّت من غيابه توعده بالعذاب إذا كان بغير عذر مقبول ، فقال تعالى : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي أنه هدده بالقتل أو بالتعذيب والعقاب الشديد كنتف ريشه إلا أن يأتي ببرهان واضح يبين عذره ، أي إن التهديد والوعيد كان بأحد أمرين إن لم يأت بالأمر الثالث وهو العذر الواضح البيّن.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقالَ : أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي غاب الهدهد زمانا يسيرا ثم جاء فسأله سليمان عن سبب غيابه ، فقال

لسليمان : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، وجئتك من مدينة سبأ بخبر صدق متيقّن ، والأكثر على أن ﴿سَبَإٍ﴾ مصروف ؛ لأنه اسم بلد. وأهل سبأ : هم حمير وهم ملوك اليمن. والأكثر على أن الضمير في ﴿فَمَكَثَ﴾ يعود للهدهد ، ويحتمل أن يكون لسليمان ، والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل ، أي غير وقت طويل.

وقد كان الهدهد ماهرا بالدفاع عن نفسه بتلطف وقدرة على اجتذاب النظر إليه وإصغاء السمع لكلامه ، وأنه كان يقوم برحلة استكشاف علمية لمملكة سبأ ومعرفة أحوال أهلها في الملك والتدين. ثم عرّف سليمان ببعض المعارف بالرغم مما أوتيه من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، للتنبيه على وجود العلم والمعرفة عند من هو أضعف منه ، وللإرشاد إلى ضرورة تواضع العلماء.

قال الزمخشري : وفيه دليل على بطلان قول الرافضة : أن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه [١].

ومضمون خبر الهدهد ثلاثة أمور هي في هذه الآية :

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي إني وجدت في بلاد سبأ مملكة عظيمة ذات مجد تملكهم امرأة هي بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها

قبلها ملكا عظيم الملك ، وأعطيت من متاع الدنيا الشيء الكثير من شراء وغنى ، وملك وأبهة ، وجيش مسلح بأنواع مختلفة من معدات القتال ، وبإيجاز : أوتيت من كل شيء تحتاجه المملكة في زمانها ، ولها سرير عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ ، تجلس عليه ، فوصفه بالعظم أي في الهيئة ورتبة السلطان ، قال المؤرخون : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد ، رفيع البناء ، محكم الصنع ، فيه ثلاث مائة طاقة من مشرقه ومثلها

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤٤٨.

من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة ، وتغرب من مقابلتها ، فيسجدون لها صباحا ومساء. وهذا ما أشارت إليه الآية التالية المبينة عقيدتهم الدينية.

﴿وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ أي وجدت هذه الملكة وقومها يعبدون الشمس من غير الله ، وزيّن لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فصاروا يرون السيء حسنا ، ومنعهم الشيطان عن طريق الحق وعبادة الله الواحد الأحد ، فأصبحوا لا يهتدون إليه.

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده ، دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، وهو الخالق المبدع الذي يخرج إلى الوجود بعد العدم كل شيء مخبوء مغيب في السموات والأرض كالمطر والنبات والمعادن والمخلوقات ، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال.

ونظير الآية في القسم الأول منها : ﴿وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت ٤١ / ٣٧]. ونظيرها في القسم الآخر : ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ [الرعد ١٣ / ١٠].

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي أنه بعد بيان الدليل على وجود الله وتوحيده ، وهو افتقار العالم إليه ، نزهه وأبان عظمته ، فذكر أنه الإله الواحد الذي لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه ، وهو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه ، فكل عرش مهما عظم فهو دونه ، ومنها عرش بلقيس ، فكان الواجب إفراده بالعبادة. فوصف الهدهد عرش بلقيس بالعظم

بالنسبة أو بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله بالعظم بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض.

فأجاب سليمان عليه‌السلام طير الهدهد عن دفاعه عن نفسه لتبرئة ساحته ، حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم فقال :

﴿قالَ : سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ أي قال سليمان : سنتعرف على مدى صحة قولك ، أصادق في إخبارك هذا ، أم أنك كاذب في مقالتك ، لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك به؟.

والمغايرة بين الجملتين الفعلية والاسمية في هذه الآية ، وجعل الثانية اسمية للمبالغة كما بينا ، وإفادة ثبات صفة الكذب عليه ، وأنه مداوم على الكذب لا ينفك عنه. ووسيلة الاختبار هي :

﴿اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ﴾ أي إن سليمان عليه‌السلام كتب كتابا إلى بلقيس وقومها ، يدعوها فيه إلى الإيمان والإسلام لله عزوجل ، وأعطاه ذلك الهدهد ، وأمره أن يلقيه إليهم ، ثم يبتعد عنهم قريبا ، ويتأمل رد الفعل ، وما يراجع بعضهم بعضا القول ، ويناقش فيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ القائد يتفقد عادة جيشه وجنوده ، وقد فعل ذلك سليمان عليه‌السلام أثناء مسيره ومروره بوادي النمل ، فتفقد جنس الطير وجماعتها التي كانت تصحبه في سفره ، وتظله بأجنحتها. وكان سبب تفقده ما تقتضيه عادة العناية بأمر الملك ، والاهتمام بعناصر الجيش وبكل جزء منها ، كما دل ظاهر الآية. وقال

عبد الله بن سلام : إنما طلب الهدهد ؛ لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض ، لأنه كان نزل في مفازة عدم فيها الماء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة ؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة.

قال القرطبي : في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك. ويرحم الله عمر بن الخطاب ، فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ، ليسأل عنها عمر [1]. والخلاصة : استنبط العلماء من الآية استحباب تفقد الحاكم أحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء والأقارب.

٢ ـ قوله تعالى : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً﴾ دليل على أن الحدّ أي العقوبة على قدر الذنب ، لا على قدر الجسد ، ولكن يرفق بالمحدود في الزمان والصفة. وأما ذبحه فدليل على أن الله أباح له ذلك ، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي علمت ما لم تعلمه من الأمر ، دليل على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب ، ودليل على أن الصغير يقول للكبير ، والمتعلم للعالم : عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه.

٤ ـ الاعتذار الصحيح مقبول عند أهل الحق والإيمان ، فقول الهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ دفع فيه عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح.

٥ ـ كانت بلقيس ملكة سبأ ، وكان هذا عرفا معمولا به عند القدماء ، وعند المعاصرين غير المسلمين. أما في شرعنا فقد روى البخاري من حديث ابن عباس

---

(١) تفسير القرطبي : ١٣ / ١٧٨.

أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال : «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ، ولا خلاف فيه. ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه ، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ؛ ولا بأن يكتب لها منشور (أو مسطور) بأن فلانة مقدمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة ، بدليل قوله ﷺ : «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» [1]. وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وما روي عن عمر أنه قدّم امرأة على حسبة السوق لم يصح ، فلا يلتفت إليه ، وإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث.

٦ ـ كانت أمة بلقيس ممن يعبد الشمس ؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى ، وقيل : كانوا مجوسا يعبدون الأنوار ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم أي ما هم فيه من الكفر ، وصدهم عن طريق التوحيد ، فهم لا يهتدون إلى الله وتوحيده ، وزين لهم ألا يسجدوا لله ، أو فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ، وعلى هذا تكون (لا) زائدة ، مثل : ﴿ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢] أي أن تسجد.

وهذا دليل على أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به قطعا. ثم آمنت تلك الأمة واهتدت إلى الإقرار بنبوة سليمان ودعوته إلى التوحيد ، كما سيأتي بيانه.

٧ ـ إن الله الذي خلق فسوى ، وأخرج المخبوء في السموات والأرض كالمطر من السماء والنبات والكنوز من الأرض ، هو الذي تجب عبادته ، وهو الذي يستحق العبادة. والآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم ، أما القدرة :

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣ / ١٨٣.

فقوله : ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات. وأما العلم فقوله : ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾.

٨ ـ قول الهدهد ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ وقوله ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ دليل على أنه داع إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له ، لذا نهى النبي ﷺ عن قتله ، كما روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي‌الله‌عنه قال : «نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد».

٩ ـ قوله تعالى : ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم ، بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذرا ؛ لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد ، وكان سليمان عليه‌السلام حبب إليه الجهاد. وفي الصحيح : «ليس أحد أحبّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل». وقد قبل عمر بن الخطاب رضي‌الله‌عنه عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه.

لكن للإمام أن يمتحن المعتذر إذا تعلق بالأمر حكم من أحكام الشريعة ، كما فعل سليمان بالتثبت من صدق الهدهد.

١٠ ـ دلت آية : ﴿اذْهَبْ بِكِتابِي هذا ...﴾ على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، وإلى كل جبار ، كما دلت الآية على سرعة الهدهد في تبليغ الكتاب إليهم ، وعلى إيتائه قوة المعرفة وفهم كلامهم ، وأن الملكة فهمت الكتاب فورا بواسطة مترجم ، وعلى حسن آداب الرسل أن يتنحوا عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة ، للتشاور فيها.

ـ ٣٠ ـ

جواب بلقيس على كتاب سليمان عليه‌السلام

﴿قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (٣٣) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (٣٧)﴾

الإعراب :

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَ﴾ في «أن» ثلاثة أوجه :

الأول ـ أن تكون في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، أي بألا تعلوا عليّ.

الثاني ـ أن تكون في موضع رفع على البدل من ﴿كِتابٌ﴾ وتقديره : إني ألقي إلي كتاب ألا تعلوا.

الثالث ـ أن تكون مفسرة بمعنى «أي» كقوله تعالى : ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ﴾ أي امشوا ، ولا موضع لها من الإعراب.

﴿أَذِلَّةً ، وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ كل من ﴿أَذِلَّةً﴾ والجملة بعدها حال من الهاء والميم في ﴿لَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿قالَتْ﴾ بلقيس لأشراف قومها ﴿الْمَلَأُ﴾ أشراف القوم وخاصتهم ﴿كِتابٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مرسلة ، أو لأنه كان مختوما ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَ﴾ أي ألا تتكبروا علي وتنقادوا للأهواء ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين مطيعين مستسلمين. وهذا الكتاب مع وجازته تضمن المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الصانع وصفاته ، والنهي عن الترفع الذي هو داء المعاندين والمتكبرين ، والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل.

﴿الْمَلَأُ﴾ أشراف القوم ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا علي بالرأي في هذا الأمر ﴿قاطِعَةً أَمْراً﴾ باتة في أمر أو مبرمة أمرا ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ أي حتى تحضروني أي بمحضركم ، وقد استعطفتهم بذلك ليظهروا إخلاصهم التام في الدفاع عنها ﴿أُولُوا قُوَّةٍ﴾ قدرة جسدية وعددية ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب شدة وشجاعة ونجدة وثبات في الحرب ﴿ما ذا تَأْمُرِينَ﴾ أي ما ذا توجهين إيانا بأوامرك فنطيعك ﴿أَفْسَدُوها﴾ بالتخريب ﴿وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مرسلو الكتاب. ويلاحظ أنها لما أحست ميلهم إلى القتال ، جنحت إلى الصلح ؛ لأن الحرب سجال ، لا يدري عاقبتها.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما ترى تقديمه للمصالحة بإرسال هدية تدفع بها عن ملكها ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من قبول الهدية أو ردها ، فإن كان ملكا قبلها ، وإن كان نبيا لم يقبلها ﴿فَلَمَّا جاءَ﴾ الرسول بالهدية ومعه أتباعه ﴿فَما آتانِيَ اللهُ﴾ من النبوة والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ﴾ من الدنيا ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تهتمون إلا بزخارف الدنيا.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ ارجع أيها الرسول إلى بلقيس وقومها بما أتيت من الهدية ﴿لا قِبَلَ لَهُمْ بِها﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها﴾ من بلدهم سبأ ، سميت باسم أبي قبيلتهم ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز ﴿وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ أسرى مهانون محتقرون ، إن لم يأتوا مسلمين.

المناسبة :

بعد إرسال سليمان عليه‌السلام كتابه إلى بلقيس وقومها مع الهدهد ، ذكر الله تعالى مضمون الكتاب ، وتشاور بلقيس في شأنه مع مستشاريها ، فارتأوا القتال ، وارتأت المهادنة والصلح بإرسال هدية إليه تدفع بها عن بلادها وويلات الحروب ، ولا مانع لديها من إعطائه خراجا دائما مقابل ترك القتال.

التفسير والبيان :

﴿قالَتْ : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ، إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ﴾ أي قالت بلقيس لأشراف قومها ومستشاريها وأركان دولتها ومملكتها : يا أشراف القوم ، إني ألقي إلي كتاب كريم : لأن مرسلة نبي الله سليمان ، وهو ملك كريم ، ولحسن مضمونه وجمال عباراته ، ولأنه كان مختوما ، قال ﷺ فيما رواه الطبراني : «كرامة الكتاب : ختمه» وكان ﷺ يكتب إلى العجم ، فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم ، فاتخذ لنفسه خاتما ؛ كما أن فيه عجيب أمر حامله ، وهو طائر ألقاه به إليها ، ثم تولى عنها أدبا ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

ومضمون الكتاب :

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ، وَإِنَّهُ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي قرأت الكتاب على أشراف قومها ، وكان في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة شاملا أمورا ثلاثة:

١ ـ البسملة الدالة على إثبات الله ووحدانيته وقدرته ورحمته.

٢ ـ النهي عن الترفع الذي يحجب وصول الحق إلى النفوس ، والنهي عن الانقياد للأهواء.

٣ ـ الأمر بالإسلام الجامع لأصول الفضائل ، أو الأمر بالانقياد والطاعة لأمر سليمان.

قال العلماء : لم يكتب أحد : بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه‌السلام. وبه ثبت أن هذا الكتاب على وجازته جامع كل ما لا بد منه من أمور الدين والدنيا.

ثم استشارتهم في شأن الرد على الكتاب ، وهذا من الحكمة والديمقراطية ونبذ الاستبداد : ﴿**قالَتْ : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ، أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ، ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ**﴾ أي قالت بلقيس : يا أشراف القوم ، أشيروا عليّ في شأن هذا الكتاب الذي أرسل إلي من نبي الله سليمان عليه‌السلام ، ما كنت مبرمة أمرا ولا قاضية في شأن حاسم حتى يكون بحضوركم ومشاورتكم فيه.

وهذا دال على حسن سياستها ورشادها وحكمتها ، فإنها استعطفتهم ليعينوها على اتخاذ الرأي الأفضل والأخلص والأصوب ، فأجابوها بإظهار الاستعداد للقتال والحرب والدفاع عن المملكة :

﴿**قالُوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ**﴾ أي قال أشراف القوم : نحن أصحاب قوة جسدية وعددية ، وذوو نجدة وشجاعة وشدة وثبات في الحروب. ثم فوضوا إليها أمر إعلان الحرب ، قائلين : نحن على أتم الاستعداد من جانبنا للحرب ، وبعد هذا فالأمر إليك ، مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه ، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا ، ففيه إظهار القوة الذاتية والعرضية ، وإظهار الطاعة لها إن أرادت السلم والمصالحة.

فناقشتهم في ذلك ، لعلمها بقوة سليمان وجنوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والإنس والطير ، فآثرت السلم على الحرب ، وقالت : إني أخشى أن نحاربه ، فيتغلب علينا ، ويصيبنا جميعا الهلاك والدمار. فمالت إلى المصالحة ، وتبين أنها أحزم رأيا منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، ولهذا حكت لهم ما يفعله الملوك الأشداء :

﴿**قالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ، وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ أي قالت بلقيس لهم حين أظهروا استعدادهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا بلدا عنوة ، خرّبوه وأتلفوا الديار والأموال ، وأذلوا أعزة

أهلها بالقتل أو الأسر ، وأهانوهم غاية الهوان ، لتتحقق لهم الغلبة والرهبة ، ويفعلون هكذا.

وقوله : ﴿وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ الأقرب أنه من كلامها الذي أرادت به أن هذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير ؛ لأنها كانت في بيت الملك القديم ، فسمعت نحو ذلك ورأت.

وهذا تحذير لقومها من محاربة سليمان ومجيئه إليهم ودخوله بلادهم ، وبعد أن استبعدت فكرة الحرب ، لجأت إلى الوسائل الودية ومنها المسالمة والمصالحة ، واقترحت إرسال هدية إليه ، وكان ذلك هو الرأي السديد.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي وإني ألجأ إلى هذه التجربة وهي بعث هدية إليه ، تليق بمثله ، وأختبر أمره ، أهو نبي أم ملك؟ وأنظر ما ذا يكون جوابه بعدئذ ، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا ، أو يفرض علينا خراجا نرسله إليه في كل عام ، فنأمن جانبه ، ويترك قتالنا ومحاربتنا.

قال قتادة رحمه‌الله : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس.

قال صلى‌الله‌عليه‌وسلم فيما رواه ابن عساكر عن أبي هريرة وهو حسن : «تهادوا تحابوا ، وتصافحوا يذهب الغل عنكم».

وقال ابن عباس وغيره : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك ، فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

وكانت الهدية عظيمة مشتملة على ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك ، قال ابن كثير : والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب ، فما ذا كان موقف سليمان من الهدية؟ :

﴿فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ ، قالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ، فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي لما جاء الرسول ومعه أتباعه بالهدية إلى سليمان ، لم ينظر إليها ، وأعرض عنها ، وقال منكرا عليهم : أتمدونني بمال؟ أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟ إن الله تعالى أعطاني خيرا كثيرا مما أعطاكم وهو النبوة ، والملك الواسع العريض ، والمال الوفير ، فلا حاجة لي بهديتكم ، وإنما أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف وتفرحون بها ، وأما أنا فلست طالبا للدنيا الزائلة ، وإنما أطالبكم بالدخول في دين الله وترك عبادة الشمس ، ولا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً ، وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ أي ارجع أيها المبعوث إليهم بهديتهم ، فإنا سنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بقتالهم ، ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ، وهم مهانون مدحورون ، إن لم يأتوا مسلمين منقادين لله رب العالمين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ أدب الخطاب وخصوصا في مجال الدعوة إلى الله تعالى في مكاتبات الملوك ورؤساء الدول مطلوب شرعا ، لذا وصفت بلقيس كتاب سليمان عليه‌السلام بأنه كتاب كريم ، لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعوة إلى عبادة الله عزوجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبّا ولا لعنا ، ويؤيده قول الله عزوجل إلى نبيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥] وقوله لموسى وهارون : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ [طه ٢٠ / ٤٤].

والوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٧٧].

٢ ـ كانت عادة المتقدمين في المكاتبة أو المراسلة أن يبدءوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وسار السلف الصالح من أمتنا على هذا المنهج معاملة بالمثل ، قال ابن سيرين ، قال النبي ﷺ : «إن أهل فارس إذا كتبوا بدؤوا بعظمائهم ، فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه» وقال أنس : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم.

لكن لو بدأ الكاتب بالمكتوب إليه جاز ؛ لأن الأمة اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوها في ذلك ، فالأحسن في زماننا ومن عدة قرون أيضا أن يبدأ الكاتب بالمكتوب إليه ، ثم بنفسه ، لأن البداية بنفسه تعدّ منه استخفافا بالمكتوب إليه ، وتكبرا عليه.

٣ ـ إذا كانت التحية واردة في رسالة ينبغي على المرسل إليه أن يرد الجواب ؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر ، وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجبا كما يرى رد السلام.

٤ ـ اتفق العلماء على البدء بالبسملة : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول الكتب والرسائل ، وعلى ختمها ؛ لأنه أبعد من الريبة ، وجاء في الحديث المتقدم : «كرامة الكتاب ختمه» واصطنع النبي ﷺ خاتما ، ونقش على فصه : «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

٥ ـ كان مضمون كتاب سليمان مع وجازته مشتملا على المقصود وهو إثبات وجود الله وصفاته الحسنى ، والنهي عن الانقياد للهوى والنفس والترفع والتكبر ، والأمر بالإسلام والطاعة ، بأن يأتوه منقادين طائعين مؤمنين.

والبسملة في هذا الموضع آية قرآنية بإجماع العلماء ، فيكفر منكرها هنا.

٦ ـ المشاورة أمر مطلوب في كل شيء عام أو خاص ما لم يكن سرا ؛ لأنها تحقق نفعا ملحوظا للتوصل إلى أفضل الآراء وأصوبها ، وخصوصا في الحروب والمصالحات وقضايا الأمة العامة ، فإنه ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم وكان رسول الله ﷺ أكثر الناس مشاورة ، قال الله له: ﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٥٩] إما استعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء ، ومدح الله تعالى الفضلاء بقوله : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى ٤٢ / ٣٨].

والمشاورة نهج قديم ، وبخاصة في الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس قبل إسلامها : ﴿قالَتْ : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ قالت ذلك لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم في أمرهم ، ومدى طاعتهم لها. وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده ، وربما كان في استبدادها مكمن الخطر والضعف والسقوط في النهاية.

وقد نجحت في هذه المشاورة ، فسلّموا الأمر إلى نظرها ، مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة : ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ﴾ ثم وجّهتهم إلى مراعاة قوة الملوك وشدة بأسهم ، حماية لهم وحفظا لبلادهم ، وأن من عادتهم الإفساد والتخريب ، والتدمير والإهلاك ، والإذلال والإخراج من البلاد ، وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

٧ ـ كان من حسن نظر الملكة بلقيس وتدبيرها اختبار أمر سليمان بإرسال هدية عظيمة إليه ، فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض إلا اتباعهم على دينه ، وإن كان ملكا قبل الهدية ، وللهدية تأثير في كسب المودة والمحبة ، واستلال الحقد والضغينة ، وإنهاء الخصومة والمشاحنة.

وكان النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن عائشة يقبل الهدية ويثيب عليها ، ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها ؛ لأنه قال لها في كتابه : ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا تحل. وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة ؛ لأنها تورث المودة ، وتذهب العداوة ، روى مالك عن عطاء الخراساني قال : قال رسول الله ﷺ : «تصافحوا يذهب الغلّ ، وتهادوا تحابّوا ، وتذهب الشحناء» وعن ابن شهاب الزهري قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «تهادوا بينكم ، فإن الهدية تذهب السّخيمة». وروى البزار عن أنس بإسناد ضعيف : «تهادوا ، فإن الهدية تسلّ السخيمة».

قال القرطبي : وعلى الجملة : فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة.

أما سليمان عليه السلام فإنه رد هدية بلقيس ؛ لأنها كانت بدلا عن السكوت عن الحق وعن الدعوة إلى الإسلام والإيمان ، وواجب الرسل التبليغ دون أجر ، ودون مهادنة أو مساومة ؛ لأن غرضهم إرضاء الله ، ونشر العقيدة والفضيلة والإخلاص في عبادة الله تعالى. لذا انضم إلى رده الهدية إنذارهم بالحرب والقتال بجيوش لا طاقة لهم على مقاومتها ، وتهديدهم بالإخراج من أرضهم أذلة قد سلبوا ملكهم وعزمهم ، مهانين محتقرين إن لم يسلموا.

وقد حقق الإنذار الغاية منه ، فجاءت بلقيس مع حاشيتها وجنودها مسلمين منقادين طائعين ، كما أبانت الآيات التالية.

ـ ٤ ـ

إسلام بلقيس وولاؤها وزيارتها لسليمان عليه‌السلام

﴿قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٤٤)﴾

الإعراب :

﴿عِفْرِيتٌ﴾ : التاء فيه زائدة ، ووزنه فعليت ، كغزويت ، أي قصير ، والعفريت : القوي النافذ ، وجمعه عفاريت.

﴿وَصَدَّها ما كانَتْ ..﴾ ما : إما فاعل «صد» وإما منصوب بصد ، بتقدير حذف حرف الجر ، وفاعل ﴿صَدَّها﴾ ضمير وهو الله ، أي صدها الله عما كانت تعبد ، أي عن عبادتها. وإنها بالكسر على الابتداء ، وبالفتح : إما بدل مرفوع من ﴿ما﴾ إذا كانت فاعلا ، وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، أي لأنها كانت.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ مَعَ﴾ إما ظرف ، وإما حرف وبنيت على الفتح لأنها قد تكون ظرفا أحيانا ، وكانت الحركة فتحة لأنها أخف الحركات ، فإن سكنت العين فهو حرف لا غير.

البلاغة :

﴿تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ﴾ و ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ﴾ فيهما جناس الاشتقاق.

﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ تشبيه مرسل مجمل ، أي كأنه عرشي في الهيئة.

﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ استعارة ، استعار رجوع الطرف للسرعة في الإتيان بالعرش ، مشبها السرعة بالتقاء الجفنين الذي هو ارتداد الطرف. ومثله ﴿وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَهْتَدِي لا يَهْتَدُونَ﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية :

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها﴾ العرش : سرير الملك ، أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب الدالة على عظيم القدرة ، وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بعد التمويه على العرش ، فينظر أتعرفه أم تنكره ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين طائعين ﴿عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ خبيث مارد قوي شديد ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ﴾ مجلسك للقضاء ، وكان من الغداة إلى نصف النهار ﴿عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لقادر مؤتمن على ما فيه من الجواهر وغيرها ، لا أنقص منه شيئا ولا أبدّله. قال سليمان : أريد أسرع من ذلك ﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ﴾ المنزل هو آصف بن برخيا وزيره ، كان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وهو المشهور. وقيل : إنه الخضر عليه‌السلام ، وقيل : هو جبريل عليه‌السلام ، وقيل : هو ملك أيد الله تعالى به سليمان ، وقيل : إنه سليمان نفسه ، قال الرازي : وهو الأقرب.

﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي قبل أن يرجع إليك بصرك إذا نظرت به إلى شيء ، و ﴿يَرْتَدَّ﴾ يرجع ، والطرف : تحريك الأجفان ، والمراد بذلك السرعة العظيمة على سبيل الاستعارة ، كما يقال : آتيك به مثل لمح البصر ، أو قبل أن تغمض عينك ، ويراد الإسراع الشديد في الإحضار ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ ساكنا حاصلا بين يديه ﴿قالَ : هذا﴾ أي الإتيان لي به ﴿فَضْلِ﴾ تفضل وإحسان ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ليختبرني ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي أشكر بأن أراه فضلا من الله بلا حول مني ولا قوة ، وأقوم بحقه ، أم أجحد الفضل بنسبته إلي ، وأقصر في أداء واجب الشكر ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأجلها ؛ لأن ثواب شكره له ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ النعمة فلم يشكرها ﴿غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالتفضل والإنعام عليه ثانيا.

﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروه أي بتغيير هيئته وشكله بزيادة أو نقص وغير ذلك ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفته ﴿لا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته ، قصد بذلك اختبار عقلها ﴿أَهكَذا عَرْشُكِ﴾ أمثل هذا عرشك ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي فعرفته ، ولم تقل : هو ، لاحتمال أن يكون مثله ، وذلك من كمال عقلها ، فشبّهت عليهم كما شبهوا عليها.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من كلام سليمان وقومه ، وهو معطوف على محذوف تقديره : قد أصابت في جوابها ، وهي عاقلة لبيبة ، وقد رزقت الإسلام ، ثم قالوا : ونحن أوتينا العلم بالله وبقدرته قبل علمها وكنا منقادين لحكمه ، ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى في أن خصهم بمزية التقدم في الإسلام. ويصح أن يكون من تتمة كلام بلقيس ، متصلا بقوله ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ والمعنى : وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة ، أو قبل هذه الحالة بما تقدم من الآيات ، وكنا خاضعين منقادين لله عزوجل. ثم إن قوله : ﴿وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية من كلام رب العزة. ومعنى ﴿صَدَّها﴾ أي منعها عن عبادة الله ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي غيره ﴿إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ على قراءة كسر إنها يكون المعنى : صدها أي منعتها عبادة الشمس عن عبادة الله ، وإنها من قوم كافرين ، فهو استئناف وابتداء كلام جديد ، وعلى قراءة الفتح أنها يكون المعنى : صدّها نشوؤها بين أظهر الكفار ، أو تعليل لما سبق ، أي : لأنها.

﴿الصَّرْحَ﴾ القصر وكل بناء عال ﴿لُجَّةً﴾ ماء مجتمعا كثيرا ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها﴾ لتخوضه ، روي أن أرضية القصر أو صحنه بني من زجاج أبيض شفاف ، وأجري تحته ماء عذب ، فيه سمك ، ووضع سليمان سريره في صدر الصرح ، وجلس عليه ، فلما أبصرته ظنته ماء راكدا ، فكشفت عن ساقيها.

﴿صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ أملس ﴿مِنْ قَوارِيرَ﴾ من زجاج ﴿قالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي فلما دعاها إلى الإسلام ، اعترفت بظلمها نفسها بعبادة غير الله وأسلمت لله كائنة مع سليمان ، أي خضعت.

المناسبة :

بعد أن رجعت الرسل بهديتها إلى الملكة بلقيس ، وأخبروها بما قال سليمان ، أخبرت قومها بمضمون رأيها السابق وأنه لا طاقة لهم بمواجهة سليمان وجنوده ، ثم استجابت لطلبه ، وأقبلت هي وقومها تسير إليه في جنودها معظمة سليمان ، ناوية متابعته في الإسلام ، فسرّ سليمان عليه‌السلام بقدومهم عليه ، ووفودهم إليه ، وبعث الجن يأتونه بأخبارهم.

التفسير والبيان :

لما اقترب وفد بلقيس من بلاد الشام ، جمع سليمان عليه‌السلام جنده من الجن والإنس ، وخاطبهم بقوله :

﴿قالَ : يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي قال سليمان : يا أيها السادة الأعوان ، من منكم يستطيع الإتيان بعرش (سرير) بلقيس قبل وصولها مع وفدها إلينا منقادين طائعين ، ليكون ذلك دليلا على صدق نبوتنا ، ومعجزة إلهية تعرف بها أن مملكتها صغيرة أمام عجائب الله وبدائع قدرته؟ فأجابه بعض جنده :

﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي قال شيطان مارد من الجن : أنا أحضره إليك قبل انفضاض مجلس حكمك وقضائك ، وكان يمتد إلى منتصف النهار ، ثم أكد عزمه وضمن نتيجة فعله بقوله : وإني على حمله لقادر غير عاجز ، أمين غير خائن ، لا آخذ منه شيئا ، ولا أمسّ ما فيه من الجواهر واللآلئ.

ثم أجابه آخر بعد أن قال سليمان : أريد أعجل من ذلك ، لأنه أراد بإحضار هذا السرير عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها ، بأن يأتي بخارق عظيم وهو إحضار سريرها من بلادها في اليمن بعد أن تركته محفوظا ، قبل وصولها إليه :

﴿قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي قال عالم من علماء أسرار الكتاب الإلهي : أنا أحضره في لمح البصر قبل أن تغمض عينك وقبل أن يرجع إليك نظرك.

وهذا العالم : قيل : كان من الملائكة إما جبريل أو غيره من الملائكة ، أيد الله تعالى به سليمان عليه‌السلام ، وقيل : كان من الإنس وهو آصف بن برخيا وزير سليمان وهو المشهور من قول ابن عباس ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، إذا دعا به أجيب. أو هو الخضر عليه‌السلام ، والراجح في رأي الرازي أنه سليمان عليه‌السلام ؛ لأنه أعرف بالكتاب من غيره ؛ لأنه هو النبي ، وقال أبو حيان : ومن أغرب الأقوال أنه سليمان عليه‌السلام ، كأنه يقول لنفسه : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. والمهم أنه حدث ما وعد به هذا العالم ، والله أعلم به.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ : هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؟ أي فلما عاين سليمان وجماعته وجود سرير بلقيس الذي أتي به من بلاد اليمن السعيدة ، ورآه ساكنا قائما بين يديه ، قال : هذا من نعم الله علي ليختبرني أأشكر بأن أراه فضلا منه بلا حول ولا قوة مني ، أم أجحد فأنسب العمل لنفسي. وفائدة الشكر ومضرة الجحود والكفر ترجع إلى الإنسان نفسه ، لذا قال :

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ ، فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي ومن شكر النعمة فإن نفع الشكر عائد إليه ، لا إلى الله تعالى ؛ لأنه بالشكر تدوم النعم ، ومن جحد النعمة ولم يشكرها ، فإن الله غني عن العباد وعبادتهم وعن شكرهم لا يضره كفرانهم ، كريم في نفسه ، وإن لم يعبده أحد ، لا يقطع النعمة عن عباده بسبب إعراضهم عن شكره ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ، وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٦] وقال سبحانه حكاية لقول موسى : ﴿وَقالَ مُوسى : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٨].

وجاء في صحيح مسلم : «يقول الله تعالى : يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم

وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفّيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».

ثم أمر سليمان عليه‌السلام بتغيير صفات عرش بلقيس ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، كما حكى تعالى :

﴿قالَ : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ، أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ﴾ أي قال سليمان لأتباعه : غيّروا هيئة عرشها وصفته وشكله لنختبر حالها ، وننظر في إمكاناتها العقلية وملاحظاتها الفكرية ومقدار ذكائها ، أتهتدي إليه ، فتعرف أنه عرشها ، أم تكون غير مهتدية إليه أو تائهة عنه متحيرة في الحكم وإبداء الرأي؟

وذلك يدل على قدرة الله تعالى بنقله من مكان بعيد إلى بلاد الشام ، وعلى صدق سليمان عليه‌السلام.

﴿فَلَمَّا جاءَتْ ، قِيلَ : أَهكَذا عَرْشُكِ؟ قالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي حين قدمت ، عرض عليها عرشها (سرير الملك) وقد غيّر وزيد فيه ونقص ، فسئلت عنه : أمثل هذا عرشك؟ ولم يقل : أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقينا ، فقالت : كأنه هو ، أي يشبهه ويقاربه ، ولم تجزم أو تقطع يقينا بأنه هو ، لاحتمال أن يكون مثله بسبب بعد مسافته عنها.

وكان جوابها جواب سياسي بارع ذكي محنّك ، دل على كمال عقلها ودهائها ، وثبات شخصيتها ، وأنها في غاية الذكاء والحزم ، فشبهت عليهم من حيث شبهوا عليها.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ الظاهر كما قال أبو حيان أن هذا الكلام ليس من كلام بلقيس ، وإن كان متصلا بكلامها ، فقيل ـ وهو قول مجاهد ـ : من كلام سليمان ، أي أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها ، وكنا في كل ذلك موحدين خاضعين لله تعالى ، وقيل : من كلام قوم سليمان وأتباعه [١]. قال ابن كثير : ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح [٢] ، كما سيأتي.

ثم أبان الله تعالى عذر بلقيس في عدم إعلانها الإسلام قبل ذلك فقال : ﴿وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ﴾ أي ومنعها عن عبادة الله وإظهار الإسلام ما كانت تعبد من غير الله وهو عبادة الشمس ، فإنها كانت من قوم وثنيين كانوا يعبدون الشمس ، فتأثرت بالبيئة التي نشأت فيها ، ولم تكن قادرة على تغيير عقيدتها ، حتى جاءت إلى بلاد سليمان الذي أحسن عرض الإسلام عليها ، وأقنعها بصحته ووجوب الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته ، فهو رب الكون جميعه ، ورب الكواكب كلها ، شمسها وقمرها ونجومها العديدة.

﴿قِيلَ لَهَا : ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها ، قالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ ، قالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ هذا جار على عادة استقبال الملوك والرؤساء في قصور الضيافة الفخمة ، فقد قال لها وفد الاستقبال السليماني : ادخلي هذا القصر المشيد العالي ، فإنه بني لاستقبال العظماء ، وليريها سليمان ملكا أعز من ملكها ، وسلطانا هو أعظم من سلطانها ، وكان صحنه من الزجاج الأبيض الشفاف ، فلما رأت مدخله الفخم ظنت وجود ماء مجتمع كثير فيه ، فكشفت عن ساقيها ، فقال لها سليمان : إنه قصر مصنوع من الرخام الأمرد ذي السطح الأملس ، ومن

---

(١) البحر المحيط : ٧ / ٧٨.

(٢) تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٦٥.

الزجاج الصافي ، وأن الماء يجري تحته لا فيه ، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء.

وحينئذ استدلت بكل ما رأت على التوحيد والنبوة فأعلنت إسلامها ، وأراد الله لها الخير والهداية ، فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ ، لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ أي يا ربي ، إني ظلمت نفسي في الماضي بعبادة غيرك ، وأسلمت مع إسلام سليمان ، وخضعت لله رب العوالم كلها من الإنس والجن.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ استدعى سليمان عليه‌السلام عرش بلقيس (كرسي الملك) من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ليريها قدرة الله العظمى ، ويجعله دليلا على نبوته ؛ لأخذه من قصرها دون جيش ولا حرب ، وقبل أن تأتي هي وجماعتها إليه مستسلمين.

٢ ـ ظهرت قدرة الله على يد مؤمن عالم بكتاب الله وبأسراره وبالاسم الأعظم ، فجيء بعرش بلقيس بسرعة خاطفة ، وكان هذا العالم بإقدار الله وتوفيقه أقدر من عفريت الجن ـ وهو القوي المارد ـ الذي استعد للإتيان به ، في زمن أطول ، ولكنه سريع وقريب وقصير أيضا ، إذ كان في مدة زمن القضاء اليومي ، وأما زمن العالم فهو بمقدار إطباق الأجفان وفتحها.

وفي هذا دلالة على سمو مرتبة العلم ورفعة العلماء في الدنيا والآخرة إذا عملوا بعلمهم صالحات الأعمال.

قال القشيري : وقد أنكر كرامات الأولياء من قال : إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان ، قال للعفريت : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. وعند هؤلاء يكون ما فعل العفريت ليس من المعجزات ، ولا من

الكرامات ، فإن الجنّ يقدرون على مثل هذا.

وعلى أي حال ، تم نقل العرش من اليمن إلى الشام بقدرة الله العظمى ، وإن وجدت الوسيلة في الظاهر ، كفلق البحر لموسى عليه‌السلام ، بضرب العصا ، فإن الفالق هو الله تعالى ، وليس العصا.

٣ ـ إن ما حدث من إحضار العرش بهذه السرعة هو معجزة لسليمان عليه‌السلام ، والمعجزات خوارق للعادات ، لا تخضع لمقاييس الأحوال العادية ، ولا يصدق بالمعجزة إلا مؤمن بقدرة الله ، أما الكافر الملحد أو المادي الذي لا يصدق إلا بما يقدمه العلم التجريبي ، فإن إقناعه بذلك عبث. وقد أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة ، وتؤمن بنبوته.

٤ ـ إن ظهور المعجزة على يد الأنبياء أمر موجب للشكر والحمد الكثير لله عزوجل ، لتأييدهم بها ، ولإظهار عجزهم الحقيقي أمامها ، لذا قال سليمان لما رأى العرش ثابتا مستقرا عنده: ﴿**هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي**﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل الله ربي ، لينظر أأكون شاكرا حامدا ، أما كافرا بالنعمة جاحدا؟

٥ ـ لا يرجع نفع الشكر إلا إلى الشاكر نفسه ؛ لأنه بالشكر يحقق تمام النعمة ودوامها والمزيد منها ، وبه تنال النعمة المفقودة أيضا. وأما ضرر الكفر والجحود فعائد كذلك إلى الكافر نفسه ، ومع كفره فإن الله غني عن شكره ، كريم في التفضل والإنعام عليه بالرغم من الكفر.

٦ ـ إن تنكير العرش وتغيير هيئته فيه استثارة البحث ، وإمعان النظر ، وإعمال العقل ، وتركيز الانتباه إلى آية المعجزة ، وقد بدا كل هذا في جواب بلقيس ﴿**كَأَنَّهُ هُوَ**﴾. قال عكرمة : كانت حكيمة ، فقالت : ﴿**كَأَنَّهُ هُوَ**﴾. وقال مقاتل : عرفته ، ولكن شبّهت عليهم ، كما شبّهوا عليها ، ولو قيل لها :

أهذا عرشك؟ لقالت : نعم هو.

٧ ـ قوله تعالى : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها ..﴾ إذا كان من قول سليمان وهو الظاهر فيراد به أنه أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة ، أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها. وإذا كان من قول بلقيس ، فيراد به أنه أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل آية العرش هذه ، وكنا مسلمين منقادين لأمره.

٨ ـ ما أجمل تقديم هذا الاعتذار عن تأخر إسلام بلقيس إلى لقاء سليمان ، وهو تأثرها بالبيئة وعقيدة أهل المملكة ، فقد منعها أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ، وكانت من قوم كافرين غير مؤمنين بوجود الله ووحدانيته.

٩ ـ أراد سليمان أيضا بالإضافة إلى إظهار المعجزة لنبوته بإحضار عرش بلقيس أن يبهرها بقوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وأن ذلك أعزّ وأمنع من مملكتها الغنية ، وبلادها الخصبة ، وقصورها المشيدة. كما أنها شهدت في صرح سليمان فنا رائعا في البناء والهندسة المعمارية ما لا مثيل له حتى في أوج العصر الحاضر وعظمة تقدم العلم والفن في القرن العشرين ، ولعل عظمة بناء المسجد الأقصى خير مثال على تقدم فن البناء وعظمته في عهد سليمان عليه‌السلام .

١٠ ـ تبلورت قصة سليمان مع بلقيس في تلك الخاتمة المشرقة وهي تبرؤ بلقيس من الشرك الذي كانت عليه ، وإعلان إيمانها بالله الواحد الأحد ، وإظهار إسلامها كإسلام سليمان ، وخضوعها لله رب العالمين.

وأخيرا يستطرد المفسرون في نهاية هذه القصة إلى قضية زواج سليمان عليه‌السلام من بلقيس ، وأحسن ما أذكره هنا قول الرازي : والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها ، وليس لذلك ذكر في الكتاب ، ولا في خبر مقطوع بصحته ، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها : اختاري من قومك من أزوجك

منه ، فقالت : مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني ، فقال : النكاح من الإسلام ، فقالت : إن كان كذلك فزوجني ذا تبّع ملك همدان ، فزوجها إياه ، ثم ردهما إلى اليمن ، ولم يزل بها ملكا ، والله أعلم [١].

خلاصة نعم الله تعالى على سليمان عليه‌السلام

يحسن أن أوجز هنا خصائص سليمان ومعجزاته ونعم الله عزوجل عليه مما ذكر في القرآن كله ، بعد أن أوردت هذه السورة مواقف أربعة متميزة في قصته ، وحينئذ أكون قد ذكرت إلى هنا مجملا قصص عشرين نبيا أو أكثر تحت عنوان : أضواء من التاريخ على قصة أو حياة كل نبي أو رسول.

ومن المعلوم أن سليمان ذكر في القرآن (١٦) ست عشرة مرة في سور : البقرة والنساء والأنعام والأنبياء والنمل وسبأ ، وأوضح الآن نعم الله الكثيرة عليه وهي ما يأتي [٢] :

١ ـ ذكاؤه وفراسته في القضاء : منح الله تعالى سليمان عليه‌السلام ذكاء نادرا وإصابة في القضاء والحكم ، بدليل قصة الحرث الذي نفشت فيه غنم الراعي ، فكان حكمه كما بينا في سورة الأنبياء أصوب من حكم أبيه داود عليه‌السلام ، كما قال تعالى : ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ. فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ ، وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً ، وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٧٨ ـ ٧٩].

٢ ـ تعليمه منطق الطير : إن الله تعالى علّم سليمان منطق الطير ، فكان يفهم مراد الطيور من أصواتها ، كما تبين في تفسير الآية [١٦] من سورة النمل :

---

(١) تفسير الرازي : ٢٤ / ٢٠١

(٢) انظر قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ٣١٧ ـ ٣٤٨ ، ط رابعة.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ، عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ..﴾ أي أوتي نعما كثيرة ، ومنها تعليمه كلاما لا يعلمه سواه.

٣ ـ تسخير الرياح له : كان لسليمان بساط الريح ينقله من مكان إلى آخر بعيد ، ويوجه الريح حيث يشاء ، فيأمرها بأن تهب في ناحية ما ، كما قال تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ [الأنبياء ٢١ / ٨١] ، ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ [ص ٣٨ / ٣٦] ، ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٢].

٤ ـ تربية الخيول وهي الصافنات الجياد للجهاد : كان رباط الخيل مندوبا إليه في ملة سليمان عليه‌السلام ، كما هو مندوب في شرعنا ، قال صلى‌الله‌عليه‌وسلم . فيما رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن عروة البارقي ـ : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، والأجر والمغنم». وكان سليمان يستعرضها كالعروض العسكرية اليوم بمناسبات وطنية أمام الرؤساء ، وكان يحبها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾. وقد أعاد عرضها أمامه يمسح سوقها وأعناقها ، تشريفا لها وإعزازا لنعمتها في جهاد العدو ، وتفقدا لأحوالها وأمراضها وعيوبها ، وهذا هو المقصود من الآيات : ﴿وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ ، فَقالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ. رُدُّوها عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ﴾ [ص ٣٨ / ٣٠ ـ ٣٣]. وأما تفسير هذه الآيات بما يتنافى مع منصب النبوة ، كالاشتغال بالخيول عن صلاة العصر ، ثم تقطيع أعناقها وسوقها ، فهو باطل لا أصل له ، كما ذكر الرازي في تفسيره الكبير.

٥ ـ فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه : ذكر الله تعالى بعد قصة عرض الصافنات الجياد هذه الفتنة ، فقال : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ

جَسَداً ثُمَّ أَنابَ ، قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ، فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ ، وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص ٣٨ / ٣٤ ـ ٣٧] ، وقد اختار الرازي في تفسير هذه الآيات أن سليمان ابتلي بمرض شديد أضناه ، أي أثقله حتى صار لشدة المرض كأنه جسد أو جسم بلا روح ، ثم أناب أي رجع إلى الصحة.

واختار العلامة أبو السعود والألوسي في تفسير هذه الآيات ما ورد في الصحيحين مرفوعا : أنه ـ أي سليمان ـ قال : «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون».

والمراد بالسبعين الكثرة وليس تمام العدد ، كما هو المألوف في الاستعمال العربي والقرآني لكلمة (سبعين) مثل : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [التوبة ٩ / ٨٠] أي إن تستغفر لهم كثيرا.

وأما التفاسير الأخرى المشوبة بالأخلاط والروايات الإسرائيلية فلم تصح ولا يعول عليها.

٦ ـ إسالة عين القطر (النحاس المذاب) له : أنعم الله على سليمان عليه‌السلام بتطويع النحاس المذاب له ، لاستخدامه لتوثيق المباني العظيمة الضخمة ذات الحجارة الكبيرة ، مثل الهيكل المعروف بهيكل سليمان ، كما ذكر تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ ، وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٢].

٧ ـ تسخير الجنّ له : عدد الله تعالى في الآية السابقة في سورة سبأ النعم العظمى التي أنعم بها على سليمان عليه‌السلام ، فقال : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ

بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٢ ـ ١٣]. وقال سبحانه بعد ذكر تسخير الرّيح : ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص ٣٨ / ٣٧]. وبه تبين أن الله جلّ جلاله سخر الجنّ كما سخر له الرّيح ، فكانت الجن من جنده ، تطيعه بما يأمر ، وتعمل له ما يشاء من ضخم المباني والعمائر والتماثيل ، وكانت التماثيل جائزة الصنع عندهم ، والقدور الراسيات والجفان (الآنية الواسعة) التي كأنها الحياض لسعتها.

٨ ـ إسلام ملكة سبأ والإتيان بعرشها : عرفنا في البيان المتقدم في سورة النمل لقصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ أن طير الهدهد أخبره بوجود ملكة عظيمة في سبأ من بلاد اليمن تعبد مع قومها الشمس من دون الله ، وأن لها عرشا عظيما مزينا بأنواع الجواهر واللآلئ ، فأرسل سليمان رسالة لها مع الهدهد مضمونه : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

فاستجابت بلقيس مع قومها لطلب سليمان بعد أن أقنعتهم بألا طاقة لهم بمواجهة جنود سليمان ، وآثرت بكمال عقلها وفطنتها السلم والمصالحة والمسالمة والموادعة على الحرب والقتال ، بالرغم من توافر قوة عسكرية كبيرة عندها : ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

فشيّد لها سليمان صرحا عظيما ومرّد أرضه بالزجاج ، وهذا فن مستحدث لا عهد لأهل اليمن به ، ثم لما دخلته حسبته ماء ، فكشفت عن ساقيها لخوض الماء لئلا تبتل ثيابها بالماء ، ثم أحضر لها عرشها من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، ليكون دليلا على صدق نبوته ، ومعجزة على صحة رسالته ، وآية على قدرة الله العجيبة في خرق العادات وتجاوز المحسوسات ، مما لم يكتشف العلم سره ونواميسه إلى الآن ، فما كان من بلقيس إلا أن أسلمت وآمنت برسالة سليمان ، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

٩ ـ قصة النملة : كان سليمان بتعليم الله وإرشاده يفهم أيضا لغة النمل ، كما يفهم منطق الطير ، وذلك كله من المعجزات الخارقة للعادة ، وقد بيّنا كيفية فهم سليمان خطاب النملة في بني جنسها : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ، ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها ، وَقالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ١٧ ـ ١٩].

١٠ ـ موت سليمان عليه‌السلام : أعمى الله موت سليمان على الجان المسخرين لخدمته في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه (منسأته) بعد موته مدة طويلة نحوا من سنة كما يقال ، فلما أكلتها الأرضة (دابة الأرض) ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وهو أمامهم ، وتبينت الجن والإنس أنهم لا يعلمون الغيب قطعا ، فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ، ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٤]. وهذا من تكريم الله لسليمان عليه‌السلام ، وإلقاء هيبته على الجنّ والإنس حتى بعد موته.

القصة الثالثة

قصة صالح عليه السلام مع قومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾

الإعراب :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، أي بأن اعبدوا الله. و ﴿أَخاهُمْ﴾ مبتدأ ، و ﴿فَرِيقانِ﴾ خبر المبتدأ ، وإذا : خبر ثان ، أي فبالحضرة هم فريقان. و ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب حال من ضمير ﴿فَرِيقانِ﴾.

﴿اطَّيَّرْنا﴾ أصله : تطيرنا ، فأبدلت التاء طاء ، وسكنت وأدغمت الطاء في الطاء ، واجتلبت همزة الوصل وكسرت لسكون ما بعدها.

﴿تَقاسَمُوا﴾ فعل أمر ، أمر بعضهم بعضا بالتقاسم والتحالف على أن يبيتوه وأهله. وقرئ بالياء «يقاسموا» على أنه فعل ماض ؛ لأنه إخبار عن غائب.

﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ بمعنى الهلاك ، وقرئ : ﴿مَهْلِكَ﴾ وأراد به الإهلاك مصدر «أهلك» وقرئ «مهلك» وأراد به الهلاك من «هلك» والمشهور في المصدر الفتح ، والكسر قليل ؛ لأن الكسر يكون في المكان والزمان ، فيكون «مهلك» بالكسر كالمرجع بمعنى الرجوع.

﴿كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ أَنَّا﴾ بتقدير حذف حرف الجر ، أي لأنا دمرناهم ، فتكون ﴿كانَ﴾ ناقصة ، أو ﴿عاقِبَةُ﴾ : اسمها ، و ﴿كَيْفَ﴾ : خبرها. ومن قرأ بالكسر إنا فعلى الابتداء ، و ﴿عاقِبَةُ﴾ اسم ﴿كانَ﴾ ، و ﴿كَيْفَ﴾ خبرها ، وجملة ﴿أَنَّا دَمَّرْناهُمْ﴾ خبر مقدم ؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام. ويحتمل أن تكون ﴿كانَ﴾ تامة أي وقع ، و ﴿عاقِبَةُ﴾ فاعل ، ولا تفتقر إلى خبر ، و ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال ، أي انظر على أي حال وقع أمر عاقبة مكرهم ، ثم بين العاقبة بقوله : ﴿أَنَّا دَمَّرْناهُمْ﴾.

﴿خاوِيَةً﴾ حال من ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ وعامله ما في ﴿فَتِلْكَ﴾ من معنى الإشارة أي أشير إليها خاوية ، وتقرأ بالرفع على أنها خبر للبيوت ، أو خبر ثان ، أو خبر لمبتدأ مقدر أي هي خاوية ، أو بدل من «البيوت» أو خبر تلك ، و ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ عطف بيان على ﴿فَتِلْكَ﴾.

البلاغة :

﴿بِالسَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ﴾ طباق. وتسمية العذاب أو العقاب بالسيئة مجاز.

﴿يُفْسِدُونَ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ طباق.

﴿لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ للتحضيض.

﴿اطَّيَّرْنا طائِرُكُمْ﴾ جناس اشتقاق.

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرْنا﴾ مشاكلة ، سمى تعالى إهلاكهم مكرا على سبيل المشاكلة.

المفردات اللغوية :

﴿أَخاهُمْ﴾ من القبيلة. ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ بأن وحدوا الله. ﴿فَإِذا هُمْ﴾ ففاجئوا التفرق. ﴿فَرِيقانِ﴾ فريق مؤمن وفريق كافر. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يتنازعون ويجادل بعضهم بعضا.

﴿قالَ :

﴿يا قَوْمِ﴾ قال صالح للمكذبين. ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعذاب قبل الرحمة ، أو بالعقوبة التي تسوء صاحبها قبل التوبة ، حيث قلتم : إن كان ما أتيتنا به حقا فأتنا بالعذاب. ﴿لَوْ لا﴾ هلا. ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ﴾ من الشرك. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبول التوبة فلا تعذبوا ، فإنها لا تقبل عند نزول العذاب.

﴿اطَّيَّرْنا﴾ تشاءمنا بك حيث فرقتنا ، والطيرة : تعليق الخير أو الشر على طيران الطائر يمينا أو شمالا. ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ من المؤمنين ، حيث قحطوا المطر وجاعوا. ﴿طائِرُكُمْ﴾ شؤمكم أي ما يصيبكم من الخير أو الشر. ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ أي هو قدره أتاكم به ، أو عملكم المكتوب عنده. ﴿تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بالخير والشر أو تعاقب السراء والضراء.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود وهي الحجر. ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة رجال ، والرهط : من الثلاثة إلى العشرة ، وأما النفر فهو من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد الخالص عن شوائب الصلاح ، والإفساد : بالمعاصي كاقتطاع جزء من الدراهم والدنانير ، والصلاح : بالطاعة. ﴿قالُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿تَقاسَمُوا﴾ احلفوا. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنباغتن صالحا وأهله الذين آمنوا به ليلا ، أي نقتلهم ليلا. ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ لولي دمه وهو من له حق القصاص من ذوي قرابته إذا قتل. ﴿ما شَهِدْنا﴾ ما حضرنا. ﴿مَهْلِكَ﴾ هلاك ، وقرئ ﴿مَهْلِكَ﴾ أي إهلاك ، أي فلا ندري من قتلهم.

﴿وَمَكَرُوا مَكْراً﴾ بهذا التواطؤ على الاغتيال ، والمكر : التدبير الخفي لعمل الشر. ﴿وَمَكَرْنا مَكْراً﴾ جازينا بتعجيل عقوبتهم. ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك. ﴿دَمَّرْناهُمْ﴾ أهلكناهم. ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بصيحة جبريل ، أو برمي الملائكة بحجارة يرونها ولا يرونهم. ﴿خاوِيَةً﴾ خالية. ﴿بِما ظَلَمُوا﴾ بظلمهم أي كفرهم. ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة وموعظة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا فيتعظون. ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح ، وهم أربعة آلاف. ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك أو الكفر والمعاصي ، فلذلك خصوا بالنجاة.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة موسى وداود وسليمان ، وهم من بني إسرائيل ، ذكر قصة من هو من العرب ، وهم ثمود أي عاد الأولى ، وصالح أخوهم في النسب ، بقصد تذكير قريش والعرب وتنبيههم أن من تقدم من الأنبياء من العرب كان يدعو إلى إفراد الله بالعبادة ، ليعلموا أنهم في عبادة الأصنام على ضلالة ، وأن شأن الأنبياء عربهم وعجمهم هو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

وكل هذه القصص من التاريخ الغابر دليل على أن محمدا رسول الله ، وأنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، وإنذار وتهديد لكل كافر أو مشرك.

التفسير والبيان :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي وتالله لقد بعثنا إلى قبيلة ثمود العربية أخاهم في النسب والقبيلة بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فانقسموا فريقين : فريق مؤمن مصدق برسالته وبما جاء به من عند ربه ، وفريق كافر مكذّب بما جاء به.

وأصبح الفريقان يتجادلان ويتنازعان في الدين ، كل فريق يقول : الحق معي ، وغيري على الباطل ، كما قال تعالى : ﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٥ ـ ٧٦].

﴿قالَ : يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؟ أي قال صالح : يا قومي ، لم تطلبون أو تتعجلون نزول العقاب أو العذاب قبل أن تطلبوا من الله رحمته أو ثوابه إن عملتم بما دعوتكم إليه وآمنتم بي ، والمقصود : أن الله مكنكم من التوصل إلى رحمة الله تعالى وثوابه بالإيمان ، فلما ذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه؟ وكان هذا جوابا لهم حينما توعدهم صالح عليه‌السلام بالعذاب إن لم يؤمنوا بالله وحده ، فقالوا : ﴿يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٧].

﴿لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي هلا تطلبون من الله المغفرة وتتوبون إليه من كفركم لكي ترحموا!! لأنه إذا نزل العذاب لم تنفعكم التوبة فكان جوابهم :

﴿قالُوا : اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي قال قومه بغلظة وشدة : لقد تشاءمنا منك وممن آمن معك ولم نر خيرا منكم ؛ إذ تتابعت علينا الشدائد ، ووقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم ، وكانوا لشقائهم لا يصاب أحد منهم بسوء إلا قالوا : هذا من قبل صالح وأصحابه. قال مجاهد : تشاءموا بهم.

وهذا كما قال الله تعالى إخبارا عن قوم فرعون : ﴿فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا : لَنا هذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف ٧ / ١٣١].

وسمي التشاؤم تطيرا من عادة العرب بزجر الطير أي رميه بحجر ونحوه ، فإن تحول يمينا تفاءلوا ، وسموه السانح ، وإن اتجه يسارا تشاءموا وسموه البارح.

﴿قالَ : طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ أي قال صالح : شؤمكم وتفاؤلكم وما يصيبكم من شر أو خير هو قدر الله أتاكم به ، وهو مكتوب عند الله ، والله يجازيكم على ذلك ، فهو إن شاء رزقكم ، وإن شاء حرمكم. وسمي القضاء والقدر طائرا لسرعة نزوله بالإنسان. وهذا كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا : هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء ٤ / ٧٨].

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي بل إنكم قوم تختبرون بالطاعة والمعصية ، حين أرسلني الله إليكم ، فإن أطعتم أجزل الله لكم الثواب ، وإن عصيتم حل بكم العقاب. وقال ابن كثير : والظاهر أن المراد بقوله : ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال. وعلى أي حال ، فإن القصد بيان أن سبب نزول الشر بهم هو عصيانهم.

ثم أخبر الله تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم ، وعن كون مدينة ثمود مرتع الفساد الكثير فقال:

﴿وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ أي وكان في مدينة ثمود وهي الحجر تسعة نفر أوغلوا في الفساد الذي لا أثر للصلاح فيه ، فكانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح ، وهم الذين تواطؤوا على عقر الناقة وعلى قتل صالح ومن آمن به ، فقال تعالى :

﴿قالُوا : تَقاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ أي قال بعضهم لبعض في المشاورة بشأن صالح بعد أن عقروا الناقة : احلفوا لنباغتنه وأهله الذين آمنوا معه ليلا ، فنقتلنهم ، فهذا تحالف على قتل نبي الله صالح عليه‌السلام ليلا قتل غيلة ، ثم تحالفوا على أن يقولوا لأولياء الدم أو القصاص إذا مات : ما حضرنا هلاكهم ، ولا ندري من قتلهم ، وإنا لصادقون في قولنا ، أي إننا لم نحضر هلاك أحد الجانبين وهو أهل صالح ، وإن فعلوا الأمرين معا. قال الزمخشري : وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم. وهذا من الزمخشري على طريقة المعتزلة في أن العقل يدرك الحسن والقبح قبل الشرع ، والكذب قبيح عقلا.

وكان تآمرهم على قتل صالح بعد أن توعدهم على عقرهم الناقة فقال لهم : ﴿تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود ١١ / ٦٥].

ولكن الله كادهم وأحبط مؤامرتهم وجعل الدائرة عليهم ، فقال : ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي ودبروا مؤامرة وكادوا كيدا خفيا ، ولكنا جازيناهم وأهلكناهم ، وعجلنا لهم العقاب ، دون أن يشعروا بمجيئه ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي فتأمل أيها الرسول وكل سامع كيف كان مصير تآمرهم أنا أهلكناهم وقومهم جميعا ، ولم نبق أحدا منهم إلا الذين آمنوا بصالح عليه‌السلام .

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي وكان من آثار إنزال العذاب بهم أن أصبحت مساكنهم خالية بسبب ظلمهم أنفسهم ، إن في هذا العقاب لعبرة وموعظة لأناس أهل معرفة وعلم ، يعلمون بسنة الله في خلقه ، وبأن النتائج مرتبطة بالأسباب ، فالويل كل الويل لمن كفر بالله وكذب رسله ، ولم يقلع عن طغيانه وعناده وكفره.

أما المؤمنون فهم دائما ناجون كما قال سبحانه :

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي ونجينا من العذاب صالحا النبي ومن آمن به إذ ساروا إلى بلاد الشام ونزلوا بالرملة من فلسطين ؛ لأن الإيمان واتقاء عذاب الله بطاعته سبب دائم للنجاة من عذاب الدنيا والآخرة.

والمقصود تذكير قريش والعرب وتحذيرهم بأنهم إن استمروا في كفرهم وعنادهم عذبوا كما عذّب أمثالهم ، وأن محمدا ﷺ والمؤمنين المصدقين برسالته ينجيهم الله برحمة منه وفضل.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ من البداهة أن ينقسم الناس بعد النبوة إلى فريقين : فريق مؤمن وفريق كافر ، وليس هذا شرا ، وإنما هو أثر طبيعي من آثار الرسالة النبوية ، وهو حجة على الكافرين وليس ذريعة لهم في معاداة الأنبياء.

٢ ـ المخاطبون بالرسالة الإلهية هم المخطئون المقصرون بتفويت فرصة الخير على أنفسهم ، لذا قال صالح عليه‌السلام لقوله : ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب ، فكانوا يقولون لفرط الإنكار : ايتنا بالعذاب. وهم لم يدركوا أن الإيمان سبب للرحمة ، والكفر سبب للعذاب.

٣ ـ لقد استبد الجهل والعناد بقوم صالح فقالوا بغلظة : لقد تشاءمنا منك وممن آمن بك ، والشؤم : النحس ، ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطّيرة أي التشاؤم ، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدورا فقد جهل. وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة ، وكانت إذا أرادت سفرا نفّرت طائرا ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت ، فنهى النبي ﷺ عن ذلك ، وقال فيما رواه أبو داود والحاكم عن أم كرز : «أقرّوا الطير على وكناتها» أي أعشاشها ولا تنفروها ، وفي رواية : «مكناتها».

ورد صالح على قومه : ﴿قالَ : طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي مصائبكم عند ربكم ، وأنتم قوم تمتحنون ، وقيل : تعذبون بذنوبكم.

٤ ـ إن قادة السوء ودعاة الكفر من أشد الناس عذابا يوم القيامة ، ويضاعف لهم العذاب ، لذا خصص القرآن التنديد بتسعة رجال من أبناء مدينة صالح وهي الحجر ، وكانوا عظماء المدينة ، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد ، ويدعون قومهم إلى الكفر والضلال. وكان قدار بن سالف الذي عقر الناقة أحد هؤلاء التسعة زعماء الاجرام. وزاد من طغيانهم أنهم عقروا الناقة ، وتآمروا على قتل نبي الله صالح عليه‌السلام ، فكانوا عتاة قوم صالح ، مع أنهم كانوا من أبناء أشرافهم.

٥ ـ إن كل مكر أو تدبير خفي أو مؤامرة دنيئة كالتآمر على قتل نبي ، ذو عاقبة سيئة ، فلا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، لذا كان عقاب قبيلة ثمود بسبب كفرهم وطغيانهم التدمير والإهلاك بصيحة جبريل عليه‌السلام وبإمطار الملائكة عليهم حجارة قاتلة قتلتهم. قال القرطبي : والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة.

٦ ـ بقيت آثار الدمار شاهدة على سوء أفعال ثمود ، فصارت بيوتهم خالية من

السكان ، بسبب ظلمهم أنفسهم بالكفر والفساد والمعاصي ، وفي ذلك عبرة للمعتبر.

٧ ـ نجّى الله الذين آمنوا بصالح ؛ لأنهم مؤمنون اتقوا الله وخافوا عذابه ، قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل. وهذا أيضا بشارة بالرحمة والنجاة لأهل الإيمان في الدنيا والآخرة ، فاللهم يا ربنا ثبّت علينا الإيمان ، والإخلاص في عبادتك ، وجنبنا العصيان ، فإنا نخاف عذابك ، ونجّنا من عذاب الدنيا وأهوال عذاب الآخرة يا أرحم الراحمين.

القصة الرابعة

قصة لوط عليه‌السلام مع قومه

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾

الإعراب :

﴿وَلُوطاً﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : واذكر لوطا ، أو أرسلنا لوطا.

البلاغة :

﴿أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ استفهام توبيخي وإنكاري.

المفردات اللغوية :

﴿وَلُوطاً﴾ أي واذكر لوطا ، أو أرسلنا لوطا ، لدلالة : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا﴾ في قصة صالح السابقة عليه. ﴿إِذْ قالَ﴾ بدل مما قبله على تقدير : اذكر ، وظرف على تقدير : أرسلنا ﴿الْفاحِشَةَ﴾ اللواط. ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فحشها ، من بصر القلب ؛ لأن اقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح ، أو يبصر بعضكم بعضا انهماكا في الفاحشة ، وإعلانا بها ، فتكون أفحش.

﴿شَهْوَةً﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة ، وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه ، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل ، لا قضاء الوطر. ﴿مِنْ دُونِ النِّساءِ﴾ اللاتي خلقن لذلك. ﴿تَجْهَلُونَ﴾ عاقبة فعلكم ، أو تفعلون فعل من يجهل قبحها ، أو يكون سفيها لا يميز بين الحسن والقبيح.

المناسبة :

هذه هي القصة الرابعة في هذه السور ، لكن تتمتها في بداية الجزء التالي ، قصد بها كما قصد بغيرها من القصص السابقة التحذير من مخالفة أوامر الله ، واقتراف الفواحش أو المعاصي الكبيرة ، لئلا ينزل بالعصاة من العذاب مثل ما نزل بمن قبلهم.

التفسير والبيان :

﴿وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي واذكر أيها الرسول لقومك قصة لوط حين أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين فقال منكرا عليهم وموبخا لهم : أتأتون الفاحشة وهي إتيان الذكور دون الإناث ، مع علمكم بقبحها ، واقتراف القبيح من العالم أشنع من غيره ، أو في حال رؤية بعضكم بعضا إذ تأتون في ناديكم المنكر. ثم صرح بما يفعلون بعد الإبهام فقال :

﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ هذا تكرار للتوبيخ ، أي كيف تقبلون إتيان الرجال من غير النساء ، فهذا شذوذ جنسي ، وانتكاس للفطرة ، وترك لما أحل الله لكم من الاستمتاع بالنساء ، والحقيقة أنكم قوم جهلاء سفهاء ، لا تعرفون شيئا لا طبعا ولا شرعا ، وتجهلون عاقبة هذا الأمر الشنيع ، ولا تميزون بين الحسن والقبيح ، فتفضلون العمل الشنيع على المباح لكم من النساء. كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ ، وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ١٦٥ ـ ١٦٦].

وإذا فسرت ﴿تُبْصِرُونَ﴾ بالعلم ، ثم قال ﴿تَجْهَلُونَ﴾ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ والجواب كما ذكر الزمخشري أنه أراد : تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة ، مع علمكم بذلك ، أو تجهلون العاقبة ، أو أنه أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ، أي أنهم سفهاء ماجنون.

ولا نرى حملة تشنيع على منكر مثل هذه الحملة الشديدة ، فقوله ﴿الرِّجالَ﴾ شذوذ يأباه الحيوان ، وقوله : ﴿مِنْ دُونِ النِّساءِ﴾ انحراف عن الشيء الطبيعي والأفضل ، وأنه خطأ بالغ وفعل قبيح ، وقوله ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصف ثابت لازم لهم بأنهم يفعلون فعال الجهلاء السفهاء الذين لا يميزون ولا يعقلون الفرق بين الحسن والقبيح.

وإزاء هذه الحملة ، وبالرغم من عنفها وقسوتها أجابوا عنها بما لا يصلح أن يكون جوابا مقبولا ولا معقولا في ميزان العقلاء ، وهو ما سيأتي في مطلع الجزء التالي.

آمنت بالله

انتهى الجزء التاسع عشر

فهرس

الجزء التاسع عشر

الموضوع الصفحة

سورة الفرقان ٥
تسميتها مناسبتها لما قبلها ٥
ما اشتملت عليه السورة ٦
إنزال القرآن ووحدانية الله تعالى ٧
مطاعن المشركين في القرآن ١٤
طعن المشركين في النبي المنزل عليه القرآن ١٩
إنكار المشركين يوم القيامة وحالهم فيه ومقارنتهم بأهل الجنة ٢٧
أحوال الكفار مع معبوداتهم يوم القيامة ٣٣
بشرية الرسل عليهم السلام ٣٨
طلب المشركين إنزال الملائكة عليهم أو رؤية الله والإخبار بإحباط أعمالهم ٤٢
رهبة يوم القيامة وهوله ٤٩
هجر الكفار القرآن ومطالبتهم بإنزاله جملة واحدة ٥٥
قصص بعض الأنبياء وعقوبات مكذبيهم ٦٣
١ ـ القصة الأولى ـ قصة موسى وهارون عليهما السلام ٦٥
٢ ـ القصة الثانية ـ قصة نوح عليه السلام ٦٦
٣ ـ القصة الثالثة ـ قصة عاد وثمود وأصحاب الرّس ٦٦
٤ ـ القصة الرابعة ـ قصة لوط عليه السلام ٦٧

استهزاء المشركين بالنبي ﷺ وتسمية دعوته إضلالا ٧٠
أدلة خمسة على وجود الله وتوحيده ٧٦
جهل المشركين في عبادة الأوثان وتوجيه النبي وسبب جعل العبادة للرحمن ٨٩
صفات عباد الرحمن ١٠٠
سورة الشعراء ١١٨
تسميتها مناسبتها لما قبلها ١١٨
مشتملاتها ١١٩
فضلها ١٢٠
تكذيب المشركين بالقرآن وإنذارهم وإثبات وحدانية الله ١٢٠
القصة الأولى قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه ١٢٦
١ ـ امتنان فرعون على موسى بتربيته ١٢٦
٢ ـ الجدل بين موسى وفرعون في إثبات وجود الله ١٣٦
٣ ـ معجزة موسى عليه السلام ووصف فرعون لها بالسحر ١٤٣
٤ ـ إيمان السحرة بالله في المبارزة الحاسمة في مشهد عظيم ١٤٦
٥ ـ نجاة موسى وقومه وإغراق فرعون وجنده ١٥٥
مقدمة لخروج بني إسرائيل من مصر ١٥٧
القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام ١٦٤
١ ـ التنديد بعبادة الأصنام وبيان صفات الرّب المستحق للعبادة ١٦٤
٢ ـ دعاء إبراهيم عليه السلام دعاء المخلصين الأوّابين ١٧١
٣ ـ أوصاف يوم القيامة وثواب الله وعقابه وندم المشركين على ضلالهم ١٧٦
القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام مع قومه ١٨٢
القصة الرابعة قصة هود عليه السلام مع قومه ١٩٠
القصة الخامسة قصة صالح عليه السلام مع قومه ١٩٦

القصة السادسة قصة لوط عليه السلام مع قومه.................................... ٢٠٣
القصة السابعة قصة شعيب عليه السلام مع قومه ٢٠٩
إنزال القرآن من عند الله لإنذار المشركين وبشارة المؤمنين.................... ٢١٨
آداب الداعية وواجباته ٢٣٤
الرد على افتراء المشركين بأن النبي كاهن أو شاعر............................ ٢٤٠
سورة النمل ٢٥٢
تسميتها مناسبتها لما قبلها... ٢٥٢
مشتملاتها ٢٥٣
رسالة القرآن ٢٥٥
القصة الأولى قصة موسى عليه السلام بالوادي المقدس............................. ٢٦٠
القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما السلام ٢٧٠
١ ـ نعم الله الجليلة عليهما.. ٢٧٠
أ ـ تعليم سليمان منطق الطير ٢٧٣
ب ـ جنود سليمان.. ٢٧٥
ج ـ قصة النملة ٢٧٥
٢ ـ قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام ٢٨٠
٣ ـ جواب بلقيس على كتاب سليمان عليه السلام ٢٩٠
٤ ـ إسلام بلقيس وولاؤها وزيارتها لسليمان عليه السلام ٢٩٩
خلاصة نعم الله تعالى على سليمان عليه السلام... ٣٠٩
القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام مع قومه ٣١٤
القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام مع قومه ٣٢٢